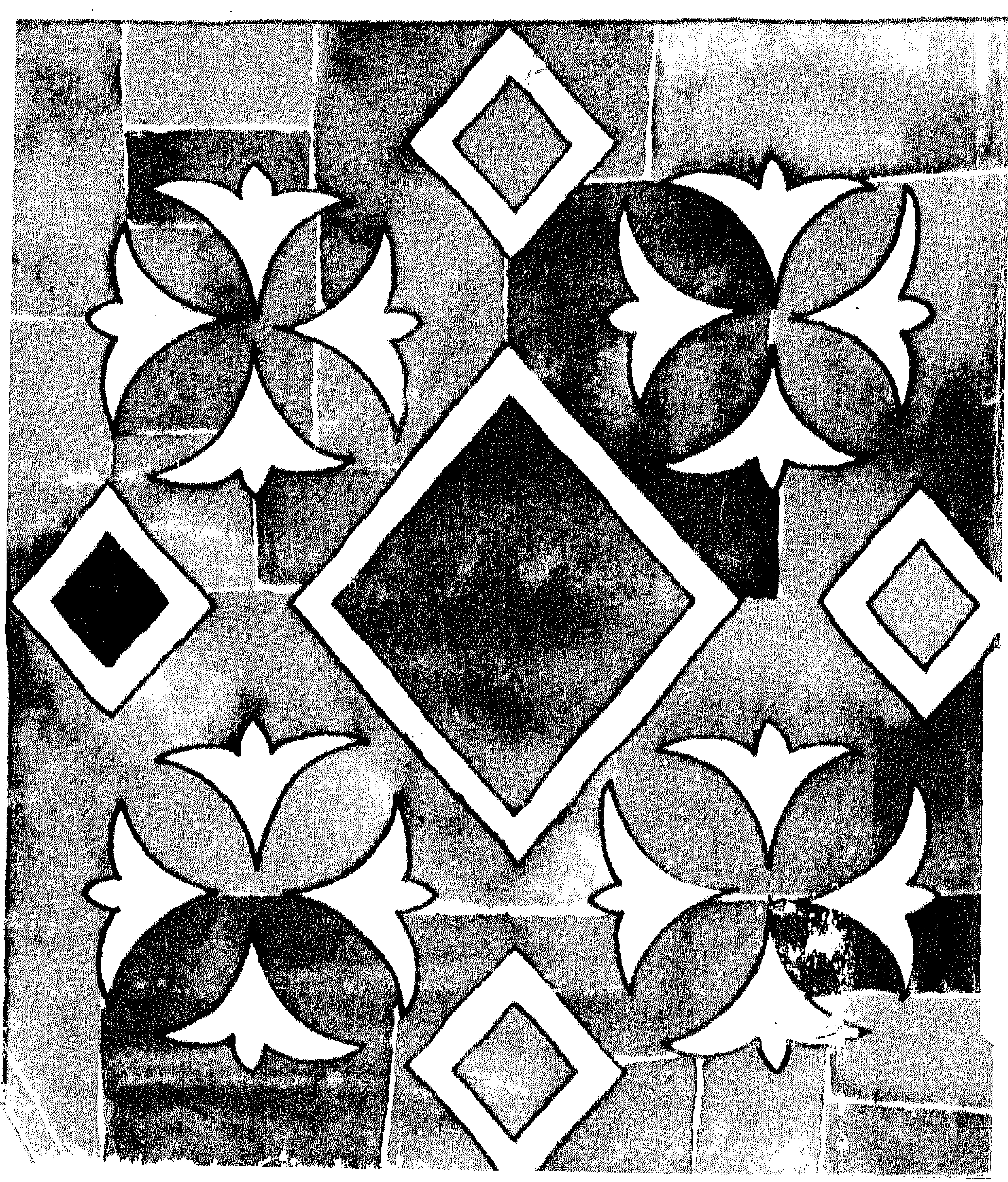
كتاب اليوم
يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم
• العدد ٣١٧ • يناير ١٩٩١ م •

عبقرية المسيح

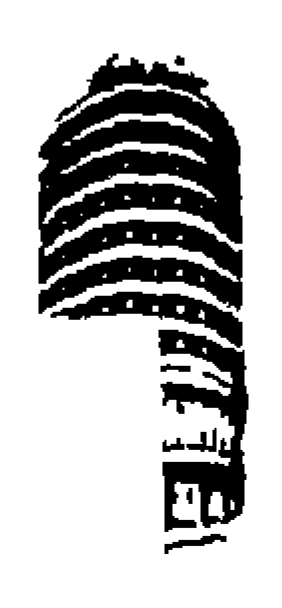


عباس محمود العقاد

عبقرية المسيح

■ المشرف على التحرير : جمال الغيطانى

● العدد ٣١٧ ● يناير ١٩٩١ م ●



كتاب اليوم

أنشأه

مصطفى أمين وعلى أمين

ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الادارة

سعيد سنبل

العدد ٣١٨ جمادى الآخر ١٤١١ هـ

يناير ١٩٩١ م

كانون الثانى

الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشره حطوط

تلكس دولى ٩٢٢١٥ ـ محلى ٩٢٢٨٢

الاشتراكات

جمهورية مصر العربيه

قيمة الاشتراك السنوى ١٦ جنيه مصرى.

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى والافريقى ٢٠ دولار امريكى اوما يعادله

باقى دول العالم واوربا والامريكيتين وأسيا واستراليا ٢٠ دولار امريكى اوما يعادله

- ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
- ترسل القيمة إلى الاشتراكات ٦ ش الصحافة القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

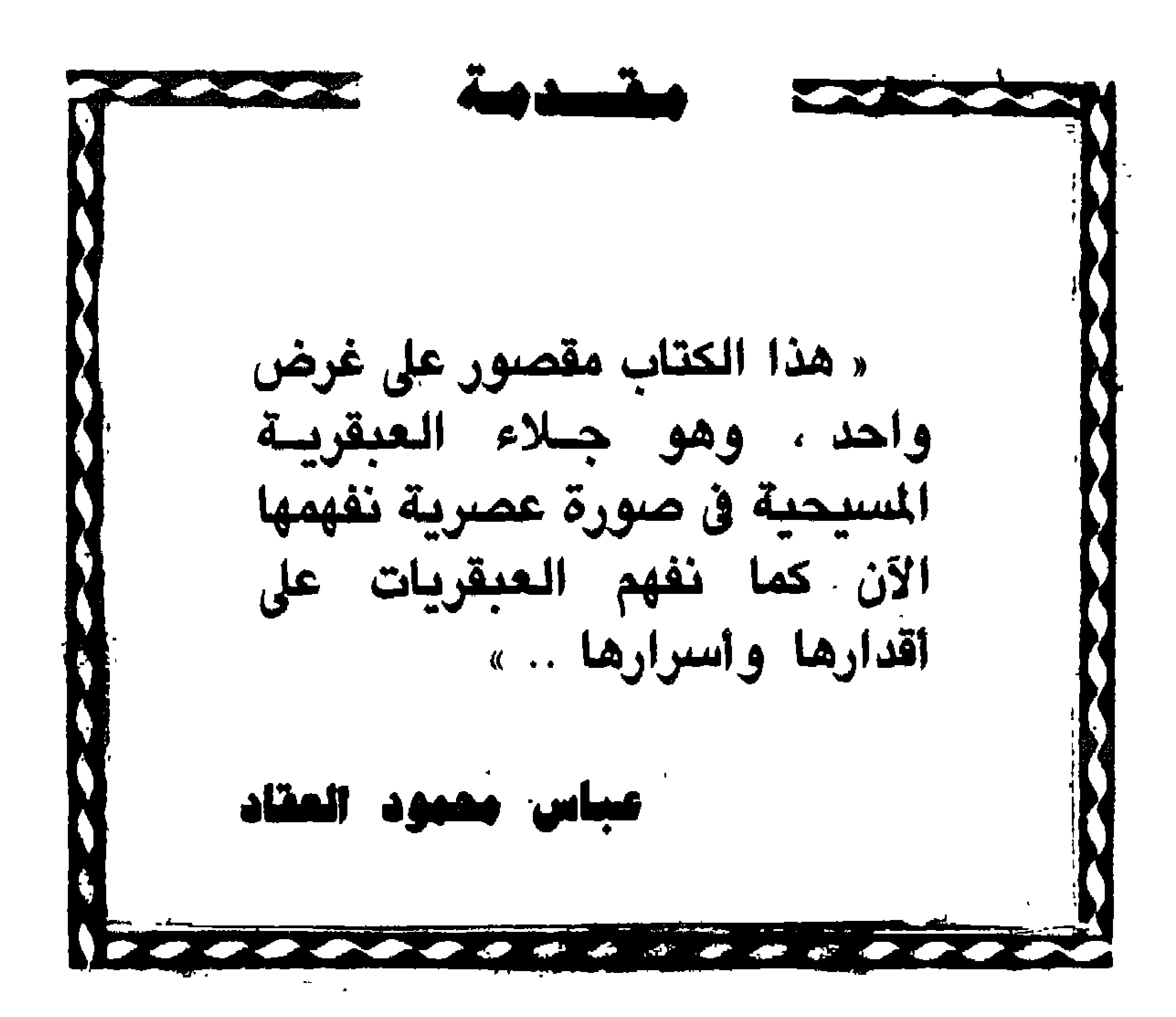
أسعار كتاب اليوم

البلد	السعر	العملة
المغرب	٢٠	درهم
لبنان	١٥٠٠	ليرة
الاردن	٧٥٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	٧٠٠	فلس
السعودية	٧	ريالات
السودان	٥٠٠	قرش
تونس	١٤٠٠	مليما
الجزائر	١٧٥٠	سنتيما
سوريا	١٤٠٠	ق س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	٨٥٠	فلس
سلطنة عمان	٧٠٠	بيسة
غزة	١٠٠	سنت
ج اليمنية	١٠	ريالات
امبول نيجيريا	٨٠	سنى
السنغال	٦٠	فرنك
الامارات	٨	درهم
قطر	٨	ريالات
انجلترا	١٢٥	بنى
فرنسا	١٠	فرنك
المانيا	٥	مارك

فى الخارج

البلد	السعر	العملة
ايطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	روبية
سويسرا	٤	فرنك
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلن
الدنمارك	١٥	كرونات
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	سنتا
كندا امريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كرويزو
نيويورك واشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

الغلاف : محمد عفت



مقدمة

« هذا الكتاب مقصور على غرض واحد ، وهو جلاء العبقرية المسيحية فى صورة عصرية نفهمها الآن كما نفهم العبقريات على أقدارها وأسرارها .. »

عباس محمود العقاد



• الباب الأول •

المسيح .. في التاريخ

- النبوّة بين بني اسرائيل
- الطوائف اليهودية في عصر الميلاد
- الحالة السياسية والاجتماعية في عصر الميلاد .
- الحياة الدينية في العالم في عصر الميلاد
- الحياة الفكرية في عصر الميلاد
- جليل الأمم
- تاريخ الميلاد
- صورة وصفية .

﴿ الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾

سورة النور

﴿ وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ﴾

سورة الأنعام

﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون . . . ﴾

سورة النحل

﴿ والتين والزيتون وطورسينين وهذا البلد الأمين ﴾

سورة التين

﴿ فلينظر الانسان إلى طعامه أنا صببناالماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا ﴾

سورة عبس

هذه هى الشجرة المباركة فى التنزيل
شجرة الزيتون . شجرة البحر الخالد
شجرة الحوض الذى نبتت عليه حضارة
الانسان ودارت حوله ، ولا تزال تدور .
عالية تعلو خمس قامات وتزداد باقية
تبقى خمسة قرون ، ثم لا تصير الى نفاد

كريمة تؤتى من ثمراتها ما تشتهيه الأنفس وتشتهى به طيب الطعام ، سعيدة تؤتى من عصيرها النور والطب ومسوح الاهاب وجبائر العظام ، من خشبها صور المحاريب واعواد المنابر ، ومن ورقها اكاليل الابطال وتحيات البشائر . وتتشابه بركتها على الأبطال الأقدمين فيتمسحون بطيبها طلبا لقوة النفس وقوة الجسد وهم يقبلون على الصراع ويتناضلون ، وتتشابه بركتها عليهم كرةاخرى فهم يعلنون السلم ، ويرفعون غصن الزيتون !

بوركت فى وحى المعابدوالضمائر ، وبروكت فى رموز القرائح والخواطر ، فلم يعرف الناس امنية لا يرمزون لها بسماتها وأسمائها ، ولم يذكروا نعمة لا يذكرونها بنعمائها : رمزوا بها إلى الضياء ، ورمزوا بها إلى السلام ، ورمزوا بها إلى الخير والرخاء ، وتزودوا منها فى البادية والحاضرة ، وادخروها للدنيا والآخرة ، واتخذوها للمصابيح فى محاريب الصلاة والتسبيح ، ورجعوا إليها باسم من اقدس الاسماء ، هو « السيد المسيح » .

لأمر ما نبتت فى فلسطين ، وانتشرت منها فى منابت العالمين ، وعلى نحو من هذا وهبت مسحتها للرسول الامين ، فطافت رسالته حيث طافت ، من عليين إلى غايتها من البلاغ المبين .

ولو لم تكن « الزيتونة » الا أن هذا الاسم المبارك مردود الى مسحتها وبركتها ، لاستحقت به الخلد المصون ، خضراء على مدى السنين والقرون .

يدل علم المقارنة بين الاديان على شيوع الايمان بالخلاص ، وظهور الرسول المخلص فى زمن مقبل ، وظهر من عقائد القبائل الحمر فى القارة الأمريكية ان القبائل التى تؤمن بهذه العقيدة غير قليلة فى الامريكتين ، وليس فى هذا عجب . لأن الرجاء فى الخير أصل من أصول الديانة ، والأمل فى الصلاح مادة من مواد الحياة الانسانية يبثها الخالق فى ضمير خلقه ، ويفتح لهم بها سبيل الاجتهاد فى طلب الكمال والخلاص من العيوب .

وقد يشتد هذا الأمل حين تشتد الحاجة إليه ، فكان المصريون الأوائل يترقبون « المخلص » المنقذ بعد زوال الدولة القديمة ، وروى برستيد عن الحكيم ابيور (Ipuwer) ان المخلص الموعود « يلقى بردا على اللهيب ويتكفل برعاية جميع الناس ويقضى يومه وهو يلم شمل قطعانه »(١)

وقد كان البابليون يؤمنون بعودة « مردخ » الى الأرض فترة بعد فترة لقمع الفتنة وتطهيرها من الفساد ، وكان المجوس يؤمنون بظهور رسول من اله النور كل ألف سنة ينبعث فى جسد انسان ، وقيل انه هو زرادشت رسول المجوسية الأكبر الذى يرجعون اليه بتفضيل الاعتقاد فى اله النور واله الظلام ، وقد تخلفت هذه العقيدة الى ما بعد اليهودية والمسيحية والاسلام واشار اليها الجاحظ وهو يتكم عن استاذه ابراهيم بن سيار النظام حيث قال : « ان السلف زعموا ان كل الف عام يظهر رجل لا نظير له ، فاذا صدق هذا الزعم كان النظام هذا الرجل للألف عام هذه »

أما الايمان بظهور رسول الهى يسمى « المسيح » خاصة فلم يعرف بهذه الصيغة قبل كتب التوراة وتفسيراتها أو التعليقات عليها ، فى التلمود والهجادا وما إليها .

---

(١) صفحة ٧٩ من كتاب نور من الشرق القديم لمؤلفه جاك فينجان .

ومرجع التسمية نفسها إلى الشعائر التى وردت فى سفر التكوين وسفر الخروج وما يليها من أسفار الانبياء . فإن المسح بالزيت المبارك شعيرة من شعائر التقديس والتكريم ، وأول ماورد ذلك فى الاصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين حيث روى عن يعقوب انه « بكر فى الصباح واخذ الحجر الذى وضعه تحت رأسه وأقامه عمودا وصب زيتا على رأسه ودعا ذلك المكان بيت أيل - أى بيت الله »

وجاء فى الاصحاح الثلاثين من سفر الخروج ان « الرب كلم موسى قائلا . . وأنت تأخذ أفخر الاطياب . . دهنا مقدسا للمسحة . . وتمسح به خيمة الاجتماع وتابوت الشهادة والمائدة وكل آنيتها والمنارة وآنيتها ومذبح البخور ومذبح المحرقة . وتقدسها فتكون قدس أقداس ، وكل ما مسها يكون مقدسا . وتمسح هارون وبنيه وتقدسهم . . »

وكان الأحبار والأنبياء يسمون من اجل هذا مسحاء الله وتنهى التوراة عن المساس بهم كما جاء فى الاصحاح السادس عشر من سفر الايام : « لا تمسوا مسحائى ولا تؤذوا انبيائى »

وكان مسح الملوك أول شعائر التتويج والمبايعة فكان شاءول وداود من هؤلاء المسحاء

ثم أطلقت كلمة « المسيح » مجازا على كل مختار ومنذور فسمى كورش الفارسى « مسيحا » كما جاء فى الاصحاح الخامس والأربعين من سفر اشعيا ، لأن الله أخذ بيده لاهلاك أعداء الاسرائيليين واقامة بناء الهيكل من حديد وسمي الشعب كله مسيحا كما جاء فى المزامير وكتاب النبى حمقوق ، ومنه « خرجت لخلاص شعبك : خلاص مسيحك » وبمعنى الشعب المختار .

وتكررت فى كتب « الهجادا » أو كتب التعاليم الاشارة الى الرسول المنتظر باسم المسيح ، فتارة يطلق هذا الاسم على يوسف وتارة على موسى عليهما السلام ، ولا يزال المؤمنون بالرسالة المسيحية من طوائف اليهود ينتظرون مسيحا فى صورة رسول هاد أو صورة شعب مبرور

لانهم لا يدينون برسالة عيسى ابن مريم عليهما السلام .

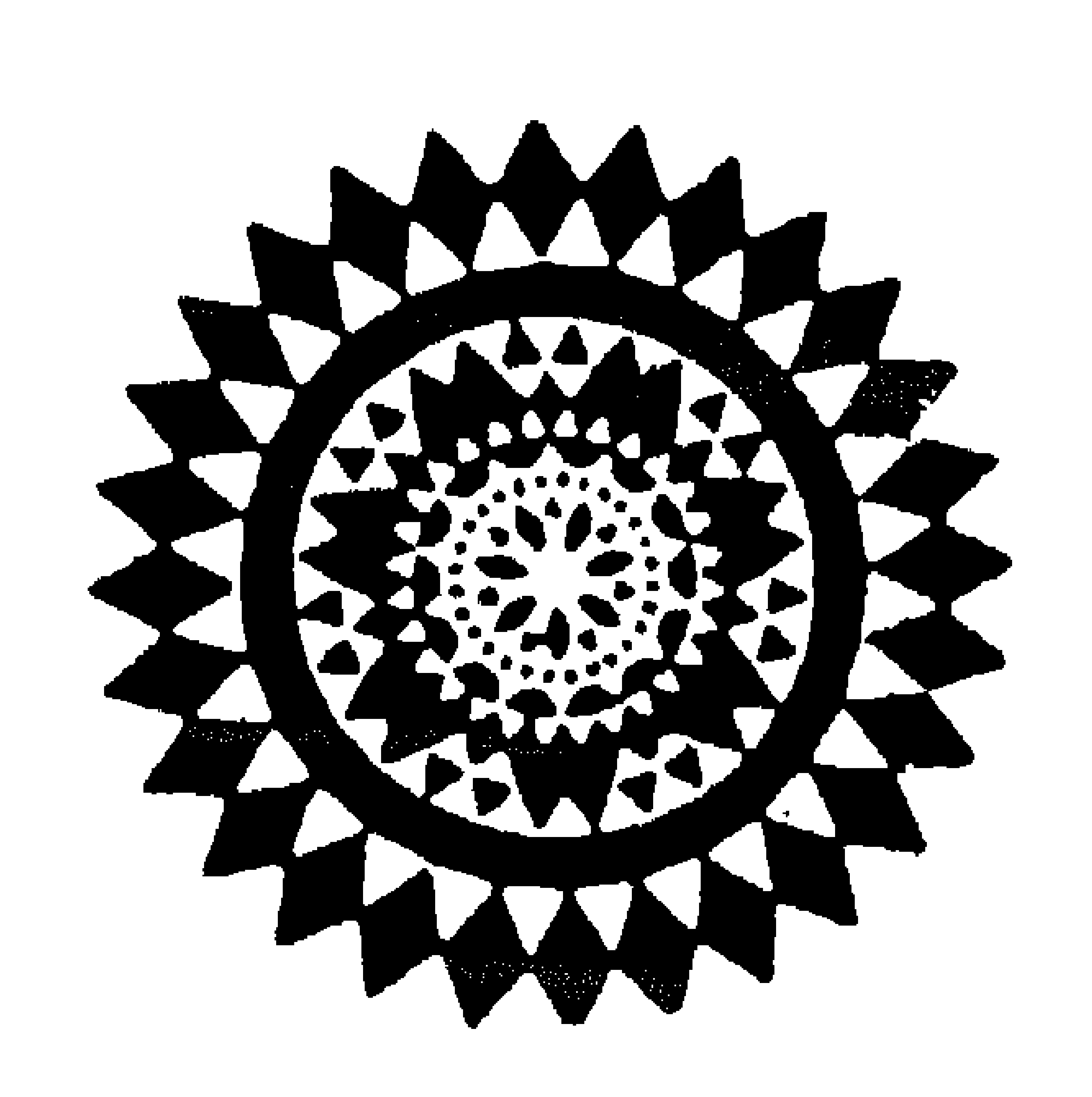
وقد كان الايمان بانتظار المسيح على أشده بعد زوال ممكلة داود وهدم الهيكل الأول ، فردد الشعب الاسرائيلي وعود أنبيائه بعودة الملك إلى امير من ذرية داود نفسه تخضع له الملوك وتدين الأمم لسلطانه ، ثم ترقى الايمان « بالمسيح » بمعنى الملك إلى الايمان بالمسيح بمعنى المختار أو المنذور للهداية والصلاح ، وبلغ هذا التحول غايته في بعض النبوءات ومنها نبوءة اشعيا التي امتازت بتكرار هذه الوعود ، فمن وصف القوة والبطش والصولة والصولجان ، الى وصف الدعة والتضحية والصبر على المكاره في سبيل التحذير والتبشير ، وقد جاء في الاصحاح الثالث والخمسين من صفات الرسول المنتظر « انه محتقر ومخذول من الناس ورجل أوجاع وأحزان » . وجاء في الاصحاح التاسع من سفر زكريا أنه « عادل ومنصور وديع يركب على حمار ابن أتان » . . واتفقت أقوال كثيرة على انه يأتي مسبوقا برائد يعلن مجيئة ، وهو النبى ايليا (الياس) منبعثا من الأموات .

وقد كان هذا الارتقاء في فهم الرسالة المسيحية يصاحب أطوار الشعب الاسرائيلي في تاريخ المتعاقب ، فيقوى الرجاء في المسيح الملك كلما ضعفت الدول المسيطرة على فلسطين وهان خطب الثورة عليها وتعاظم الأمل في استقلال رعاياها ، ويعود الرجاء إلى « المسيح الهادى » كلما استحكم سلطان الغالبين وبدا أن الأمل في الخروج عليهم بقوة السلاح بعيد عسير ، وهكذا تراوح تفسير الرسالة المنتظرة بين رجعة الدولة وبعثة الهداية على حسب أطوار التاريخ ، فلما دخلت فلسطين في حوزة الدولة الرومانية سنة خمس وستين قبل الميلاد وأخذ الأمل في قيام الدولة يتضاءل ويخلفه الأمل المتتابع في انتظار الرسول المخلص والبعثة الروحانية ، اقترن هذا التحول بظاهرتين تصطحبان حينا وتفترقان بل تتناقضان جملة أحيانا . فعظم سلطان الهيكل وكهانة حين تحول السلطان القومى كله اليهم وأصبح هذا السلطان ملاذ

المتطلعين الى كل رئاسة قومية تصمد للدولة الاجنبية ، ومن الناحية افخرى جنحت الضمائر المتعطشة الى اليقظة الروحية جنوحا متمردا على القديم مؤمنا بانتظار البعث من غير جانب « الهيكل » وبقاياه وماجمد عليه مع الزمن من الموروثات المأثورات .

فلما بلغ الكتاب أجله وحانت البعثة المرقوبة كان المعسكران متقابلين متحفزين على استعداد .

■ ■ ■



النبوة بين بنى اسرائيل

من تمام العلم باستعداد عصر الميلاد لدعوات النبوءة أن نلم بأحوال النبوءة فى الشعب الاسرائيلى منذ تكاثر عدده وتنوعت أعمال الرئاسة والتعليم بين قبائله واسباطه ، فان أحوال النبوءة فى ذلك الشعب لم تكن على الصورة التى تسبق إلى خواطرنا من النظر فى تواريخ كبار الأنبياء ، وتواريخ الفترات التى مضت .

فنحن اليوم نستهول دعوة النبوءة ونعلم عن يقين ان الذى يقدم على ادعاء النبوءة فى عصرنا هذا يقدم على خارقة مستغربة ويعرض نفسه لاتهام المتدينين قبل المنكرين والملحدين ، لأن اتباع الاديان يؤمنون بختام النبوءات أو يؤمنون بأن النبى الجديد ينتقص عقائدهم ويزعم لنفسه من علمهم مالم يعلم من كتبهم وأقوال أنبيائهم ، أما المفكرون والملحدون منهم لا يقبلون دعوى النبوءة فى هذا العصر ولا فى عصر من العصور .

ونحن اليوم نعلم أن الفترة بين ابراهيم وموسى وبين موسى وعيسى وبين عيسى ومحمد صلوات الله عليهم قد طالت حتى حسبت بمئات السنين ، ففى اعتقادنا على الدوام أن ظهور الانبياء حادث جلل لا يتكرر فى كل جيل ولا يراه الانسان فى عمره مرتين .

ونحن اليوم نعلم من تواريخ كبار الأنبياء انهم أقدموا على مصاعب تخيف المقدمين عليها وشقوا بدعوتهم طرقا لا يسهل تذليلها ، لانهم

حطموا ألهة وسفهوا أحلاما وغيروا العقائد التى درجت عليها الأمم عصورا بعد عصور ، وأقاموا عليها سلطان ذوى السلطان كما أقاموا عليها شرائع الحاكمين والمحكومين . كذلك صنع محمد وكذلك صنع موسى عليهما السلام ، فمن تولى الهداية الى دعوة على هذا النحو فهو متعرض للعدوان والبغضاء مقتحم على الناس طريقا لا يقبلون اقتحامه من أحد ، ولا يرون أحدا يقتحمه عليهم إلا أعنتوه وأقاموا له العراقيل .

أما أحوال النبوءة فى بنى اسرائيل فينبغى ان نتصورها على غير هذا النحو لأنها تخالفه من جمله وجوه .

فأول ما هنالك من الفوارق أن الانبياء فى بنى اسرائيل لم يكن وجودهم ندرة ، ولم يكن بينهم فترة ، أو لم يكن حتما لزاما أن تكون بينهم فترة ، فقد يوجد منهم فى العصر الواحد أربعمائة نبى كما جاء فى سفر الملوك الأول حيث جمع ملك اسرائيل « الانبياء نحو أربعمائة رجل وسألهم أأذهب الى رامه جلعاد للقتال ؟ »

وخير ما ورد فى وصف مكان الانبياء بين بنى اسرائيل قول النبى (محمد) صلوات الله عليه : علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل

فقد كان عمل النبى فى شعب اسرائيل كعمل العالم الفقيه فى الأمة الاسلامية ، ولم يكن من المستغرب ان يسمع بهم الخاصة أو العامة فى وقت من الأوقات ، ولم يكن قيامهم انكارا لقيام الأنبياء من قبلهم ، بل هو تفسير للكتب والنذر وحض على اتباع السنن التى رسمها لهم من قبل ابراهيم وموسى ويعقوب وغيرهم من الانبياء السابقين ، بل كانوا يعلمون من كتب العهد القديم أن الله وعد اسرائيل « أن يقيم أنبياء مثله ويجعل كلامه فى أفواههم (١٨ تثنية) وأن بعض هؤلاء الانبياء قد يتحدث إلى الناس بكلام غير كلام الوحى فعليهم أن ينبذوه » . .

« وأن قلت فى قلبك كيف تعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب فاعلم انْ ما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهذا كلام لم يتكلم به الرب . . فلا تخف منه »

بل يجوز أحيانا أن تصدق الأقوال والعلامات ولا يجوز للشعب أن يستمع الى وصايا الانبياء إذا دعوه إلى عبادة رب غير إله اسرائيل . . فإذا قام فى وسطك نبى أو صاحب رؤيا وأعطاك آية أو اعجوبة . . فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو صاحب الرؤيا أن دعاك الى عبادة آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها ولو صدقت الاعجوبة أو الآية . . (١٣ تثنية) .

ولم تكن النبوءة بإذن من ذوى السلطان أمراء كانوا أو كهانا أو شيوخا مطاعين فى القبيلة ، بل يمتلىء يقين الانسان بالايحاء اليه فيمضى فى تبليغ وحيه ولا يقوى أحيانا على كف لسانه كما قال أرميا : « قد اقنعتنى يارب فاقتنعت وألححت على فغلبت . صرت أضحوكة نحوكة وهزءا . . وكلمة الرب جللتنى بالعار والسخرية . . فقلت لا أذكره ولا انطق باسمه بعد ، فكان فى قلبى كأنه نار محرقة محصورة فى عظامى . . فلم تكن لى طاقة بالسكوت » (٢٠ أرميا)

وكثيرا ما كان النبى ينحى على زملائه فى عصره ويخالفهم فى تفسير النذر من ربه ، كما قال ارميا « من عند انبياء أورشليم خرج نفاق إلى الأرض كلها . . فلا تسمعوا كلام الانبياء الذين يتنبأون لكم فانهم يبطلون عملكم ويتكلمون برؤيا قلوبهم »

أو كما قال ميخا لملك اسرائيل : « هو ذا الرب قد جعل روح كذب فى أفواه جميع انبيائك هؤلاء »

قال هذا فتصدى له صدقيا بن كنعانة « وضرب ميخا على الفك وقال له من أين عبر روح الرب منى ليكلمك »

وكان المعهود فى الانبياء كما روت كتب التوراة أن يطلب انبياء اسرائيل حالة الكشف كما يطلبها المتصوفون والنساك فيما علمناه من أخبارهم المتواترة ، فمنهم من يصوم ويتهجد ويمسك عن فضول العيش ويلتمس المناره والانهار كما قال دنيال : « لم أكل طعاما شهيا ولم يدخل فى فمى لحم ولا خمر ولم أدهن حتى تمت ثلاثة أسابيع ، وفى

اليوم الرابع والعشرين من الشهر الأول إذ كنت إلى جانب النهر العظيم دجلةرفعت عيني ونظرت »

بل منهم من كان يستعين بالسماع ليشعر بصفاء الروح ويستلهم الغيب كما جاء في سفرصمويل الأول : « إنك تصادف زمرة من الأنبياء يهبطون من الأكمة أمامهم رباب ودف وناى وعود وهم يتنبأون فيحل عليك روح الربْ (٩ صمويل أول)

أو كما جاء في سفر الملوك الثاني : « فقال اليشع حى رب الجنود . . الآن فأتونى بعواد » . فلما ضرب العواد بالعود كانت عليه يد الرب »

ولكن الأغلب مع هذا انهم كانوا يرتادون الخلوات وينقطعون في جوانب الانهار « عند نهر خابور انفتحت فرأيت رؤى الله (٩ حزقيال)

ولا يمتنع عندهم أن يلهم الله بالرؤيا الصالحة أو الدليل البين انسانا من غير الانبياء ومن غير شعب اسرائيل كما ألهم أبيمالك وبلعام ، ولكنهم يلهمون ليعرفوا بأنفسهم حق الانبياء والمرسلين .

وكان الغالب على سامعى النبوءات أن يطلبوا آية يعلمون بها أن المتكلم ينطق بوحى من الله ، ولكن طلب الآية لم يكن عندهم دليلا على اليقين والايمان ، وربما أذن للنبى أن يطلب الآية ويمعن في طلبها فيرى من الأدب ألا يجرب ربه بدليل هذه الآيات (٧ أشعيا)

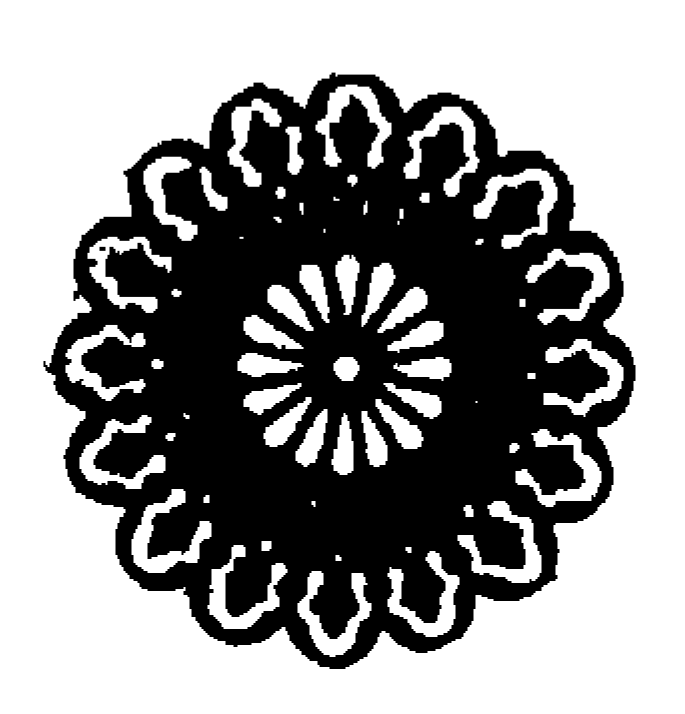
على أنهم كانوا يلجأون إلى الانبياء يستشيرونهم قبل الحرب أو الرحلةأو الاقامة لعلمهم أنهم أقرب إلى الله وأدنى أن يطلعوا على الغيب المحجوب عن أنظار الدنيويين المنغمسين في هموم الحياة ، ومن هؤلاء الأنبياء من كان يستمع الوحى صوتا عاليا ومن كان يحسه الهاما أو هداية أو رؤيا صالحة ، وغالبا ما كانوا يقصرون رسالتهم على النذير بالعقاب كما خرج الشعب عن سنة الاقدمين وانحرف عن سواء العبادة كلما تلقاها آباؤهم من الانبياء السابقين . فلم تكن النبوءة اقتحاما ولا بدعة مستغربة ، ولم يكن فيها خطر على النبى الاحين يتصدى للملوك والأمراء فيأخذ عليهم مخالفة الشريعة أو مخالفة

المأثور عن السلف ومن هؤلاء الملوك والأمراء من كان يعمد إلى التنكيل بالنبى فى هذه الحالة ليثبت للناس كذبه وأنه لم يأت من عند الله . إذ كان موت النبى الكاذب احدى العلامات على بطلان دعواه

ولعلنا نصف الحالة حق وصفها حين نقول ان القوم كانوا يبحثون عن الأنبياء ، ويترقبونهم ولا يعتبرون ظهورهم خارقة يستهولونها أو يستغربون تكرارها ، وأن الانسان المتهيىء للنبوءة كان يخشى ان يسكت عن الدعوة متى جاشت ضمائره بحوافزها وألحت عليه أياما بعد أيام ، حتى يصبح السكوت فى حكم سريرته عصيانا لأمر الله ونكولا عن ارادته ، ومتى استقر فى سريرته ان طلب الآية تجربة لله وضعف فى الايمان فأسلم الأمور عنده حين تجيش نفسه بروع الله ان ينذر ويبشر ، وعلى الله بعد ذلك ان يثبت نبوءته وأن يهديه ويهدى الناس إليه كما يشاء .

وفى عصر الميلاد ذلك العصر الذى ترقبت فيه النفوس بشائر الدعوة الألهية من كل جانب كما يترقب الراصدون كوكبا حان موعد طلوعه ـ لاجرام تتفتح الآذان لصوت المبشر الموعود ، ولا جرم كذلك أن يكون البرهان المطلوب منه على قدر الرجاء فى الخير المنتظر ، وأن يمتحنه الناس فيعسروا غاية العسر فى امتحانه ، خوفا من سهولة الدعوى على الادعياء ، وخوفا من بطلان الرجاء فى ابان اللهفة على الرجاء ، فهو رجاء عظيم يعلقه المرتجون على برهان عظيم .





الطوائف اليهودية
فى عصر الميلاد

كان العالم اليهودى فى العصر الذى ولد فيه السيد المسيح يشتمل على طوائف مختلفة ، لكل منها مذهبه فى انتظار المسيح المخلص الموعود .

والتعرف بهذه الطوائف ضرورى لتقرير مكان العقيدة الجديدة بين العقائد التى سبقتها فى بيئات بنى اسرائيل .

وضرورى من جهة أخرى لانه ـ فيما نرى ـ أقوى دليل يرد به على الناقدين المحدثين الذين ظهروا منذ القرن الثامن عشر وجمحت بهم شهوة النقد والتشكيك حتى جاوزوا الشك فى النصوص والروايات إلى الشك فى وجود السيد المسيح نفسه ، كأنه فى زعمهم شخصية من شخصيات الأساطير . وتسقط دعوى هؤلاء الناقدين بمجرد الاحاطة بأصول المذاهب التى كانت معروفة فى عصر الميلاد ؛ لأن الدعوة المسيحية كانت تعديلا لكل مذهب من هذه المذاهب فى ناحية من نواحيه وكانت هذه التعديلات فى جملتها تثوب الى وحدة متماسكة من القواعد والمثل العليا ، لا بدلها من « شخصية » مستقلة عن هذه المذاهب جميعا ، قادرة على عرض شعائرها وعقائدها على محك واحد متناسق الفكر والايمان .

ونكتفى من الطوائف الدينية التى كانت معروفة فى عصر الميلاد بخمس منها ، وهى طوائف الصدوقيين والفريسيين والأسين والغلاة والسامريين ، وكل طائفة من هذه الطوائف الخمس مهمة فى تاريخ العصر بمزية من المزايا التى تتوقف عليها قوة المذاهب الدينية .

فالصدوقيون هم فى دعواهم أتباع صدوق » وأسرته الذين تواترت الروايات بأنهم كانوا يتولون الكهانة فى عهد داود وسليمان .

وكانت طائفتهم مهمة بمراكز اصحابها ، لأنهم على الجملة أنصار المحافظة والاستقرار وأصحاب الوجاهة والثراء

وقد كانوا متشددين فى انكار البدع والتفسيرات . ومتشبثين بالقديم يؤيدون سلطان الهيكل والكهان ويقبلون أقدم الكتب التى احتوتها التوراة وهى كتب موسى عليه السلام ، ويرفضون ما عداها ولا سيما المأثورات المنقولة بالسماع .

وتدعوهم المحافظة على النظام القائم الى مسلك يناقض عقيدتهم فيما هو ظاهر من لوازمها . فقد كانوا أقرب اليهود الى الأخذ بالحضارة اليونانية وعادات المعيشة فى البيئات الرومانية ، ومنهم من كان يدين ببعض المذاهب الفلسفية كمذهب ابيقور كما كان مفهوما فى ذلك العصر ، وقد كان الشائع عنده يومئذ انه مذهب اللذة الحسية والمتعة بالترف والنعيم ، ولكنهم فى الواقع لا يناقضون سنتهم وسنة أمثالهم فى كل زمن ، فانهم يحافظون على نظام المجتمع لأنهم أصحاب اليد الطولى عليه ، ولهذا يحبون متاعه ونعيمه ويوفقون بينهم وبين أصحاب السلطان السياسى وقد كانوا يومئذ من اليونان والرومان ، ويملى لهم فى هذه النزعة أنهم يؤمنون بأن الكتب اليهودية الأولى لا تذكر البعث ولا اليوم الآخر ولا تعد الصالحين حياة بعد هذه الحياة ، خلافا للطوائف الاخرى التى تؤمن بالبعث والحساب .

وقد كانت الحملة على السيد المسيح بقيادة اثنين من كبار الكهنة الصدوقيين وهما « حنانيا » و« قيافا » . . ولم يكن فى ذلك عجب . لأن

الصدوقيين جميعا يحافظون على سلطان الهيكل ويحافظون على النظام القائم أو لا يستريحون الى الثورة والانقلاب .

وخلاصة الآداب الصدوقية انهم حرفيون فى مسائل الدين متوسعون فى مسائل المعيشة ، وانهم يعاشرون الاجانب ولا يعتزلونهم كسائر أبناء قومهم ، لأن أعمالهم ومراكزهم متصلحة بذوى السلطان .

وتقابل الصدوقيين طائفة اخرى هى طائفة الفريسيين ، وهى أقوى من الطائفة الصدوقية بكثرة العدد وشيوع المبادىء والاراء ، وحسن السمعة بين سواد الشعب وعلية القوم الذين لا يخالطون الاجانب ، وان لم يكن بين أفرادها كثيرون فى مرتبة الرؤساء والوجهاء .

واسم الفريسيين مأخوذ من كلمة عبرانية تقارب كلمة « الفرز » العربية فى لفظها ومعناها ، فهم المفروزون أو المتميزون ، وخصومهم يطلقون عليهم هذا الاسم تهكما وتحقيرا لاعتقادهم انهم فرزوا انفسهم عن السلف واعتزلوا طريق الجماعة الأولى . أما هم فقد كانوا يطلقون لقب الفريسيين أو المفروزين على أنفسهم ويردونه الى خطاب الله لبنى اسرائيل جميعاكما يروونه فى الاصحاح العشرين من سفر اللاويين ، فهناك يخاطب الله الشعب قائلا : « وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لى » . . فهم عند أنفسهم المميزون المفضلون .

لهذا كانت تلازمهم فى بعض الاحيان صفات الادعاء والتعالى التى تلازم كل طائفة تستأثر لنفسها بالمزية بين الطوائف الأخرى ، وكان بعضهم هدفا لحملات السيد المسيح تنديدا بما يظهرونه من الثقة والكبرياء .

على أنهم كانوا يقابلون بهذه الكبرياء كبرياء الوجاهة والثروة التى كانوا يستنكرونها على خصومهم الصدوقيين ، وكانوا يثورون على السلطان « الرسمى » حيث كان فى الهيكل أو فى المراجع الاجنبية ، فكانوا ينكرون على الكهان استبدادهم بالشعائر والمراسم ، وينكرون فى الوقت نفسه عادات الأجانب والمتشبهين بهم محاكاة للحكام والمتسلطين .

وقد كانت ثورتهم الأولى ثورة على البدع الأجنبية التى كانوا يرفضونها كل الرفض ولا يسامحون من يقبلها . فلما أمر الملك « انطيوخس » كاهن الهيكل ان يضحى فى مذبحه بالخنازير (سنة ١٦٨ قبل الميلاد) قاموا قيامة رجل واحد وعرضوا أنفسهم للموت بالمئات والألوف كراهة لهذه البدعة النجسة ، وحدث فى عهد الرومان أن الوالى « بترونيوس » عجب من عنادهم فى مقاومة الدولة الرومانية مع ضعفهم وقوتها ، فسأل زعماءهم . كيف يخطر لكم ان تحاربوا قيصرا ولستم اكفاء لقوته ، فقالوا نحن لا نحارب قيصر ولا نزعم اننا أكفاء لقوته ، ولكننا نموت على بكرة أبينا ولا نخالف الشريعة ، وكشفوا رقابهم مستعدين لاثبات ما يقولون .

ومن نقائضهم ان ثورتهم على استبداد الهيكل ورغبتهم فى تعميم الشعائر التى كانت محصورة فى المحاريب هى التى دعتهم الى اقامة هذه الشعائر فى البيوت بغير حاجة الى الكهان المرسومين ، ولكنهم لم يلبثوا ان جعلوا من كل بيت هيكلا مقدس المراسم . . . فكانوا على ميلهم الى السماحة ومقاومة الاستبداد « الرسمى » اشد من المتشددين .

إلا أن الغالب عليهم حين يبتعدون عن الأمور التى تتعرض لهذه النقائض انهم اقرب الى التصرف والقياس ، أو أقرب الى تحكيم العقل فى مسائل النصوص والتقاليد ، فكان الصدوقيون مثلا يصرون على شريعة العين بالعين والسن بالسن ولا يقبلون الدية ، وكان الفريسيون على عكس ذلك يفضلون الدية والمسامحة على القصاص ، وكان الصدوقيون أقرب إلى المادية والقواعد العلمية وكانوا هم اقرب الى الروحانية والآداب النظرية أو آداب التامل والتفكير ، وقد كان انكار البعث والحياة والروحية اشد ما ينكرونه على خصومهم الصدوقيين ، من أجل هذا سبقوهم مراحل الى انتظار الخلاص أو انتظار المسيح المخلص فى عالم الروح ، غير مقيد بشروط الصولة والصولجان

وإذا وصف الصدوقيون على الاجمال بانهم طبقة « الارستقراطيين »

فالذين يستحقون وصف الديمقراطيين دون غيرهم من طوائف اليهود فى ذلك العصر هم الفريسيون .

وقد جاء عصر الميلاد وهم ينقسمون الى فريقين : فريق منهما يتبع الحكيم « هلل » الذى قدم الى فلسطين من بابل وهو الفريق السمح الودود فى معاملة الأجانب ، والفريق الآخر يتبع الحكيم « شماى » وهو اقرب الى التحرج والتضييق ورد الراغبين فى دخول الدين من غير اليهود ، وكان شعار هلل الاعتدال بين الزهد والمتاع وكلمته المأثورة « أن الزيادة فى اللحم زيادة فى الدود » . . وشريعته فى المعاملة أن الشريعة كلها كلمة واحدة وهى ألا تصيب احدا بما تكره ان تصاب به ، وكل ما عدا ذلك من الإحكام المنزلة فهو تفسير وتفصيل وأما الحكيم شماى فقد كان الاعتدال بين الزهد والمتاع أكثر مما يطيق ، وروى انه كان يحترف النجارة ليعيش من كسب عمله ، وأن غيرته على القديم كانت أقوى من اقباله على الجديد والتصرف فى تأويل النصوص .

والقول الراجح بين المؤرخين ان معلمى السيد المسيح فى صباه كانوا من طائفة الفريسيين

■ ■ ■

والطائفة الثالثة التى تقل عن هاتين الطائفتين فى العدد كثيرا وتساويهما أو تزيد عليهما فى القوة والاثر هى طافة الآسين أو الآسينيين كما يكتبها رواة الأخبار عنها فى عصر الميلاد .

عددها كما قدره المؤرخ يوسفيوس والفيلسوف فيلون لا يزيد على اربعة آلاف ، يعيش أكثرهم فى جنوب فلسطين .

ومصدر قوتهم صرامة العقيدة وتنظيم الخطة ، وقد تكون دلالتهم أعظم من قوتهم ، لانهم طائفة من صميم الأمة الاسرائيلية قد استقلت بشعائرها وعباداتها وآرائها واسرارها وأوشكت ان تستقل عن « الهيكل » كله فى غلاقتها بالدين والقومية ، ولولا انها تعترف بتقريب

القرابين في الهيكل لما حسبت من طوائف اليهود ، ولكنها مع هذا تنكر ذبح الحيوان ولا تقرب القرابين من غير النبات .

واسم هذه الطائفة مختلف عليه ، ولكن الراجح من الأقوال المتعددة ان الاسم مأخوذ من كلة « آسى » بمعنى الطبيب أو النطاسى في اللغة الارامية ، وهي تفيد هذا المعنى في اللغة العربية التى تعد اللغة الآرامية اقرب اللغات السامية اليها ، ومن المعقول ان يتسمى اصحاب هذا المذهب بالآسين لأنهم كانوا يتعاطون طب الروح ويدعون ابراء المرضى بالصلوات والاوراد ، كما يدعون العلم بخصائص العقاقير

وقد نشأت الطائفة على الأغلب بالاسكندرية في القرن الثانى قبل الميلاد ، واقتبست من المدارس الاسكندرية كثيرا من أنظمة العبادات السرية وبعض المذاهب الفلسفية ، كمذهب فيثا غوراس الذى يحرم ذبح الحيوان ويدعو الى التقشف والقناعة بالقليل .

وكان حراما عند ابناء هذه النحلة ان يملك أحدهم ثوبين أو زوجين من النعال أو يدخر الامتعة والاقوات ، وكانت الرهبانية غالبة عليهم إلا من أذن له بالزواج ويعفى من قيودالنسك وبالتبولة .

وكانوا ينتظمون في النحلة على ثلاث درجات . درجة التلمذة ويقبلون فيها الصبيان فيما دون الحلم ، ثم درجة المقسمين وهم الذين يقسمون اليمين ويقضون سنة في الرياضة والتدريب على العبادة والاطلاع على الأسرار ، ثم ينقل المريد الى درجة الواصلين ويقضى فيها سنتين ، ثم يلبس شعار الطائفة وهو ثوب أزرق وزنار ويحمل الفأس في يده ، كناية عن العمل الشاق ، ولهم بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية شعائر متواترة يقوم بها الاساتذة ، منها الاغتسال وتلاوة بعض العهود ، ويقسم احدهم مرة واحدة يمين الامانة والمحافظة على سر الجماعة ، ويحرم عليه القسم بالحق أو الباطل مدى الحياة ، ويجوز فصل العضو بعد رسمه اذا حنث في يمينه واتفق مائة من الاخوان على ادانته ، بل يجوز الحكم عليه بالموت اذا بلغ الحنث حد الخيانة والكفر بقواعد الايمان .

وهم يتطهرون من الحدث ، ويصلون عند الفجر ، ويحافظون على الراحة في يوم السبت ، ومنهم من لا يستبيح في ذلك اليوم ازالة الضرورات .

وليس بينهم رئاسة ولا سيادة ، والرق عندهم حرام ، وعملهم المفضل الزراعة والصناعة اليدوية . أما التجارة فهي في مذهبهم عمل خبيث أو غير لائق ، وأخبث منها حمل السلاح للقتال .

والمادة عندهم مصدر الشر كله ، والسرور بها سرور بالدنس والخباثة ، وكان يغلب عليهم من أجل هذا وجوم الصمت والندم ، وكل ما يباح لهم من السرور فهو سرور الروح أو سرور الاتصال بعالم الأرواح ، وهو عالم سماوى في أعلى الاثير يرتفع اليه المؤمن بالعبادة والرياضة والقنوت .

وكانوا يتآخون ويصطحبون اثنين اثنين في رحلاتهم ، وقلما كانوا يشاهدون في المدن الآهلية بالسكان أو في الاحياء التي يرتادها القصاد للفرجة وازجاء الفراغ .

وهم مؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص ، معتقدين ان الخلاص بعث روحانى يهدى الشعب الى حياة الاستقامة والصلاح ، ورائدهم في طلب الرضا من الله هو النبى عاموس الذى كان يعلم الشعب ان التقرب إلى الله بالعدل والرحمة خيرمن التقرب إليه بالذبائح والهدايا .

ولا يبعد ان يكون الغلاة أو الجليليون أتباع يهودا الجليلى فرقة متطرفة من فرق الأسين ، لانهم يسلكون مسلكهم في التقشف والقناعة ويزيدون عليهم بالحض على العمل لتحقيق النبوءات وتقريب يوم الخلاص ، وهم الذين ثاروا ونظموا العصابات في السنة السادسة أو السابعة قبل الميلاد وتمردوا على أمر الاحصاء الذى صدر من « كرينياس » حاكم سورية وأصبح اليهود بموجبه معدودين من رعايا القيصر ، أو عبيده الذين يدينون له بالسيادة وحجتهم أن طاعة

القيصر من عبادة الاوثان ، وان احصاء الشعب لاعتباره من عبيد القيصر مروق به من الديانة ولما رفع الملك هيرود تمثال النسر القيصرى فوق هيكل بيت المقدس ذهب اثنان من الغلاة اليه وانتزعاه عنوة وانذر اخوانهما من يعيده الى مكانة بالموت ، وقد ثار هؤلاء فى سنة الاحصاء بقيادة يهودا الجليلى ومات هو وأبناؤه وذووه فى ابان الثورة ، وكانت الدولة الرومانية تحذر الفتنة فى هذه البقعة المتوسطة بين القارات الثلاث ، فكانت تؤثر التقية والمداراة فى معاملة الثائرين ، ولا تاخذهم بالقمع والسطوة الا إذا ضاقت بها سبل الحلم والاناة .

★ ★ ★

والطائفة السامرية خليط من اليهود والاشوريين كانوا يقيمون فى مملكة اسرائيل القديمة ، يقال انهم قبائل اشورية ارسلها ملوك بابل الى فلسطين ليسكنوها فى اماكن القبائل اليهودية التى نفيت الى ما بين النهرين وسميت من اجل ذلك بسبايا بابل ، ويقال انهم اختلطوا باليهود الذين بقوا فى بلادهم ولم تحملهم الدولة البابلية الى بلادها مع القبائل المسبية ، فوقع من هذا الاختلاط فى السكن والنسب اختلاط فى العادات والعبادات ، وعاد اليهود الذين رجعوا من السبى بعد سقوط بابل فانكروا من السامريين شعائرهم المخالفة لتقاليدهم واتهموهم بعبادة الأوثان ، ورفضوا مشاركتهم فى بناء الهيكل الجديد ، فعمد السامريون الى بناء هيكل خاص لهم فى جرزيم وجعلوا يتعمدون ان يدنسوا هيكل بيت المقدس ويحصروا القبلة فى هيكلهم ومثابة حجهم وعبادتهم ، وقد بقى منافسا لهيكل بيت المقدس زهاء مائتى سنة حتى هدمه رئيس كهان بيت المقدس حناهير كانوس قبل الميلاد باكثر من مائة سنة ، ولكنهم أعادوا بناءه وظل قائما حتى هدمه الرومان بعد ثورة السامريين فى القرن الخامس للميلاد ، وقدهدم فسباسيان مدينتهم واقام على انقاضها مدينة سماها المدينة الجديدة « نيوبوليس » او نابلس المعروفة اليوم ، ولا تزال بقايا السامريين تحتفظ بتقاليدها وتعتمد على

نسخة التوراة المكتوبة بلغتها ، ولا تعترف بكتاب بعد الكتب الخمسة التي تعرف بالكتب الموسوية۔ ولا تدين بعاصمة مقدسة غير موطن هيكلها المهدوم جرزيم ، وقد استحكم العداء بين أصحاب الهيكلين في عصر الميلاد حتى بطل الامان في السفر بين السامرة والبلاد الاخرى ، وتعرض للاهانة والنكال كل من خاطر بالسفر الى السامرة من يهود الجنوب او الشمال .

★ ★ ★

ومن المحقق ان هؤلاء السامريين كان لهم شان في تطور الفكرة المسيحية او فكرة الخلاص المنتظر على يد الرسول الموعود ، ويرجع شأنهم هذا الى النزاع القائم بين مملكة يهودا في الجنوب ومملكة اسرائيل التى ورثها السامريون وهم ينتسبون الى يعقوب ويدعون انهم دون غيرهم الجديرون باسم « الاسرائيليين » .

فإذا اعتقد أصحاب مملكة يهودا في الجنوب ان عاصمتهم ـ بيت المقدس ـ هي مقر الملك المنتظر . وان هذا الملك المنتظر سيكون من سلالة داود فهذا الاعتقاد يرضيهم ويرد المجد إلى دولتهم ويجعل الخلاص على ايديهم . ولكن السامريين ابناء الشمال كانوا يلجون في عدائهم لداود وذريته ويثيرون النزاع القديم بين الاسباط . وينكرون على الأقل عقيدة الخلاص على يدى ملك من اسرة الملك في يهودا ويفتحون بذلك السبيل الى الايمان بالخلاص الروحانى والهداية الشعبية ويزعزعون الثقة في أحبار الهيكل الجنوبى وفيمن عسى ان يبايعوه بالملك ، إذا حان الموعد المقدور .

ولم تخل البلاد جميعا ـ مع هذا ـ من اناس هنا وهناك يئسوا من جميع الطوائف والنحل واعتزلوا الدنيا وعاشوا في الصوامع بمعزل عن العمران ، وارتفع شانهم في اعين الشعب لسوء ظنه بالدعاة المغامسين للدنيا في بيئات الساسة والكهان ، ومن هؤلاء « بانوس » الذى تتلمذ عليه يوسفيوس المؤرخ الكبير ثلاث سنوات وكان هذا الناسك الثائر

يعيش فى عزلة ويأكل مما يتفق له بغير سعى ولا مسألة ، ويكثر من التطهر بالماء والتزكى بالرياضة والتلاوة ، وكان على مثال بانوس نساك متعددون يشبهونه فى شعائر الاعتزال والاغتسال ، واشهرهم يحيى المغتسل المعروف فى الاناجيل باسم يوحنا المعمدان .

أما موقف الهيكل من هذه الطوائف والفرق فهوالموقف « الرسمى » المعهود . . أو موقف المسئولين الذين يحاولون ان يتجنبوا التحيز لهذا أو لذلك ، ويجتهدون غاية اجتهاهم ان يكسبوا ثقة الشعب ولا يغضبوا سلطان الدولة ، وقلما يتيسر النجاح فى هذه المهمة . ولا سيما فى أوقات القلق والتطلع والتبرم بكل موجود .

كان الهيكل خيمة فى عهد البداوة ، وكان الشعب يعتقد قديما ان الله يتجلى فى هذه الخيمة للانبياء والكهان ، ثم بنيت الخيمة من خشب يفك وينقل فى أيام التيه ، ثم اقام سليمان الحكيم هيكله بديلا من الخيمة والمعبد الخشبى ، وقيل انه انفق على بنائه مائة الف وزنة من الذهب والف الف وزنة من الفضة غير ما جمعه اسلافه واعقابه ، وبلغت تكاليف بنائه بحساب ايامنا الحاضرة نصف مليار من الجنيهات وضعف ذلك فى حساب الآخرين حسب تقدير المتقال فى المعاملات الرسمية وغير الرسمية ، وعظمت هيبة الهيكل وارتفعت اقدار كهانه واحباره ردحا من الزمن ، ثم هدمه البابليون بعد ان قام فى مجده أكثر من أربعة قرون ، ثم امر كروش الفارسى بإعادة بنائة فى سنة ٥٣٦ قبل الميلاد ، وجاء الملك هيرود بعد خمسة قرون فجدد بناءه واضاف إليه ، وتم ذلك أو كاد فى عصر الميلاد .

لكن الهيكل بعد تقلب العصور وسيطرة الدولة على مناصب الكهانة خسر من المكانة بمقدرا ما كسب من الفخامة ، وبدا عصر الميلاد وسلطان الهيكل يتداعى فى الحقيقة الواقعة ويتمكن فى الصورة الظاهرة : يتداعى لأنه يقوم على غير ثقة ، ويتمكن لأنه كان الموئل الوحيد الذى بقى لقومه بعد زوال ملكهم والياس من إعادة ذلك الملك ، مع غلبة الرومان على المشرق والمغرب فى عصر الميلاد ،

وقد كانت وظائف الهيكل كلها محصورة فى أصحاب الكهانة ، وهى وظيفة دينية كانت موقوفة على سلالة هارون أو قبيلته لا يتولاها غيرهم من أسباط اليهود ، ومن أعمالهم فى الهيكل أمامة الصلاة والافتاء فى مسائل الفقه وتقديم الذبائح والخدمة الدينية فى الاعراس والمآتم والعناية بالآنية المقدسة ، وقد تزايد عددهم مع الزمن حتى قيل ان القائد زربابل (أى المولود فى بابل) كان معه عند عودته من البلاد البابلية نحو أربعة آلاف وثلثمائة كاهن غير السابقين والمتخلفين ، ولهذا كانوا يقسمونهم الى فرق تقوم كل فرقة منها بالخدمة أياما من الشهر ، ويقتسمون جميعا النذور والمرتبات .

ولما تطاول الزمن وتكاثرت ذرية هارون وجد منهم ألوف بغير علم وبغير عمل ، يتعاطون صناعة الكهانة ويقتسمون النذور ولا يشتركون فى تعليم الشعب ولا فى اقامة الصلوات ، ووجد إلى جانبهم أناس يعرفون الكتابة ويسجلون الأسفار الدينية ولا نصيب لهم من وظائف الهيكل ولا من نذوره وأوقافه ، وهؤلاء هم جماعة « الكتبة » أو فقهاء الدين ، وكانوا جميعا من الفريسيين لأنهم هم الذين يقبلون الأسفار الحديثة ويعتمدون عليها فى العبادات والمعاملات ، خلافا للصدوقيين الذين كانوا ـ كما تقدم ـ يقصرون تلاوتهم على الكتب الموسوية الخمسة ويرفضون كتب الانبياء من بعدها ولا يعتمدون من ثم على جماعة الكتبة والفقهاء .

فلما جاء عصر الميلاد كان كثير من الكهان يشتركون فى صناعة الكهانة ولكنهم لا يعملون فى الهيكل ، وكان كثير من الكتبة والفقهاء يشتركون فى صناعة الكهانة ولكنهم لا يعملون فى الهيكل ، وكان كثير من الكتبة والفقاء يشتركون فى العلوم الدينية ولكنهم لا يحسبون من رؤسائه الوراثيين ، وشاع بين الشعب اهمال الكهان فى المسائل الدينية التى تحتاج الى التعليم والافتاء على الخصوص ، وشاع بين الشعب كذلك الاقبال على العلماء « غير الوراثيين أو غير الرسميين » لسؤالهم فى

المعضلات والاقتداء بهم فى مسالك الحياة ، فاصيبت المكانة « التقليدية » بضربة قوية وانفسح الطريق للدعوة الدينية غير مصحوبة بالمراسم « الكهنوتية » والشعائر « الهيكلية » على الخصوص .

وولد السيد المسيح ووظائف الهيكل على أشهر الروايات مصفاة فى المجمع المقدس الذى يطلق عليه اسم « السنهدرين » . . وعدة أعضائه واحد وسبعون عضوا منهم ثلاثة وعشرون يتالف منهم المجلس المخصوص وتغلب عليه الصبغة الرسمية التقليدية ، ويتصل أعضاؤه برجال الدولة فى الشئون العامة وما يرجع منها إلى تنفيذ الاحكام والمحافظة على الشريعة المحلية أو الشريعة الموسوية .

وعلى حسب المالوف يحاول اصحاب المناصب فى « السنهدرين » أن يرجعوا باصله إلى أقدم العهود ، وكانوا يزعمون انه هو المجلس الذى ورد ذكره فى سفر العدداذ يقول : « فقال الرب لموسى اجمع الى سبعين رجلا من شيوخ اسرائيل الذين تعلم انهم شيوخ الشعب وعرفاؤه واقبل بهم الى خيمة الاجتماع فيقفوا هناك معك ، فانزل انا واتكلم معك وآخذ من الروح الذى عليك واضع عليهم فيحملون معك ثقل الشعب فلا تحمله انت وحدك »

غير أن المراجع التاريخية ومراجع الكتب الدينية نفسها تخلو من ذكر السنهدرين ، إلا اشارة عابرة هنا وهناك لايستفاد منها تقدير عدده ولا تفصيل حقوقه ووظائفه ، ومما لا ريب فيه ان المجلس الذى كان فى عهد السيد المسيح قد سلب حق الحكم فى الجرائم الكبرى قبل هدم الهيكل الثانى بنحو أربعين سنة ، وكانت احكامه الكبرى فى أيام المسيح معلقة على اقرار الحاكم الرومانى يبرمها أو ينقضها حين يشاء .

وإذا نظرنا إلى موقف هذه الهيئة من بشرى « المسيح المنتظر » لم نكن نرى فيها باعثا الى الترحيب بتلك البشرى ، لأنها تتضمن الحكم بفساد الزمن كله واليأس من صلاحه واتهام القائمين على شئون الدين

بين اهله ، ولكنها مع هذا لا تستطيع ان تتنكر لهذه الدعوة لانها هى باب الأمل الوحيد فى وجه المؤمنين والمترقبين ، فهى فى موقف الخائف من رجاء الشعب كله ان يتحقق على غيره يديه ، او موقف من يتاهب للبطش بالدعوة على قدر الاقبال عليها ومخايل الأمل فى شيوعها وانتشارها ، وهى اذا انتشرت لم يكن انتشارها فى مثل ذلك العهد مقصورا على الدهماء دون غيرهم ، لأن الفقهاء والعلماء والمتعلمين كانوا من الفريق الذى يستريب بالكهان ولا يابى ان يصدق فيهم انهم كهان فاسدون مفسدون لأنهم آخر الزمان الذين تدركهم صيحة النذير وينصب لهم ميزان الحساب .

ولا يستوفى الكلام على القوى الدينية التى كان لها عمل محسوس فى موطن السيد المسيح قبيل ميلاده عليه السلام بغير الاشارة الى طائفة النذريين او المنذورين الذين وهبوا انفسهم او هبهم اهلوهم لحياة القداسة وخدمة الله والتبشير باليوم الموعود : يوم الخلاص من الظلم والجور والتطهر من الذنوب .

ولم يكن هؤلاء النذريون طائفة تجمعها الوحدة التى تجمع بين اصحاب النحل والمراسم الاجتماعية ، ولكنهم كانوا آحادا متفرقين ينذر كل منهم نفسه أو ينذره اهله على حدة ، ولا ينتسبون إلى جماعة واحدة غير جماعة الأمة باسرها .

والكلمة باللغة العربية ترجع إلى مادة تفيد معنى التجنيد واستعيرت على ما يظهر للجهاد فى سبيل الدين « يقال نذر الجيش الرجل جعله نذيره اى طليعه وربما كان من عمله ان ينذر قومه بالعدو ويبعدهم عن المخاطر والمفاجات ولا شك ان المادة تدور حول هذا المعنى فى العبرية مع اختلاف الحروف والأوزان .

ولا يشترط فى النذرى او المنذور ان يهجر العالم ويعتزل الناس فى الصوامع ولكنه يراض على حياة التنطس فلا يجوز له شرب الخمر ولا ان يدنس جسده بملامسة الموتى او الأجسام المحرمة ، وعليه ان

يرسل شعره ولا يحلقه قبل وافاء نذره ان كان منذورا لأجل مسمى . وقد ينذر الطفل قبل مولده ويمتد نذره طول حياته ويقال عن المنذور انه بمثابة النبى فى سن الفتوة ، قال النبى عاموس للسان يهوا إله بنى اسرائيل . . واقمت من بينكم انبياء ومن فتيانكم نذيرين . . لكنكم سقيتم النذيرين خمرا واوصيتم الانبياء ان يدعوا النبوءة . والنبوءة هنا بمعنى الانذار بما سيكون .

وقد تكاثر النذريون قبيل مولد السيد المسيح لأنه وافق نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقة على حساب التقويم العبرى . هو الموعد الذى كان منتظرا لبعثة المسيح الموعود ، لأنهم كانوا ينتظرونه على راس كل الف سنة ومنهم من كان يقول ان اليوم الألهى كالف سنة كما جاء فى المزامير ، وأن عمر الدنيا أسبوع إلهى تنقضى ستة ايام منه فى العناء والشقاء وياتى اليوم السابع بعد ذلك كما ياتى يوم السبت للراحة والسكينة ، فيدوم الف سنة كاملة هى فترة الخير والسلام قبل فناء العالم . ولا يزال الغربيون يعرفونها باسم الألفية methnoin ويطلقونها على كل عصر موعود بالسعادة والسلام .

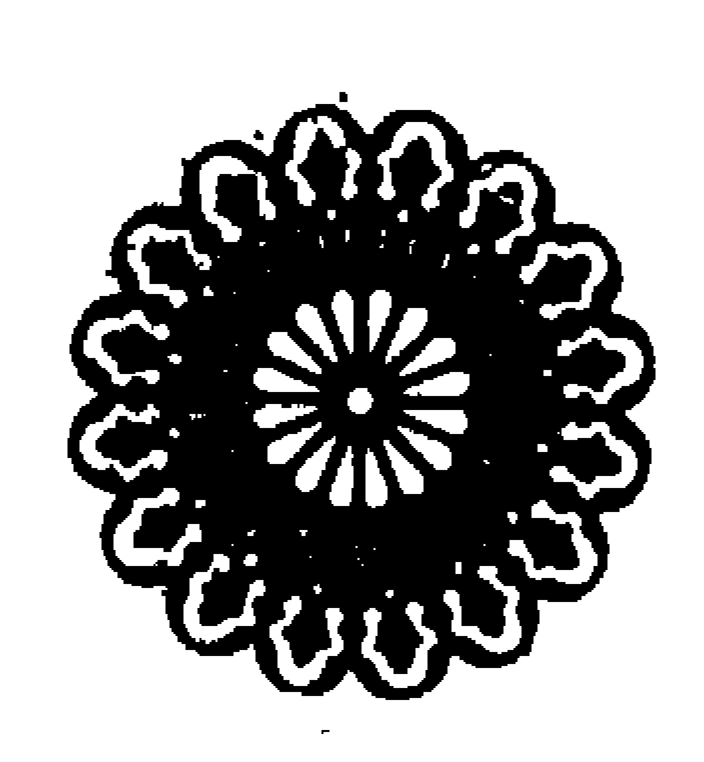
فالذين قدروا ان القيامة تقوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة كانوا يؤجلون قيام ملكوت السماء على الأرض الى نهاية الألف السادسة ، ويومئذ تسود دولة المسيح الموعود ، ولكنهم كانوا كغيرهم فى انتظار رسول من عند الله كلما انتهت ألف سنة من بدء الخليقة ، وكانت بداءة الألف الخامسة موعدا منظورا او منذورا يكثر فيه النذيرون ، لعلهم يحسبون من جند الخلاص او لعل واحدا منهم يسعده القدر فيكتب الخلاص على يديه .

والمهم فى أمر النذيرين بالنسبة الى السيد المسيح ان النبى يحيى المغتسل (يوحنا المعمدان) كان علما من أعلامهم المعدودين ، وكان السيد المسيح يعتمد على يديه او ياخذ العهد عليه ، وأن بعض المؤرخين يحسب السيد المسيح من النذيرين ويلتبس عليه الأمر بين

النذيرى والناصرى وهما فى اللفظ العبرى متقاربان ، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم انه لم يكن من الناصرة بل يزعم ان الناصرة لم يكن لها وجود لأنها لم تذكر قط فى كتب العهد القديم ، ولكن الأرجح فى اعتقادنا ان الناصرة نفسها كانت تسمى نذيرة بمعنى الطليعة عندما كانت على تخوم الأرض التى فتحها العبريون قديما ، وانها كانت مرقبا صالحا للاستطلاع لأن التلول التى تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج المعروف باسم مرج ابن عمير ، وبهذا تزول الصعوبة التى اعترضت المفسرين الغربيين على الخصوص ولا سيما الناظرون فى اللغة اليونانية ، لغة الاناجيل ، فلا عجب ان يضلوا مع التصحيف اللسانى فلا يفرقوا بين النسبة الى المنذورين والنسبة الى النذيرة ، وبخاصة اذا كان اسم البلدة قد عرض له التصحيف على السنة العبريين والغرباء على طول الزمن ، فنطقوه تارة بالصاد وتارة بالسين .

وليس النذيرون طائفة موحدة كما أسلفنا ، ولكنهم ينتمون الى كل مذهب يوافق حمية الشباب ، وهذا الذى جعلهم قوة ذات بال فى عصر الميلاد خاصة ، لأنهم جميعا فتيان معمورة قلوبهم بالأمل معقودة نياتهم على الاصلاح ، يؤمنون بأنهم رواد الدعوة الى المسيح الموعود ويترقبون ظهوره للترحيب به والاصغاء اليه ولا تحيط بهم طائفة معينة أو مذهب محدود .

■ ■ ■



الحالة السياسية والاجتماعية في عصر الميلاد

فتحت سورية وفلسطين للدولة الرومانية على يد القائد الكبير « بومباى » الذى قضى على ثورة العبيد الثالثة بقيادة « سبارتاكوس » المشهور .

وقد حسبت هزيمة « سبارتاكوس » من العظائم التي أضافت الى مجد بومباى وخلدت ذكراه بين أبطال الرومان ، ولكن هذه العظائم تضفى على الأبطال والدول مجدا لا ينطوى على خير كبير ، فمن دلائل القوة ان تستطيع الدولة قمع فتنة كتلك الفتنة الجبارة التى لم يعرف لها مثيل فى ثورات العبيد الأقدمين ، ولكنها ولا ريب دلائل القوة التى تقابلها دلائل الضعف من جانب آخر ، فلو لم يكن فى بنية الدولة صدع مخيف لما استطاع عبد ان يجمع سبعين الف عبد ويقهر بهم جيوش رومه زهاء ثلاث سنوات ، ولولا خلل فى كيان المجتمع لما اشتمل على اضعاف هذا العدد من الارقاء المسخرين الذين ينظرون الى مجد رومه نظرة الحقد ، ويجازفون بالحياة ليهبطوا به الى الحضيض .

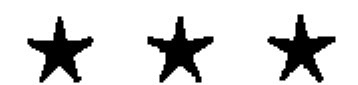
وقد كان سبارتاكوس من اهل تراقية ولم يكن اول « عبد » شرقى ثائر على الدولة الرومانية ، بل سبقه رفيق آخر من البلاد الشرقية الى الثورة فى صقلية سنة (١٤٣ قبل الميلاد) واستطاع ان يقيم له عرشا استقر فى الجزيرة عشر سنين ، وهذه هى الثورة التى تجلى قائدها « اونس »

لاتباعه فى صورة النبى المرسل وفى شارة الملك المتوج بيد الله ، وكان اصله فى سورية وكثير من اتباعه شرقيون .

وقد سبقت ثورة أونس السورى ولحقت بها ثورات من قبيلها لم تبلغ مبلغها من العنف . ولم تخل احداها من صبغة دينية فيما تدعيه لقادتها ، وكانت واحدة منها فى آسيا الصغرى تنشىء لها حكومة تسميها حكومة « الشمس » رمزا الى عبادة النور والحرية ، وتقيم هذه الحكومة والثوار المنهزمون فى صقلية يعلقون بالالوف على اخشاب الصلبان .

ولم يكن هذا الخطر الكمين خافيا على المصلحين من ساسة الرومان فى الاجيال القريبة التى سبقت ميلاد السيد المسيح ، فارادوا اصلاح العيوب الاجتماعية بالرجعة الى الشريعة التى تقيد المواريث وتحرم زيادة الميراث على خمسمائة فدان ، وظن كايوس جراشس Gracchus انه يعالج الآفة بانشاء طبقة جديدة من الصيارفة والتجار يحد بها من نفوذ النبلاء واصحاب الضياع المتبطلين ، واضطر هو واخوه الى تموين المعوزين باغذية تبيعها الدولة باقل من تكاليفها ، ولكن عوامل الخراب كانت فى تلك الاجيال اعمق وافعل من عوامل العمار والصلاح ، فلما حاول يوليوس فيلبس فى سنة (١٠٤ قبل الميلاد) أن ينظم الاقطاعات بتشريعاته الزراعية قال فى خطابه « التفسيرى » كما روى شيشرون « ان ملاك الارض فى مدينة رومة لا يزيدون على الفين » . . وازدادت هذه الحالة سوءا فى عصر أوغسطس المجيد كما يوصف فى التواريخ ، فالت المستعمرة الافريقية الى قبضة ستة من المتبطلين ، وفيها الوف من الارقاء المسخرين .

وعصر اوغسطس المجيد هذا هو عصر الميلاد الذى قال فيه السيد المسيح فى رواية الحوارى متى « ان للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكارا ، واما ابن الانسان فليس له اين يسند راسه »



والواقع انه كان عصرا مجيدا بقوة السيف دون كل قوة أخرى من القوى الانسانية ، وقد أخذت رومة من قوة السيف كل ما تعطيه : فتوح واسعة وسطوة تصد الأعداء وتقمع الثائرين ، والقت رومة بكل اعتمادها على هذه القوة فاصبحت لها سندا لا غنى عنه ، وانتهت بها الحاجة إلى تلك القوة أنها القت بنفسها على مذبحها ، فباعتها حريتها وكرامتها ، وضيعت الجمهورية فى سبيل القيصرية المطلقة ، بل رفعت القيصر إلى مقام الربوبية المعبودة ، فخلعت على القيصر اوغسطس لقب إله وقررت عبادته مع الالهة ورصدت له شهرا فى السنة لا يزال معروفا باسمه إلى اليوم ، وتتابعت بعده عهود القياصرة العسكريين من امثال طراجان وهادريان وغيرهم من المتشبهين بهم ، حتى عز عليها آخر الأمر ان تجد القياصرة العسكريين .

وكان القانون والنظام فخر رومة ، الأول ، فضاع القانون مع السلطان المطلق ، وضاع النظام مع التفاوت البعيد بين الحاكمين والمحكومين : ثروة وترف وطغيان من ناحية ، وفقر وضنك وهوان من ناحية ، ولا نظام للدول مع اختلال التوازن فى المجتمع ، بل لا نظام للحياة نفسها ولا قيمة لها مع إفراط النعيم حتى السام من الحياة ، وإفراط الشقاء حتى النقمة على الحياة ، فصدق فى رومة كلها وصف السيد المسيح لذلك الرجل الخاسر الذى كسب العالم وضيع نفسه ، فضاع واضاع .

ولم يستقر الأمر للدولة الرومانية فى فلسطين دفعة واحدة على أثر افتتاحها ، لأن التنازع بين الرومان والفرس لم يترك للبلاد قرارا فى مدى عشرين سنة ، وانقسم الرأى بين الدولتين : منهم من يشايع الفرس ومنهم من يشايع الرومان ، واشتد التناحر بين الفريقين اشتدادا خراج بهم إلى ضراوة الوحشية فى مناصب الدين فضلا عن مناصب الدنيا ، ومن امثلته أن أنصار الفرس تغلبوا على أنصار الرومان فى بيت المقدس ، وكان أنصار الفرس يرشحون لرئاسة الكهنة انتيجونس بن

اورسطبولس ، فقبض هذا بيديه على مزاحمة هيركانوس وقضم أذنه بأسنانه ، ليحول بينه وبين وظيفة الكهانة طول حياته ، اذ كانت هذه الوظيفة محرمة على المشوهين وذوى العاهات .

وكان فى البادية الجنوبية من فلسطين زعيم مشهور بالحصافة والحزم على رأس قبائل الادوميين ، عرف بفراسته وبعد نظره ان الكفة الراجحة فى النزاع على فلسطين لدولة الرومان ، فانضوى اليها واستبسل فى معونتها ، فكافاته على خدمته بتنصيبه ملكا على اليهودية والسامرة والجليل حيث ولد السيد المسيح ، وكافأهم هو بالتمادى فى محاكاة المدنية الرومانية ، وأوحت اليه حصافته ان يداهن السلطة الدينية ويداهن السلطة الدنيوية فى وقت واحد ، فتغالى فى الغيرة اليهودية التى كانت قبيلته تدين بها على سبيل المداراة والمجاراة ، وتغالى فى محاكاة الرومان والاغريق بالازياء والمساكن والشارات والاسماء ، وتكفل باتمام بناء الهيكل على نفقته ، ثم تكفل بترشيح رؤساء الهيكل من بين اعوانه « المترومنين » ان صح هذا التعبير، لعلهم يدارون شططه فى محاكاة الرومان ومجافاة التقاليد العبرانية ، كلما احتاج الى توفيق بين النقيضين .

ومع هذا الجهد المضنى فى التقريب بين الطرفين مات هيرود وهو مغضوب عليه اشد الغضب من ابناء دينه ، وحدث قبيل وفاته ان طائفة من الغلاة ثارت على مبانيه وانصابه لتمسح منها معالم الوثنية ، فعقد لهم محكمة علنية وأمر باجناده فحملوه الى المحكمة ، حيث قضى عليهم بالحرق وهم احياء ! وقبض على الزعماء المحبوبين فحبسهم وأوصى اخته ان تقتلهم اذا مات قبل اعلان وفاته ، لتذهب حسرة الشعب عليهم بفرح الشماتة فيه ، فلا يمتعهم فى ذلك اليوم بالفرح الذى ترقبوه .

وتمت البلية بتقسيم البلاد بين أبناء هيرود الثلاثة ، فوقعت الجليل ـ حيث ولد السيد المسيح ـ هى حصة هيرود الثانى انتيباس .

ووقعت اليهودية فى حصة ارخلاوس ، ووقعت مشارف الشام فى حصة فيليب ، وكان من مراسم الولاية ان يذهب الملك الى رومة ليتلقى عهد الامارة فى يد القيصر ، فهذا الذى يشير اليه السيد المسيح فى مثله المشهور كما رواه الحوارى لوقا حيث يقول ما فحواه : « كان انسان شريف النسب ذهب الى كورة بعيدة لياخذ لنفسه ملكا ويرجع . . وأما أهل مدينته فكانوا يبغضونه فارسلوا وراءه سفارة يقولون : لا نريده ملكا علينا . . . »

ولكن القيصر أقر الابناء الثلاثة فى ولاياتهم ، وخرجت البلاد ممزقة بين أبناء هيرود وحكومات النبطيين والمدن العشر ، وقصدت رومة بهذا التمزيق ان تخيف ولاية بولاية وتلجئهم الى التنافس بينهم فى مرضاتها ، وتتخذهم جميعا درعا تدفع به غارات الصحراء وهياج المتعصبين .

ومن المتواتر ـ مع تصحيح تاريخ السنة كما سيأتى بعد ـ أن السيد المسيح ولد فى أعقاب ثورة جائحة اشتعلت فى أقاليم فلسطين اليهودية على الخصوص ، وأهدرت فيها دماء الألوف من الغلاة وأتباعهم لأنهم هبوا فى وجه الدولة الرومانية محتجين على صدور الامر بالاحصاء العام ، وليس الاحصاء بطبيعة الحال سببا كافيا لاشعال نار الثورة بين أبناء أمة مطمئنة ولكنه اشعل نار الثورة فعلا لأنه أثار بين الاسرائيليين خاصة مشكلتين قديمتين من مشاكل فلسطين : احداهما مشكلة الاعتراف بملك غير « يهوا » الذى يؤمن الشعب اليهودى انه هو الأله وهو الملك ، وان مبايعة الشعب لغيره كفر وخيانة يعاقبه عليهما بالضربات والمحن ولا يغفرهما إلا بعد كفارة تضيع فيها الأرواح والأموال ، فإذا دان اليهودى لملك غير « يهوا » أو غير مسحائه المختارين فهو مطرود من رحمة الله مستحق للعذاب والحرمان وقد حسب الشعب الاسرائيلى ان الاحصاء مقدمة لفرض السيادة القيصرية عليهم فردا فردا وتقييدهم عبيدا للقيصر مطالبين بعبادته وافتتاح الصلوات باسمه ، وكان فقهاء

اليهود يذعنون للجزية وهى تؤخذ منهم عنوة عن طريق الالتزام الذى لا يخص الافراد بالاسماء بل يؤخذ جملة على الأكوار والاقاليم ، ولكنهم كانوا ينكرون اداء الجزية من ناحية المبدأ أشد الانكار ، ويحكمون بكفر من يجيزها ويشترك فى تحصيلها وينبذونه من الجماعة وينبذون معه من يعاشره ويتحدث اليه ، ولهذا دبروا مكيدتهم للسيد المسيح ليسألوه أمام جمهرة الشعب عن اداء الجزية هل يجوز أو لايجوز « فارسلوا اليه تلاميذهم من الهيروديين قائلين : « يا معلم ! انك صادق تعلم بالحق ولا تبالى أحدا لأنك لا تنظر الى وجوه الناس . فقل لنا ماذا تظن ؟ ايجوز أن نعطى جزية لقيصر أم لا يجوز ؟ ، فكان جوابه المشهور أرونى معاملة الجزية ! ونظر الى الدينار الرومانى فسألهم : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ فلما اجابوه انها لقيصر قال لهم : اعطوا اذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله . واسكتهن جوابه لانهم لا يرفضون العملة القيصرية مع وجود العملة اليهودية ، ولو كانوا يستنكرون اداءها حقا لأنكروا كسبها وادخارها ، وقد كانوا يكسبونها ويدخرونها ما عدا طائفة الغلاة منهم ، وهى التى ثارت عند تقرير الاحصاء العام .

أما المشكلة الأخرى التى أثارها تقرير الاحصاء فهى مشكلة الضريبة وعسف الجباة فى تحصيلها ، فقد كان اليهودى يؤدى ضريبتين أحداهما للهيكل والاخرى للدولة ، وقد جاء فى الاناجيل ان رسل الهيكل كانوا يطلبون ضريبة من السيد المسيح وتلاميذه ، وانه عليه السلام سئل مرة ان يؤديها فقال لتلميذه سمعان : ما تظن يا سمعان ؟ ممن يأخذ ملوك الأرض الجباية او الجزية ؟ أمن بنيهم أم من الاجانب ؟ قال له التلميذ : بل من الأجانب فقال السيد المسيح : إذن ان البنين أحرار . . ولكنه عاد فأمر تلميذه بأداء الضريبة عنه وعمن معه من التلاميذ .

وقد كان أداء ضريبتين عبئا فوق طاقة الفقراء ، ولكنه ـ مع العسف فى تحصيل ضريبة الدولة ـ كان عبئا لا يطيقه الموسرون فضلا عن الفقراء . . لأن الدولة كانت تحصل الضريبة بطريق الالتزام والمزايدة ،

فإذا حان الموعد السنوى فتح باب المزايدة ومنح صاحب المزاد الراجح حق التحصيل طوال العام ، وكان الجباة أو العشارون يأخذون لأنفسهم شيئا غير الذى يسلمونه للملتزم ، وكان الملتزم يأخذ لنفسه شيئا غير الذى يسلمه لخزانة الدولة ، فكان المال المحصل يربو على ضعفى المال المطلوب .

ولهذا كانت طائفة العشارين بغيضة إلى الشعب وكان الشعب الاسرائيلى لا يغتفر لأناس من أن يتجردوا لخدمة الملتزمين الأجانب ويبتزوا المال حراما من أرزاق المعوزين ، ومن ثم كان انكارهم على السيد المسيح انه كان يخاطب العشارين ويدخل بيوتهم ويستمع إلى مناجاتهم ، ولكنه كان يستمع لهم ويوصيهم بالامانة فى الجباية . . يسألونه : يا معلم ! ماذا نفعل ؟ فيقول لهم : لا تستوفوا أكثر مما فرض لهم ، ويقول للجند الذين يصاحبونهم : لا تظلموا أحدا ولا تشوا بأحد . واكتفوا بعلائفكم . . لأن الدولة كانت ترسل الجنود يجمعون طعامهم وعلائف مطاياهم من الناس !

فلما صدر الأمر بالاحصاء العام توهم الدهماء ان الدولة لا تكتفى بما تحصله جملة وتنوى أن تزيد عليه ضرائب تستوفيها من الآحاد فردا فردا مع الشطط فى تحصيل ضرائب الالتزام ، فاستجابوا داعى الثورة من الغلاة ، وغضبوا لعقائدهم كما غضبوا لأرزاقهم ، حين أمروا بالعودة الى بلادهم ليسجلوا أسماءهم حيث ولدوا لا حيث يقيمون .

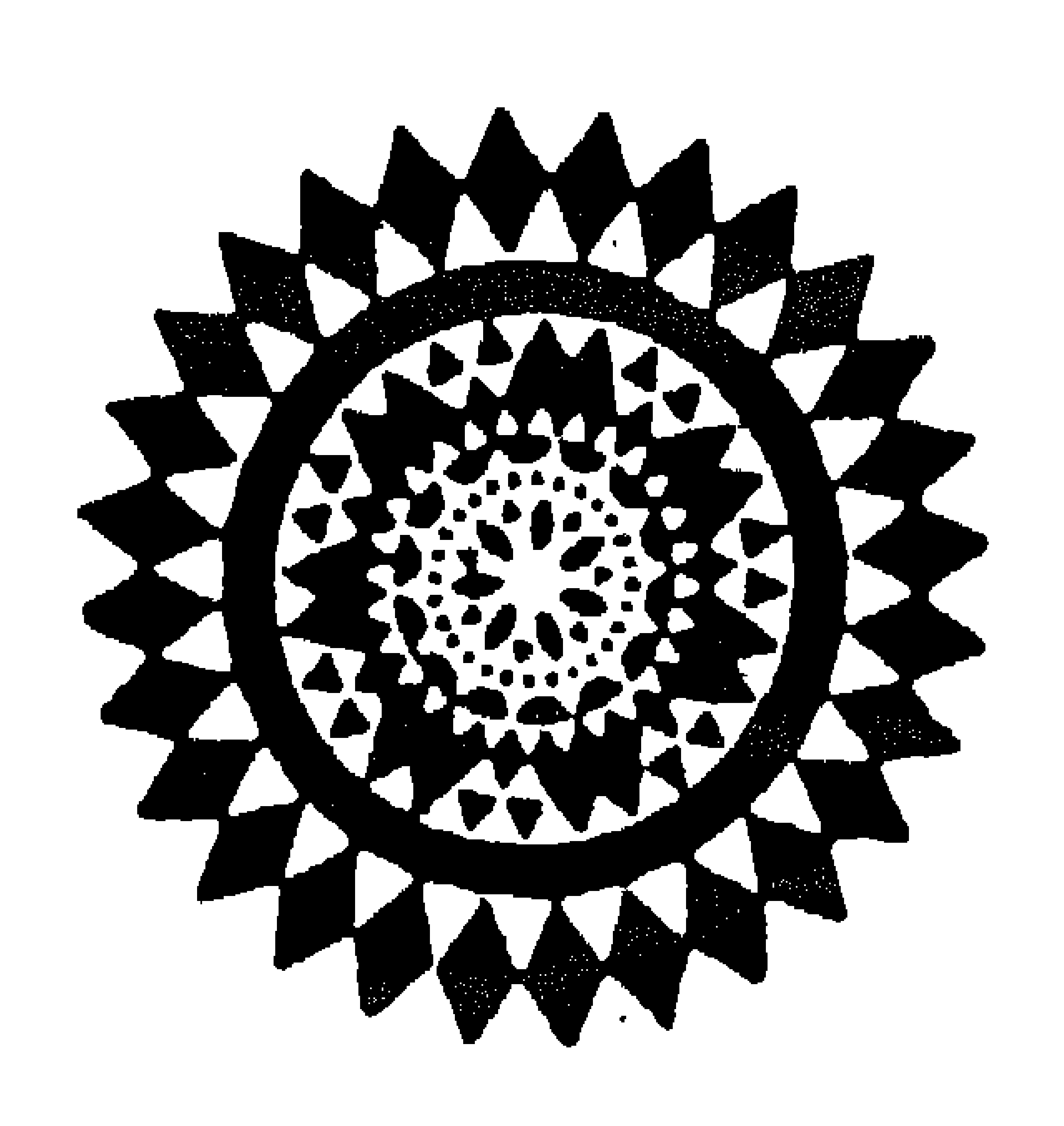
ومما لا خلاف عليه بين المؤرخين الشرقيين والاوربيين أن الحالة السياسية فى فلسطين خاصة كانت على أسوأ ما تكون ، ولكنها على افراطها فى السوء لم تبلغ مبلغ الحالة الاجتماعية فى الدلالة على القنوط وعموم البلاء . . وحسب القارىء ان يتصفح الأناجيل كائنا ما كان اعتقاده فيها من الوجهة الدينية لكى تتمثل له حالة البؤس واليأس التى كانت ترين على القرى والمدن فى أقاليم فلسطين ، ولا سيما أقليم الجليل الذى تواترت الروايات عنه ، فحيثما رحل الانجيليون رحلة من

رحلات السيد المسيح بين القرى فهناك اخبار عن العجزة والمرضى الذين يتعرضون لطلب الشفاء بعد اليأس من كل علاج ، وبين هؤلاء مشلولون ومفلوجون ومجانين ومصابون بالخرس والصمم والعمى ويبس المفاصل والاطراف ، وبينهم من يقال عنه ان جسده تسكنه الشياطين او يتناوب سكناه جملة من الشياطين بالليل والنهار ، وكان بعض هؤلاء المرضى أطفالا وبعضهم من الشبان والكهول في مختلف الأعمار ، وهذا الى أمراض البرص والنزيف والصرع الذى الذى لا يقترن بالجنون .

وإذا كانت هذه هي الحالات البارزة فإلى جانبها ولا شك حالات اخرى دونها في الشدة تنم عن الآفات الجسدية والنفسية التى فشت في ذلك المجتمع تركته مهيض الاعصاب عرضه للسخط والهياج ، ويضاف الى هذا ان عصر الميلاد قد شهد في فلسطين طوائف شتى من الاساة الذين يطببون المرضى بالعلاج الروحاني ويعتمدون على قوة الايمان وطهارة المعيشة في التطبيب والعلاج ، وإذا قلنا ان عصر الميلاد قد شهد عصرا مهيض الاعصاب فنحن نلتفت التفاتا خاصا الى هذه الظاهرة التى تشير الى الحالة النفسية في جملتها فيلس احوج من عصر كذلك العصر الى السكينة وثقة الايمان وليس اشد منه تعطشا الى التسليم والتطهير متى استراحت النفوس فيه الى الهادى الذى يرجى على يديه التسليم والتطهير ، فلم يات أوان الرسالة المسيحية حتى كانت قد سبقتها رسالات تمهد لها وتعمل في وجهتها عمل الرواد السابقين ، وقد كان اقوى هؤلاء الرواد يحيى المغتسل او يوحنا المعمدان وان لم يكن هو الرائد الوحيد في طريق الرسالة والنبوة ، فجعل للتطهير رمزا من الاغتسال بالماء . واثارها حملة شعواء على بؤرة الفساد في زمنه وهو بلاط الملك هيرود ، فانها البؤرة التى استبيح فيها الفجور بالمحارم والبناء بهن على غير شريعة وقتل الاخوة والابناء وتدنيس العبادة والقداسة بالبذخ والجسارة على المنكرات ، فكانت جسارة النبى على

التطهير كفئا لجسارة الطاغية الاثيم على الدنس والخباثة ، وقضى على الرسول أن يكون عاجل الرسالة فى حملته الصراح وخرج من الميدان شهيدا يجر وراءه جثة ميت بقيد الحياة ، فان جسد هيرود قد أكله الدود قبل دفنه ، وان عهده قد وصف نفسه أصدق صفاته حين بذل راس النبى هدية لراقصة مبذولة الجسد ، ولا جرم يكون عصر يحيى المغتسل « عصر رسالة عاجلة أو عصر ارتياد وتمهيد : هجمة من هنا وهجمة من هناك ، ثم تبدأ المعركة التى تستوفى الميدان كله ، ولا تنحسم ما بين صباح ومساء .

■ ■ ■



الحياة الدينية فى العالم
فى عصر الميلاد

بلغت الدولة الرومانية على عهد الميلاد غاية مداها ، ودخلت فى حوزتها أمم العالم المعمور كله ، ماعدا الشرق الأقصى ، واصبح من رعاياها اناس مختلفون فى الجنس واللغة والعقيدة ، فشوهدت فى رومة والاسكندرية ونابلس وبيت المقدس كل عبادة يدين بها البشر من تخوم الهند إلى الشواطىء الأطلسية ، وكثر الحديث بين الناس عن الأرباب والأديان والمذاهب والعقائد ، وتبادل المفكرون والفلاسفة البحث فيها بعد انتقال مدارس الحكمة والعلم الى الاسكندرية ، وتلاقى الحكماء والعلماء فيها من كل مذهب وكل عقيدة ، وتعود الناس ان ينظروا الى الأمور نظرة عالمية وبخاصة بين اهل الدرس والتأمل والمطالب الروحية .

وأعظم من هذه النظرة العالمية أثرا فى موضوعنا ـ عبقرية المسيح ـ ان عصرالميلاد قد شهد عدة موجات دينية تجرى من الشرق وتغمر بلاد الدولة الرومانية نفسها ومنها العاصمة الكبرى ، خلافا لما يسبق الى الظن من غلبة العقائد تبعا لغلبة القوة السياسية .

فلم تكن سيادة الدولة الرومانية على الشرق مقدمة لسيادة الديانة الرومانية كما جرت العادة فى كثير من أطوار التاريخ بل حدث على نقيض ذلك ان عقائد الشرق هى التى غلبت على رومة واتباعها ، وهى التى

انتقلت من الأمم المحكومة الى الأمة الحاكمة وجاءت المسيحية بعد ذلك فلم تكن استثناء من هذه القاعدة ، بل كانت تطبيقا جديدا لها أعم وأوسع من كل تطبيق متقدم عليها .

وليس فى الأمر مخالفة للسنن الطبيعية كما يبدر الى الذهن لأول وهلة ، فان سريان العقائد من الشرق الى الغرب فى تلك المرحلة كان هو السنة الطبيعية التى تؤيدها جميع الاسباب ولا ينقضها سبب واحد صالح للتعليل .

كان اتخاذ النحل الشرقية موافقا للقياصرة وموافقا للرعايا فى وقت واحد ، فقد كان القياصرة يطمعون فى الربوبية وكانوا يسمعون ان كهان المعابد فى الشرق يعلنون حلول الآلهة فى أجسام الملوك ، ويرشحونهم للعبادة ولم تزل المنادة بالاسكندر ابنا للاله « آمون » خبرا يتنافله المطلعون على سيرة ذلك الفاتح ويتشبه به منهم من يطمح مثل طموحه ويفتح مثل فتوحه ، وجر هذا المطمع الغريب الى فتنة عنيفة فى وطن السيد المسيح حين تصدى الملك انطيوخس ـ خليفة الاسكندر ـ بطلب الربوبية وسمى نفسه بالالهى أو صاحب الشارة الالهية .

وقد كان رعايا الدولة الرومانية خليطا من الشعوب المختلفة ، وسرى هذا الاختلاط الى الجيوش التى كانوا يسوقونها الى المشرق ويتركونها فيه زمنا ثم يتعمدون ابقاءها ثمة بعض الاحيان اتقاء لمنازعاتها كلما أطالت البقاء فى العاصمة ، ولم يكن من شأن هذا الخليط ان يتعصب لعبادات رومة أو يعرض عن عبادات غيرها فوافقه ان يتشبه بالمشارقة ـ كما الاسكندر ـ لطلب الربوبية من القياصرة !

ولم تزل سمعة الشرق عند الغربيين منذ القدم انه هو مهبط الاسرار العلوية وانه تعلم من خبر السماء مالا تعلمه الأمم الغربية ، وان كهان الشرق سحرة يطلعون على الغيب وينفذون الى بواطن الديانات ، وكلمة السحر عندهم Magic منسوبة الى المجوس ، والسحر البابلى فى كل لغة مضرب المثل من الزمن القديم الى الزمن الحديث ، وتوقيت الزمن

بالاسابيع التى يسيطر كوكب من الكواكب على كل يوم منها تراث شرقى موغل فى القدم ، لا تزال بقاياه فى التقويم الاوروبى من أقصى الشمال الى اقصى الجنوب .

فلا عجب ان يؤخذ القوم بهذا السحر ويسلموا لابناء الشرق بأخبار السماء وأسرارها ، مادامت الأرض فى ايديهم يحكمونها كما يشاءون ، ويجدون من الكهان والسحرة من يبايعهم عليها باسم السماء !

لهذا زحفت على العالم الرومانى نحلة « مثرا » ونحلة « ايزيس » ونحلة المتنطسين كما زحفت عليه نحلة اورفيوس اليونانية من آسيا الصغرى ، ومرجعها هى أيضا الى الشرق القديم .

وقد شوهدت آثار العبادة المثرية فى أقصى أقطار الدولة الرومانية من المغرب : شوهدت فى آثار السور الرومانى بالبلاد الانجليزية كما شوهدت فى غيرها ، وشاعت العبادة بين شبان الجيش لأن « مثرا » كان شخصية مزدوجة تجمع بين صفتين محبوبتين : احداهما صفة النور الذى يبدد الظلام والحق الذى يمحق الباطل ، والأخرى صفة المناضل رب الجنود الذى قيل فى كتاب المجوس المعروف بكتاب « الافستا » انه يسوق جحافله منتصرا لتغليب اله الخير أورمزد على إله الشر أهريمان ، وهو كذلك اله محبوب عند غير الجنود كالرعاة والعاملين بالليل ، يعبده الرعاة والملاحون ويهتدون بنوره فى أعمالهم الليلة ، ويعتقدون انه يولد فى الجسد الآدمى كما يولد الفقراء فى كهف مهجور ، ولهذا يتخذون له المعابد من الكهوف ، وربما حببه الى العباد ذلك الحنين المعهود فى الناس الى استطلاع الاسرار والطموح الى الترقى فى درجات العلم بالمجهول ، فقد كانت للعبادة درجات سبع ينتقلون فيها من درجة الى درجة على أيدى الائمة المختارين ، ويتعاطون الشعائر فى كل احتفال سرا او جهرا على ملأ من الصفوة المقربين ، ومنها تناول الخبز والخمر واعتبار الشهد المقدس الذى يوضع على اللسان رمزا الى حلاوة الايمان .

واقترنت نحلة « ايزيس » المصرية بنحلة « مثرا » الفارسية في غزو بلاد الرومان واليونان ، فسماها اليونان « ديمتر » ونحلوها صفتها المصرية وهي صفة الأمومة الكبرى او صفة الطبيعة الأم ، وكان عبادها يوحدون بينها وبين القمر ويعتبرونها من ثم ربة البحر والملاحة ، ويرسمون لها صورا جميلة تنم على الطهارة والحنان وفي حضنها طفل رضيع يشع النور من وجهه رمزا للامومة والبر والبراءة ، وكان كهانها يحلقون رؤوسهم في الغرب محاكاة للكهنة المصريين ، وكان لها بينهم عابدون وعابدات يسمونها حامية البيت والاسرة ، ومن ثم شيوع عبادتها بين الرومان الذين اشتهروا بتقاليد الأسرة وتقديس حقوق الآباء ، ولاشك ان المراسم السرية التي تلازم نحلة ايزيس كان لها اثرها في تشويق الناس الى انتحالها كما كان لها مثل هذا الأثر في عبادة مثرا وما شابهها من العبادات :

وخرجت من مصر ايضا نحلة قوية على قلة عدد المنتمين إليها ، وهي نحلة المتنطسين Therapeuts التي ذكرها الحكيم الاسكندري اليهودي فيلون ، وقال ان اتباعها كانوا يجتمعون يوم السبت ويتفرقون بعد ذلك في الصوامع للتامل والدراسة الفلسفية ورياضية الروح والجسد واسمهم اليوناني معناه الاساة او المتنطسون ، واكثر صوامعهم كانت على مقربة من الاسكندرية حول بحيرة مريوط القديمة ويظن بعض المؤرخين ان هؤلاء المتطسين هم اساتذة النساك اليهود الذين يسمون الآسين أو الاسينيين ، واشرنا إليهم في الكلام على فرق اليهود .

ومما يلاحظ ان نحلة « اورفيوس » اليونانية لم يكن لها من الاشياع بين الرومان ما كان للنحل الشرقية الخالصة ، ولعلهم كانوا يحسبون « الاسرار الدينية اختصاصا للشرق القديم ويرجعون الى اليونان في مسائل الفلسفة والفن والخطابة ، وبخاصة بعد ان تحولت الديانة « اورفية » الى ديانة شرقية تجرى على سنة الشرق في التقشف والاخوة الروحية ، وقد نشات الأورفية اليونانية نشأة فنية وقيل في وصف

اورفيوس انه كان يعزف على أوتاره فيقبل عليه الوحش والنعم والطير وتنسى ضراوتها وهى تصغى اليه ثم أصبح التاليف بين الضوارى والنعم رمزا الى التاليف بين القلوب وانتزاع الشر من نفوس الاقوياء ، وجاء عصر الميلاد والاورفيون يدينون بالزهد والتقشف ويحرمون اللحوم ويلبسون الثياب البيض ولا يذوقون الخمر الا فى مراسم القربان ، واحتفظوا بعقيدة اليونان الاقدمين فى اساطيرهم عن اورفيوس الفنان فزعموا انه يزور عالم الموتى ويعودمنه وجعلوا لهم موعدا يحزنون فيه على موته وموعدا يحتفلون فيه ببعثه ، وتشابه الاحتفال ببعثه والاحتفال ببعث أدونيس اله الربيع ، وكثيرا ما قيل فى كتب المقابلة بين الاديان ان اتون الاله المصرى وادونيس الاله اليونانى وادوناى بمعنى السيد أو الرب باللغة العبرية اسماء عدة ترجع الى مصدرها المصرى القديم .

★ ★ ★

ومن الواضح ان هذه النحل التى كانت تصطفى الاعضاء والمريدين وتحتفظ بالعبادات والرموز للصلوات السرية لم تكن ديانات عامة تبشر الأمم كافة بظواهرها وخوافيها ، وانما كانت فى جوهرها اشبه بالروابط والجماعات التى تضم اليها المشتغلين بغرض واحد أو المثقفين فى المزاج والعاطفة ، وكانت اقرب إلى الجماعات الفنية الرياضية التى تقوم على تخير الأذواق وتوحيد العلاقات بين الاشباه والنظراء ، فكان طلابها جميعا من الشبان الذين يستطلعون حقائق حياتهم المجهولة ويعتقدون أو يرجحون ان هذه الحقائق سر من اسرار العلم والدراية يهديهم إليه الحكماء المجربون المدربون ، وكان لها طلاب من الكهول والشيوخ بطلت عقيدتهم فى الشعائر العامة فانصرفوا عنها الى حيث يلتمسون الحقيقة ويشعرون براحة الضمير فى جو من الألفة واتفاق المطالب النفسية والفكرية ، فمن لم تكن هذه النحل عنده حلقات رياضية او فنية فهى عنده بمثابة الاندية التى تصون روادها من

الاخلاط و« الاغيار » ولا سيما الاغيار من ذوى الجهالة والاسفاف .

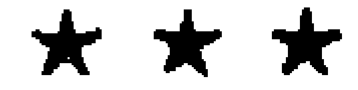
ولكن الدلالة الكبرى التى تتجمع من شيوع هذه النحل فى عصر الميلاد انها « اولا » علامة على طلب الاعتقاد واحساس المخلصين المستعدين للايمان بما يحيط بهم من الخواء فى جو التقاليد والمعتقدات .

وانها « ثانيا » علامة على الوجهة العالمية التى اخذت تسرى فى انحاء العالم المعمور وتؤلف بين ابناء الأمم المختلفة فى طلب العقائد الروحية ، لأن هذه النحل السرية لم تكن مقصورة على أمة دون أمة ولم تكن محرمة على احد من أجل جنسه واصله ، فكل من يفتح وجدانه لعقائدها و آدابها فهو مقبول فيها مرشح لدرجاتها من ادناها إلى اعلاها .

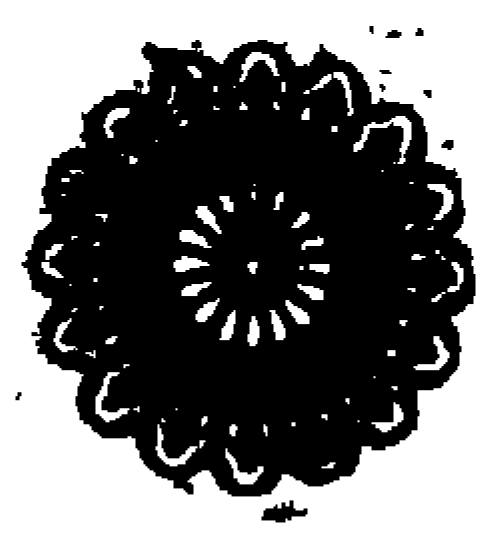
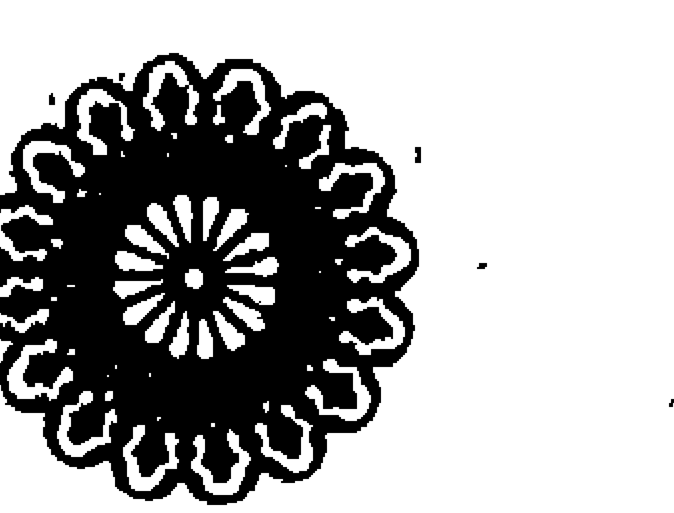
اما جماهير الشعوب فلم تكن تحفل كثيرا بهذه النحل الخاصة المقصورة على طلابها ومريديها ، وكانت على دابها سادرة فى عادتها ومالوفاتها ، ولكنها لم تحل فى هذه العادات والمالوفات من وجهة عالمية تنزع الفوارق بين اتباع الديانات المختلفة وتضمهم جميعا بين حين وآخر الى محافل الاعياد العامة التى تقام لهذا « الرب » او لتلك « الربة » او تتردد فى مواسم الطبيعة بصبغتها التى كانت تمتزج بالدين على عادة الاقدمين ، وكانت سياسة الدولة الرومانية تساير هذا الشعور بل تشجعه وتحض عليه ، إذ كانت القاعدة الذهبية عند دهاقين السياسة من الرومان ان الشعوب لا تهتم بمن يسوسها متى وجدت الخبز واللعب بين يديها ، ومن اللعب الذى لا يكلف الدولة شيئا ان تفرح جماهير العامة بالاعياد وتتسابق فى المواسم والموالد وتصبغها كما تشاء بصبغة القداسة ، فذلك اسلم من التنازع والفتنة والصدام .

وجملة ما يقال عن الحياة الدينية يومئذ فى العالم المعمور انها كانت حياةً تقليد او حياة تطلع ورغبة فى الاعتقاد عن بحث وبينة من عقائد التقليد ، وانها كانت تجرى فى مجراها الى « العالمية » التى تعم الناس

ولا تخص كل امة بعقيدتها على حسب جنسها واصلها ، واهم من هذه العالمية في النحل والمحافل « عالمية » في اللغة والثقافة حطمت اقوى الحواجز التى كانت قائمة قبل ذلك زهاء عشرة قرون . فقد كان العبرانيون يؤمنون ان العبرية هي لسان « يهوا » الذى يخاطب به الانبياء ويناجى به الكهان في المحارب ، فلم يلبثون ان قبلوا الدعاء واستمعوا الى كتب الوحى باللغة الآرانية ، وما يشابهها من اللهجات السريانية ثم سمحت طائفة كبيرة منهم بترجمة التوراة الى اللغة اليونانية في القرن الثاني قبل الميلاد ، ثم استرسلت هذه الحركة الى مداها في عصر الميلاد وما بعده ، فكانت الآرامية هي اللغة التى بشر بها المسيح والتلاميذ ، وكانت اليونانية هي لغة الإناجيل ، وكانت السريانية لغة التوراة والانجيل معا ولما ينقض اكثر من قرن واحد على مولد السيد المسيح .



واهم الظواهر التى تسجل في سياق الكلام على الشئون الدينية العامة قبيل الميلاد ان العقائد الوثنية كانت في حالة اشبه ما تكون بحالة التصفية قبل شهر الافلاس ، فقد روى المؤرخ سويتنوس ان القيصر اغسطس جمع في سنة (١٢ قبل الميلاد) قرابة الفى قرطاس من النبوءات والصلوات المكتوبة باللاتينية والاغريقية وامر بها فاحرقت علانية ، واحتفظ بقليل من المخلفات المأثورة فوضعها في صندوقين مذهبين ونقلها الى معبد الاله ابولون ، وفي هذا الخبر خلاصة اخبار العقائد الوثنية في ذلك الجيل .

الحياة الفكرية
في عصر الميلاد

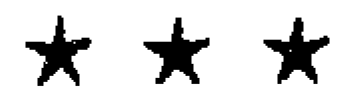
كانت المذاهب الفكرية التى يتحدث بها المثقفون شائعة فى بلاد الجليل حيث ولد السيد المسيح وحيث اختلط الغربيون والشرقيون كثيرا قبل عصر الميلاد ببضعة قرون ، وأكثرهم الفيثاغورية والابيقورية والرواقية ، وهى التى تعنينا فضلا عن شهرتها ، لأنها هى المذاهب التى تتصل بالسلوك والاعتقاد ، ومنها مذهبان ظهرا بين اليونان فى عصر يشبه عندهم العصر الذى ولد فيه السيد المسيح ، وهما الأبيقورية والرواقية ، فإن هذين المذهبين ـ على تناقضهما ـ رد فعل لحالة واحدة غمرت البلاد اليونانية بعد انتصارها على الدولة الفارسية ، وهى حالة الترف والبذخ واللهو والطغيان من جانب السادة وحالة النقمة من جانب العبيد والمسخرين .

وهذه المذاهب الثلاثة تتلاقى فى غاية واحدة وهى طلب السكينة والراحة ، إلا أن الفيثاغورية التى ظهرت قبل عصر الترف والسلطان كانت اقرب إلى الروحانية والمزج بين عقائد الأمم المختلفة من اليونان والمصريين والفرس والهنود ، وهى جميعا أقرب إلى النشأة الشرقية ، لأنها نشأت بين قبرص وآسيا الصغرى .

■ ■ ■

وقد كان اتباع فيثاغوراس طائفة تجتمع فى « أخوة » ذات شعائر وصلوات بعضها معقول وبعضها من قبيل المحظورات والمحرمات التى تشيع بين القبائل البدائية وتستوجب عندها عادات مقدسة أو امتناعا عن بعض العادات ، وقد كانوا يعتقدون فى رئيسهم فيثاغوراس أنه ابن الإله « أبولون » وإنه لم يمت وسيبعث بعد حين ، لأنهم يؤمنون كأهل الهند بتناسخ الأرواح ، وإن الروح فى الجسد غريبة تلتمس الفكاك ولا فكاك لها بغير صالح الأعمال ، وهم يحرمون أكل الحيوان ويحرمون كذلك أكل الفول ويستحسنون اجتناب البقول على العموم ، ومن محرماتهم العجيبة ألا يأكلوا من رغيف صحيح وألا يلتقطوا شيئا وقع على الأرض ولا يقطعوا الزهر من الشجر ولا ينظروا فى المرآة إلى جانب النور ، ومنهم من كان يعظ الحيوانات لأنهم يؤمنون أنهم يخاطبون أرواحا تسكنها إلى حين ، وعندهم أن الناس درجات ، بشر وأنصاف من بشر وآلهة ، وفيثاغوراس أحد هؤلاء .

وكان فيثاغوراس يقبل الرجال والنساء فى أخوته ويوجب المشاركة فى الأقوات والمقتنيات التى تصل إلى أيدى الجماعة ، ويؤمن اتباعه بعد موته بأنه يلهمهم الكشوف العلمية ويلقنهم عظات الحكمة والخلائق الحسنة وأن الحياة كانت « فرجة » عنده وهى كذلك عند من يشبهونه . فالعالم فى رأى الفيثاغوريين كساحة الألعاب الأولمبية ، يقصدها أناس للتكسب وهم أخس الزائرين ، ويقصدها أناس للمباراة وهم فوق ذلك ، ويقصدها أناس للفرجة وهم أرقى منهم جميعا ، وكذلك الفلاسفة الذين يزورون العالم للتأمل والنظر هم أرفع من المتكسبين والمتنازعين على جوائز الميدان .



والأفكار الفلسفية نفسها هى وحى من الله ، ويردون اشتقاق اسم ثيورى Theory الى اسم الله ثيوس Theosباليونانية فكل حكمة عندهم فهى من الحكمة الالهية يتلقاها الباحث بالرياضة والمناجاة « والانسجام » بينه وبين موسيقى الكون ، إذ الكون كله عندهم نسب عددية موسيقية وصورة كماله عدد الأربعة ، لعله كذلك عندهم لانه يجمع العناصر الاربعة التى تخلق منها جميع الأشياء .

وقيل ان لهم اغراضا سياسية وانهم كانوا يتامرون على الدولة فى اجتماعاتهم السرية ، وقد عاش فيثاغوراس فى القرن السادس من الميلاد وساح فى بقاع العالم المعمور كله ، وبقيت نحلته او اخوته فى جميع الاقطار ، ولا سيما الاقطار التى اقام فيها اليونان المستشرقون .

اما الابيقورية والرواقية فقد ظهرتا فى عصر واحد ، وانتشرتا بين المثقفين فى جميع انحاء العالم المعمور ، ويبدو عليهما انهما متناقضتان ولكنهما فى الواقع متقاربتان أو يمكن ان تتقاربا عملا على حسب التفسير والسلوك فى المعيشة .

★ ★ ★

نشا ابيقور بين القرن الرابع والقرن الثالث قبل الميلاد ، وولد على القول الاشهر فى جزيرة ساموس على مقربة من شواطىء آسيا الصغرى ، ولاذ باسيا الصغرى مع اهله هربا من الاضطهاد ، وقد اقبل على دراسة الفلسفة وهو فى نحو الرابعة عشرة ، وافتتح مدرسته فى حديقته المشهورة باثينا سنة ٣١١ قبل الميلاد وهو فى نحو الثلاثين .

وإذا قيست فلسفة ابيقور على معيشته الشخصية فهى حياة نساك متقشفين ، لانه كان يقضى معظم ايامه على الخبز والماء او على الخبز والجبن ، ولكن اسمه اقترن باللذات والشهوات لانه كان يعلم تلاميذه ان السرور هو غاية الحياة وافضل السرور مالم يعقب الما ولا ندما ، ولهذا كان يجتنب الشهوات البهيمية ويجعلها من قبيل السرور

« المتحرك » وهو السرور الذى يقترن بالجهد ويعقب الندامة والعناء ، وقد كان يقسم السرور الى نوعين : سرور متحرك وسرور مستقر او ساكن ، وافضلهما كما تقدم سرور السكينة والاستقرار ويعنى به سرور التامل والراحة والقناعة .

وكان ابيقور يقبل فى مدرسته العبيد والراقصات والماجورات ولا يرى حرجا فى طلب السرور حيث يوجد بريئا من الألم والندم ، بل لا يرى كيف يتخيل الحكيم « الخير » إذا أخرج من حسابه مسرات الذوق والنظر والسماع » ومن أعرض عن سرور يستطيعه فى غير الم ولا ندم فهو أحمق وليس بحكيم .

وقد انحى ابيقور على الديانات اليونانية وغيرها من ديانات زمانه لانها محشوة بالخرافات والاكاذيب ، وعلم تلاميذه ان الآلهة موجودة ولكنها مشغولة بسعادتها عن شئون الدنيا فلا قدر لها فيها ولا قضاء ، ولا فرق عنده بين الأرباب والمخلوقات الا فى لطافة المادة ونقاوة التركيب ، فكلها من المادة وليس لغير المادة وجود . . ومن هنا كا يقبل كل تفسير لظواهر الوجود يرجع بها الى الأسباب الطبيعية . ويرفض كل ما كان مرجعه الى الأرباب والغيوب ويواجه الموت نفسه على مذهبة فى السرور والألم ، فان لم يكن فى الموت مسرة فهو خلاص من آلام الحياة ، ولهذا شاع مذهب ابيقور فى عصور الشك والسامة وفقدان اليقين والايمان بالعناية ، وفضله المكذبون بالديانات على مذهب الرواقيين لأن الابيقورية ـ خلافا للرواقية ـ لا تعفى اصحابها من التكاليف ولا تفرض على عقولهم أو ضمائرهم واجبا يثقل على كواهلهم ، ولكنها مع هذا كانت تجمع قواعدها ووصاياها فى أصول منظومة اشبه بالاوراد الدينية التى يستظهرها المريد ويترسمها ترسم الايمان والعبادة .

★ ★ ★

وإذا أردنا تلخيص المذهب الرواقى فى كلمتين اثنتين فهاتان الكلمتان هما الصبر والعفة .

الصبر على الشدائد والعفة عن الشهوات ، ولاسعادة للانسان من غير نفسه وضميره ، فمن راض نفسه على مغالبه الألم والحزن وقمع الشوة والهوى فقد بلغ غاية السعادة المقدورة لابناء الفناء ، وهم يؤمنون بالقدر ويعتقدون ان الكون كله نظام متناسق يجرى على حسب المشيئة الالهية ، والوحى والرؤيا والفال وطوالع النجوم من وسائل العلم بأسراره وخفاياه ، يلتقى الانسان بالعقل مع الالهة وبالجسد مع الحيوان الاعجم ، وفضيلته الانسانية هى ان يطيع العقل ويعصى الجسد ، وعصيانه الجسد هو مقاومة الشهوات ، وطاعته العقل هو طلب المعرفة ، وسعادة الانسان كلها هى السعادة التى تتهيأ له من الاستغناء عن الشهوة وتحصيل العلم ، فما زاد على ذلك من السعادةفهووهم لا يدرك أو هو فضول لاخير فيه .

وقد نشأ الرواقيون الأول ماديين يؤمنون بأن الوجود كله أصل واحد ، ولكنهم تدرجوا فى الروحانية وانتهى خلفاؤهم فى عصر الميلاد وما بعده الى الايمان بحرية الروح فى مواجهة المادة ، فالاله الأكبر « زيوس » لا يستطيع ان يجعل الجسد حرا من قيود المادة ولكنه يعطينا قبسا من روحه الالهية ، نصبح بنعمته اخوانا لا يفرق بينهم وطن ولا جنس ولا لغة واينما يكونوا فهم مع الله ، لا حاجة بهم الى هيكل أو معبد ، فانما القداسة فى النفس التى تعبد ليست القداسة فى مكان للعبادة يصنعه البناء والحداد ومن صلواتهم الصلاة المشهورة التى أثرت عن زعيمهم كليانتس (٣١٠ ـ ٢٣٠ قبل الميلاد) حيث يناجى زيوس قائلا :

« اهدنى يازيوس ، ايها القدر : خذ بيدى الى حيث اردت ان ترسلنى . خذ بيدى اتبعك غير ناكص ولا وجل فان خامرنى الريب فاحجمت وتريثت فمن أتباعك لا مهرب لى ولا نجاة »

ويتبع الرواقى طريق القدر لانه هو الخير وليس هو الضرورة وكفى . فان الاله الأكبر لا يريد شرا ولا يخلقه ، وما هذه الشرور التى فى الدنيا الانقائض محتومة يستلزمها وجود الخير ولا يعقل الخير بغيرها ، فلا محل للراحة بغير التعب ولا محل للشبع بغيرالجوع ولا محل للرحمة بغير القسوة ،واذا كانت القسوة رذيلة فالرحمة التى تسلم النفس للحزن والغم ليست بالفضيلة الالهية ، وانما تكون الرحمة فضيلة اذا تبصرت كما يتبصر الاله فى قضائه ، فتنكر القسوة ولا تخضع للحزن والغم بغير حيلة ، فان الحكيم يحمل فى حكمته ترياق كل سر ودواء كل سقم .

وقد أخذ الرواقيون من الهند ـ بسبيل فيثاغوراس على ما يظهر ـ ان العالم ينقضى ويعود فى دورات ابدية لا تعرف لها نهاية ، واعتقد بعضهم ان ارواح الحكماء تبقى فى كل دورة الى نهايتها ، ثم يشملها ما يشمل العالم كله من حريق النار الابدية ، وهى النار التى تطهر جميع الموجودات لتخلص من اوشابها ثم تعود دواليك فى وجود بعد وجود وعالم بعد عالم وقيامة بعد قيامة .

والمدرسة الرواقية بأسرها مدينة للأئمة الشرقيين ولا سيما القطبين الكبيرين فى هذه المدرسة زينوز (٣٤٠ ـ ٢٧٠ قبل الميلاد) وبوزيدون (١٣٥ ـ ٥١ قبل الميلاد) فهم جميعا من الفينيقيين أو من اليونان الذين استشرقوا وأقاموا منذ زمن فى البلاد الشرقية ، وخلاصة مذهب الأمام الرواقى الأكبر ـ زينون ـ كما لخصناه فى كتابنا عن الله « أن الاله جوهر ذو مادة Soma .

وان الكون كله هوقوام جوهرالاله ، وان الاله يتخلل اجزاء الكون كما يتخلل العسل قرص الخلايا ، وان الناموس Nomos وهو بعبارة اخرى مرادف للعقل الحق Orthos Logos أو الكلمة الحقة ـ هو والاله زيوس شىء واحد يقوم على تصريف مقادير الكون ، وكان زينون يرى للكواكب والأيام صفة الهية ويعتقد ـ كما اسلفنا ـ ان الفلك ينتهى

بالحريق وتستكن في نار جميع خصائص الموجودات المقبلة واسبابهاومقاديرها ، فتعود كرة بعد كرة بفعل العقل وتقديره ويشملها قضاء مبرم وقانون محكم كأنها مدينة يبهر عليها حراس الشريعة والنظام ، ويترادف عنده معنى الله والعقل والقدر وزيوس ، فكلها وما شابهها من الاسماء تدل على موجود واحد ، وقد كان هذا الموجود الواحد منفردا لاشريك له فشاء ان يخلق الدنيا فأصبح هواء وأصبح الهواء ماء ، وجرت في الماء مادة الخلق Sparmatikos logos كما تجرى مادة التوليد في الأحياء ، فبرزت منها مبادىء الاشياء وهي النار والماء والهواء والتراب ، ثم برزت الاشياء كلها من هذه المبادىء على التدريج ، وتعريف القدر عند زينون انه القوة التي تحرك الهيولى ، وهي قوة عاقلة ، لأن ما يتصف بالعقل أعظم مما يتجرد منه ، ولا شيء أعظم من الكون Cosmos فهو عاقل لانه عظيم . ويفسر زينون تعدد الآلهة في معتقدات العامة بأنهم بحثوا عن الله في مظاهر الطبيعة المتكاثرة فعددوها ونسجوا حولها الاساطير من تشبيهات الخيال ، ولكن هذه التشبيهات ان هي الا رموز مجازية تدل على حقيقة واقعية .

وآخر الاقطاب الرواقيين قبل الميلاد ـ بوزيدون الذى اشرنا اليه ـ كان يعلم تلاميذه ان الروح لا تفنى بفناء الجسد وانها ترتقي صعدا في السماء على حسب ارتقائها في المعرفة والفضيلة ، فمن الأرواح ما يرفرف على مقربة من الأرض ومنها ما يحلق بين الافلاك العلا ويسبح معها وينعم بالنظر اليها والاستماع الى الحانها في مسراها إلى يوم القيامة ، وقد كان هذا الحكيم معنيا بالهند في بحوثه الجغرافية الفلكية كما كان معنيا بها في بحوثه الفكرية الدينية ، فقرر فيما رواه عنه صاحب كتاب « رواقيون والشكوكيون Stoics and Sceptics المسافة بين قادش والهند سبعون الف ستادة ، وهي مقياس يوناني يساوى نحو مائة وخمسة وسبعين مترا ، ويقال ان هذا التقدير كان في حساب كولمبس عندما قصد إلى الهند من طريق البحار الغربية .

ويتفق مؤرخو الفلسفة على قوة الأثر الذى أعقبته المذاهب الرواقية فى العالم الرومانى الى اقصى أطرافه ، وتظهر قوة هذا الأثر وسعة مداه من اتساعه لتبشير الملوك والأرقاء بعد ظهور امامه الأول - زينون - بنحو أربعة قرون ، فكان من أئمته العبد الرقيق ابيكتيتس (٦٠ - ١٠٠ بعد الميلاد) والامبراطور الكبير ماركس اورليوس (١٢١ - ١٨٠ بعد الميلاد) وفاخر بالانتماء الى هذا المذهب قادة ورؤساء من الذين زاروا الشرق واقاموا فيه .

اما فلسطين خاصة حيث ولد السيد المسيح فقد كان هذا المذهب ومذهب الابيقوريين يتقاسمان فيها افكار المتدينين وغير المتدينين ، وتغلغل المذهبان بين الطوائف الاسرائيلية كانهما زيان من أزياء الثقافة التى يتراءى بها أدعياء العلم والمدنية ، فكان الصدوقيون يميلون الى الابيقورية وكان الفريسيون يأخذون بالحكمة الرواقية على كراهتهم للتشبه بالاجانب ، ولكن شيوع الاقطاب الشرقيين بين الرواقيين كان يصبغ نحلتهم بالصبغة الوطنية التى لا يتحرج الفريسيون من محاكاتها ، تمشيا مع نزعتهم الى التجديد .

ومن المصادفات التى تساعد على تتبع اثر المذاهب الفكرية فى العالم الاسرائيلى ان عصر الميلاد انجب أكبر فلاسفة الاسرائيليين فى العصر القديم وهو يهودا فيلون ، الذى ولد بالاسكندرية سنة (٣٠ قبل الميلاد ومات سنة (٥٠ بعده) ومزج فى فلسفته بين عقائد عصره ومذاهبه الفلسفية من كل منبت ولا سيما منبت الاغريقية الاسكندرية ، وقد أخذ القول بالكلمة Logos من الرواقيين عن هيرقليطس أول القائلين بها فى الزمن القديم ، وقال انها هى واسطة الله فى علاقته بهذا العالم واخذ تفسير الرموز الدينية من العبادات السرية كعبادة ايزيس وعبادة اوزيريس سرابيس التى تاسست بالاسكندرية وتفرعت فى أثينا وبومبى وروما وبعض الموانىء الاسيوية ، ثم طبق هذا التفسير على رموز التوراة فشرحها شرحا عقليا يخالف فى كثير من المسائل شروحها

التقليدية ، وقال فى كلامه عن خلق العالم ان موسى عليه السلام لم يات باسلوب كاسلوب اصحاب الشرائع الذين يحصرون احكام قومهم فى الحلال والحرام بغير تصرف ولا تنقيح ولا باسلوب كاسلوب اصحاب الشرائع المبهمة التى تحيط بها الألغاز والزيادات وانه روى تعلة الخليفة رواية تتضمن ان الدينا مطابقة للنظام (او الشريعة) وان النظام مطابق للدنيا ، وان الانسان الذى يتبع النظام ، مواطن صالح للعالم كله ، يسير فى عمله وفقا لمشيئة الطبيعة التى تسير الدنيا كلها وفقا لمشيئتها .

وقد كان فيلون رواقيا على حافة الابيقورية ، فقال فى كلامه عن ابراهيم مفسرا اسم اسحاق « ان معنى اسحاق فى لغتنا الضحك » ولكن الضحك هنا غير الضحك الذى ياتى من سرور الجسد ، فهو سرور المعرفة الصالحة ، وهذا هو الفرح . هذا الفرح الذى روى لنا ان الحكيم ابراهام قدمه قربانا الى الله مبينا بذلك فى هذا الرمز ان الفرح على صلة وثيقة بالله وحده . اذ الانسان عرضة للحزن والخوف من الشرور الحاضرة والمتوقعة ، وليس الحزن ولا الخوف من طبيعة الله » .

ومذهب فيلون فى الصلاة ان الانسان يصلى شكرا لله على ما فى الكون كله وخلائقه كلها ومنها بنو آدم جميعا رجالا ونساء ويونان وبرابرة ومنها ذات المصلى جسدا وروحا ومنطقا وعقلا وحسا ، فان الصلاة على هذا المثال جديرة ان تستجاب .

وينقسم الانسان عند فيلون الى ثلاثة اقسام : وليد الأرض ووليد السماء ووليد الله ، فوليد الأرض من يطلب متاع الجسد ، ووليد السماء من يطلب متاع الفكر ، ووليد الله من تجرد عن الدنيا واقبل بجملته على عالم فوق هذا العالم معصوم من الفناء برّاء من المادة ، فى زمرة الهداة والمراسلين .

وليس فيلون من دعاة العزلة فى الصوامع ، لأن اختلاف المكان لا يصنع شيئا وانما الخير كله من الله حيث كان ، وهو كائن فى كل مكان ، يهدى ركاب الروح الى حيث يشاء .

كذلك لم يكن يستعظم ضحية القرابين كما قال فى كلامه عن الشرائع الخاصة « إن الله لا يفرح بالضحايا ولو حسبت بالمئات لانه مالك كل شيء ومعطى الناس كل شيء ومن عطاياه تلك الضحايا وقد يكون التقرب بخبز الشعير اقوم عنده من التقرب بالنفائس والذخائر ، بل من تقدم اليه بنفسه لا يحتقب شيئا غير الصدق وخلوص النية اكرم عنده ممن يبذل الأموال ويسيء الأقوال والفعال »

وقد كان فيلون عالميا يخاطب بني الانسان كافة ، وكان يقول ان اسرائيل انما سمى بهذا الاسم لانه ينظر الى الله ، فكل ناظر الى الله اسرائيل ، ولكن هذه الدعوة العالمية لم تصرفه قط عن العصبية القومية ، ولم ينس قط فى كلامه عن بنى اسرائيل انهم هداة الأمم وانهم أحق عشائر الانسان باعجاب جميع العشائر فأن الاثينيين يرفضون شعائر اللقدمونيين كما يرفض اللقدمونيون شعائر الاثينيين ، ولم يعهد فى المصريين انهم يأخذون بتقاليد السيثين أو فى السيثيين انهم آخذون بتقاليد المصريين ، وأهل أوربة يعرضون عن عادات أهل آسيا وأهل آسيا يعرضون عن عادات أهل أوربة ، ولكن اليوم السابع الذى يستريح فيه اليهود مرعى الحرمة عند جميع الأقوام ، ويوم الكفارة من كل سنة اقدس من الشهر الحرام فى عرف الاغريق ، اذ هو شهر يبطل فيه القتال ولكنه يغرى الناس بالافراط فى الشراب والطعام وشهوات الاجسام ، وشتان هذا من موسم الصيام والقنوت عند بنى اسرائيل .

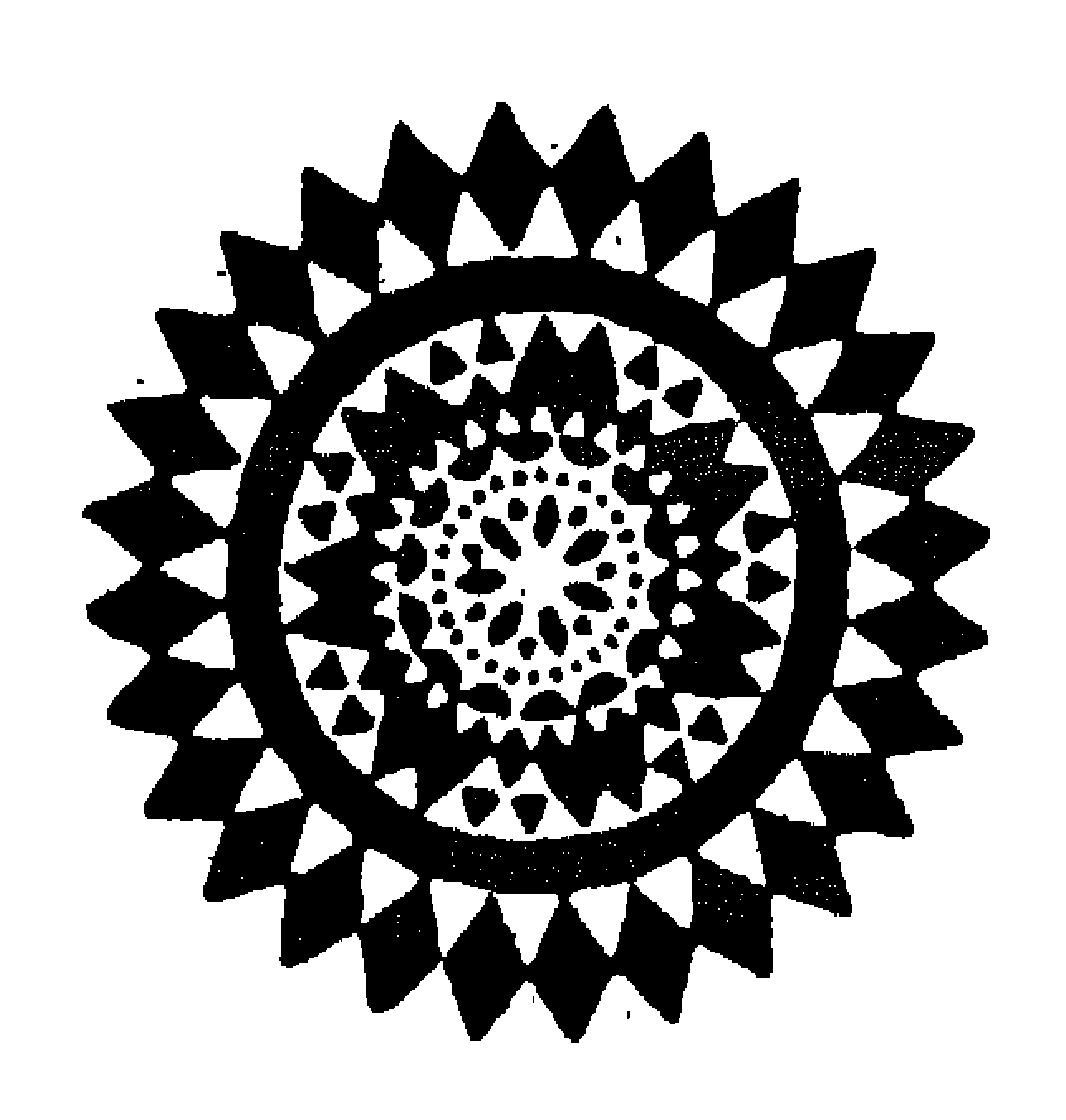
يقول هذا عن قومه ، فى كلامه عن حياة موسى عليه السلام ، ولكنه يقول فى كلامه عن الشرائع الخاصة ان اسرائيل بين الامم كاليتيم المضيع بين الغرباء ، لا يأخذ بناصرهم أحد إذا تألبت الأقوام وتعصبت العشائر ، وذنبهم عند الناس انهم يدينون انفسهم بالفرائض الصارمة ويتزمتون فى المعيشة والصرامة ثقيلة على الطباع والتزمت بغيض الى النفوس « ومع هذا يقول لنا موسى ان يتم اسرائيل يستجلب لها شفقة الله مدبر الكون الذى وقعت اسرائيل من نصيبه وفرزت من

العالم كما تفرز بواكير الثمار هدية للخالق والأب الرحيم »

★ ★ ★

تلك غاية الشوط الذى انتهى اليه فيلون فى زمنه ولا يعتبر فيلون من الأئمة ذوى الاتباع فى الديانة الموسوية ، ولكنه يعتبر نموذجا صالحا لتلك الديانة كما يفهمها الحكيم المطلع المتدين فى أوائل عصر الميلاد .

■ ■ ■



جـــليل الأمـــم

ولد السيد المسيح بأرض الجليل - أو جليـل الأمم - كما كـان يسميهـا الاسرائيليون ، لانها كانت اقليما مفتوحا لجميع الأمم الشرقية والغربية ، ولم يخلص سكنه للاسرائيليين وحدهم فى زمن من الأزمان .

ومعنى الجليل بالعبرية الدائرة ، يعنون بها الاحاطة ، لأنها اتسعت لكثيرين ممن يحال بينهم وبين الاقامة فى بلاد أخرى من فلسطين ولا سيما الجنوب .

وكانت الجليل جزءا من اقاليم الشاطىء الشمالية التى عرفت فى التاريخ القديم باسم كنعان ، ثم اطلق عليها اليونان اسم « فينيقية » من اللون الأحمر على ما يظهر ، وهو لون الصخور والجبال .

وقد امتازت كنعان قديما بالموانىء الصالحة ووقوعها على طريق التجارة من البحر الأبيض إلى خليج فارس إلى اقصى المشرق واشتهرت من هذه الموانىء صيدا وصور وحيفا ، وكادت تجارة المشرق والمغرب تنحصر فى صيدا وصور ، لأن الشواطىء الجنوبية حلت فى الزمن القديم من الموانىء الصالحة ، ولم تكن وراءها مسالك مطروقة للتجارة غير مسالك الصحراء ، وهى يومئذ قليلة الأمن كثيرة التكاليف .

ولهذا الموقع الفريد حفلت ارض الجليل من قديم الزمن بالسياح والمقيمين من جميع امم الحضارة فى المشرق والمغرب ، وتوثقت صلاتها بجميع الحضارات الانسانية ، وراجت فيها الصناعات والمعارف العملية والنظرية ، ولا سيما المعارف التى لها علاقة بالملاحة كفن بناء

السفن ورصد الكواكب حتى تواتر ان تجار الفينيقيين وملاحيهم الذين نشروا الابجدية فى بلاد البحر الأبيض ، ومنها انتقلت الى سائر الأمم الأوروبية .

وقد دخل بعض بلاد الجليل ـ أو كنعان ـ فى مملكة داود بعد انشائها ، ولكن العلاقة بين الجليل واليهودية ظلت على الدوام علاقة حذر وجفاء ان لم تكن علاقة حرب وعداء ، وكان أثر السيطرة اليهودية على بلاد الكنعانيين ان اليهود اخذوا من الكنعانيين معالم حضارتهم وعولوا عليهم فى الصناعة والتجارة ، وجاء فى العهد القديم غير مرة ذكر الاستعانة بالصناعة والخبراء من أهل كنعان فى تشييد الهياكل والقصور اليهودية ، ومن ذلك فى سفر الملوك ان سليمان ارسل الى حيرام ملك الكنعانيين يرجوه ان يأمر بقطع الخشب لبناء الهيكل ويقول له : « انك تعلم انه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب كالصيدونيين » . . ومنه وصف المهندس الذى كان ابوه من صدروامه من سبط نفتالى « وكان ممتلئا حكمة وفهما ومعرفة لكل عمل فى النحاس » (١)

وقد جاء فى الاصحاح السابع والعشرين من سفر حزقيال انهم كانوا يتجرون بالحنطة والعسل والزيت والبلسان والحلوى وغيرها من منقولات الأمم الأخرى .

واعتمد اليهود على الكنعانيين فى شئون الثقافة والفن ولم ينته اعتمادهم عليهم عند مطالب التجارة والصناعة ، فنقلوا عنهم الكتابة وأوزان الشعر وأناشيد الصلوات ، وحدث غير مرة انهم تركوا عقائدهم وتحولوا عنها إلى عقائد الكنعانيين ، وإلى ذلك يشير العهد القديم فى سفر التثناه حيث يقول : « وفعل بنوك اسرائيل الشر فى عينى الرب وعبدوا البعليم وتركوا إله آبائهم الذى اخرجهم من ارض مصر » والى ذلك أيضا يشير العهد القديم فى سفر الملوك الأول حيث يقول النبى ايليا

---

(١) الاصحاح الساج من الملوك الأول .

« ان بني اسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا انبياءك » الى ان يقول : وقد ابقيت في اسرائيل سبعة آلاف وهم كل الركب التي لم تجث للبعل وكل فم لم يقبله » .

ولما تكاثر عدد اليهود المقيمين في الاقاليم الشمالية من فلسطين كالجليل والسامرة ، تغيرت عادتهم ومأثوراتهم ونظر اليهم أبناء اليهودية نظرتهم الى الخوارج الذين انقطعوا عن اصولهم وتابعوا الغرباء على عاداتهم وآدابهم ، وكان الواقع ان اهل الجليل خاصة تعودوا الكلام بالآرامية وهي لغة أهل سوريا الداخلية ، أو باليونانية ، وهي لغة القادمين من البحر او من آسيا الصغرى ، واقتبسوا كثيرا من مأثورات الفرس والهند والعراق ، لانهم كانوا يلتقون بأبناء هذه البلاد القادمين مع القوافل الشرقية . ويرجع بعض المؤرخين ان الفينيقيين الاقدمين جميعا كانوا من قبائل الخليج الفارسي التي جلت عنه وسارت مع طريق القوافل حتى استقرت على شاطىء بحر الروم وظلت محافظة بعد ذلك على علاقتها بالبحار الشرقية .

وبلغ من بغض أهل اليهودية لابناء ملتهم في الشمال ان « حنا هير كانوس » المكابي أغار على الأقاليم الشمالية ، ومنها بلاد في السامرة وبلاد في الجليل ، فأعاد من فيها من اليهود الى الجنوب البقاء على المهاجرة من بلاد آبائهم واجدادهم أو من البلاد التي استوطنوها منذ زمن طويل ، ولبث السامريون منفردين بتقاليدهم ، ولبث اهل الجليل متهمين منظورا اليهم بعين الريبة والاستغراب .

ومما اتفقت عليه أقوال المؤرخين وتردد كثيرا في روايات التاريخ ان جمهرة كبيرة من أهل الجليل كانوا عربا يتكلمون الآرامية ويلفظون العبرية بلهجة اجنبية يلحظها اهل الجنوب ويميزون المتكلم بها من كلمات قليلة تبدر منه عرضا على غير روية ، وكذا عرف الحواريون في الهيكل كما كانوا يعرفون في كل فلسطين .

وقد كان من الأمثال السائرة على ألسنة اليهود المتعصبين لتقاليدهم وعادتهم « انه لا خير يأتي من الجليل » وفي انجيل يوحنا ان نثنائيل

عجب حين قال له صاحبه « اننا وجدنا الذى انبا عنه موسى » وانه من الناصر فى الجليل ، فأجابه مستغربا : « أمن الناصرة يجيء شيء صالح » (١)

وفى انجيل يوحنا أيضا يروى عن رجال الهيكل انهم كانوا يقولون متهمكين « انه لم يقم نبى قط من الجليل » (٢)

كانت السماحة الدينية وقلة التحرج هما سبب هذه النقمة على الجليل واهله فى نفوس ابناء اليهودية المنكرين لكل سماحة والجامدين على كل حرج ولكن هذا السبب بعينه هو الذى جعل أرض الجليل اصلح منبت للدعوة الانسانية التى ترقبها العالم فى ذلك العصر ، فما كان من اليسير ان تنبثق دعوة الاخاء بين الأمم فى كنف الحجر والجمود .

وقد اتفق بعد مولد السيد المسيح ببضع سنوات ان الجليل خرجت من سلطان ملك اليهود على أثر وفاة هيرود الكبيره ، وانها دخلت هى والبادية المجاورة لها فى نصيب ابنة هيرود انتيباس وربما كان عليه السلام فى العاشرة من عمره حينما هدم الرومان عاصمة الامير الجديد ، وبنيت العاصمة الجديدة طبرية على مقربة من الناصرة حيث نشأ عليه السلام ، ولا شك انه فى نحو العاشرة يسمع اخبار هذه الضربة ويسمع اخبار الثورة التى تقدمتها واعقبت بعهدا ما عقبته من جرائها ، وقد كانت مشكلة التعصب او مشكلة السماحة الدينية حديث صباه واول ما طرق مسمعه من مشكلات السياسة والدولة ولما سميت العاصمة الجديدة باسم العاهل الرومانى طيبريوس سمع ولا شك تعقيب الكبار على ذلك الملق المر وشهد العبث من ذوى السياسة والامارة قبل الأوان ، وادرك ان العواصم تهدم وتبنى ، وان الدول تدول ، ان الطاغية يتزلف والمتزلف يطغى ، وان مجد الرياء زيف وخواء ، فسبحت نفسه البريئة فى آفاق غير هذه الآفاق وصور لفؤاده الذكى ملكوت السماء صورة غير هذه الصورة ، تخالفها ولا تزال تختلف عنها كلما تقدمت به الأيام .

---

(١) الإصحاح الأول (٢) الإصحاح السابع .

تاريخ الميلاد

يفهم رقم التقويم الميلادى أن السيد المسيح ولد فى السنة الأولى للميلاد ، وعلى هذا الحساب يجرى العمل بين الأمم الأوروبية منذ سنة ٥٣٢ للميلاد وهى السنة التى دعا فيها الراهب دينوسيس الصغير (Exigus) إلى تاريخ الأيام من السنة الأولى للميلاد ، وصحح الحساب على تقديره ثم جرى العمل على حسابه إلى الآن .

ولم يكن الرجل صغيرا فى مكانته الدينية ، ولكنه أطلق لقب الصغير على نفسه من قبيل التواضع والانكسار ، وقد حقق بحوثه ومراجعاته ما استطاع فى زمانه فلم يسلم من الخطأ فى حساب بضع سنوات ، ثم تعذر اصلاح هذا الخطأ عند ثبوته فتقرر استدراكه باضافة أربع سنوات الى التقويم القديم الذى يحسبه أصحابه منذ بدء الخليقة ، واعتبروا ان السيد المسيح ولد فى سنة أربعة آلاف وأربع بحساب ذلك التقويم .

أما القول الراجح فى تقدير المؤرخين الدينيين وغير الدينيين فهو ان ميلاد السيد المسيح متقدم على السنة الأولى ببضع سنوات » وانه على أصح التقديرات لم يولد فى السنة الأولى للميلاد .

ففى انجيل متى انه عليه السلام قد ولد قبل موت هيرود الكبير ، وقد مات هيرود قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات .

وقد جاء فى انجيل لوقا ان السيد المسيح قام بالدعوة فى السنة الخامسة عشرة من حكم القيصر طيبريوس وهو يومئذ يناهز الثلاثين ، وقد حكم طيبريوس الدولة الرومانية بالاشتراك مع القيصر

أوغسطس سنة ٧٦٥ من تأسيس مدينة رومه ، ومعنى هذا ان السيد المسيح قد بلغ الثلاثين حوالى سنة ٧٧٩ رومانية ، وانه ولد سنة ٧٤٩ رومانية أى قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات .

ويذكر انجيل لوقا ان القيصر أوغسطس أمر بالاكتتاب ـ أى بالاحصاء ـ فى كل المسكونة ، وأن هذا الاكتتاب الأول جرى اذ كان كيرنيوس واليا على سورية « فذهب الجميع ليكتتبوا كل فى مدينته ، وصعد يوسف . . من مدينة الناصرة الى اليهودية . . ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهى حبلى ، وتمت أيامها هناك فولدت ابنها البكر »

والمقصود بالاكتتاب هنا ـ على ماهو ظاهر ـ أمر الاحصاء الذى أشار إليه المؤرخ يوسفوس وأرخه بما يقابل السنتين السادسة والسابعة للميلاد ، ولا يمكن ان يكون قبل ذلك لأن تاريخ ولاية كيرنيوس معروف وهو السنة السادسة ، فيكون السيد المسيح اذن قد ولد فى نحو السنة السابعة للميلاد ، وتكون دعوته قد بدأت وهو فى الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين ، وهو تقدير يخالف جميع التقديرات الأخرى ويخالف المعلوم من مأثورات الاسرائيليين ، فان الكاهن اللاوى عندهم كان يباشر عمله بعد بلوغ الثلاثين ، وكان الأحبار المجتهدون عندهم يبلغون الخمسين قبل الجلوس للتفسير والافتاء فى مسائل الفقه الكبرى ، ولهذا قالوا عن السيد المسيح انه لم يبلغ الخمسين بعد ويدعى انه يرى ابراهيم ويستمع اليه ، ولو أنه بدأ الدعوة قبل الثلاثين لكان الأحرى ان يعجبوا لكلامه قبل بلوغه سنه الكهنة اللاويين .

ويغلب على تقدير المؤرخين الثقات أن الاحصاء المشار اليه هو الاحصاء الذى ذكره ترتليان Tertullian .وقال انه جرى فى عهد ساتورنينس Saturninus والى سورية الى السنة السابعة قبل الميلاد ، فإذا كان هذا هو الاحصاء المقصود فالسيد المسيح كان قد بلغ السابعة فى السنة الأولى للميلاد .

ومن القرائن التى لا نريد ان نهملها قرينة الكوكب الذى قيل ان كهان المجوس تتبعوه من المشرق ليهتدوا به الى المكان الذى ولد فيه السيد المسيح .

فمن المعروف ان خبراء فينيقية وفارس كانوا يشتغلون بالفلك والتنجيم ، وانهم كانوا فى عصر الميلاد يرقبون حادثا جللا فى التاريخ البشرى حوالى سنة الميلاد ، وكانوا كذلك يرصدون النجوم ليعرفوا من طوالعها بشائر ذلك الحادث الجلل المترقب من حين الى حين ، وكان قران المشترى وزحل من الطوالع الهامة عند سكان المشرق على البحر حيث ترصد الكواكب للملاحة والتفاؤل ، وفى داخل البلاد الفارسية حيث ترصد الكواكب للعبادة واستيحاء الارادة الألهية ، ويكفى ان نذكر بقايا هذه العادة فى البقعة الفينيقية الى ما بعد أيام المعرى لنعلم شأن الارصاد هنالك كما كانت فى الزمن القديم ، وقد كان المعرى الضرير يعنى نفسه بهذه الارصاد ويقول عن قران المشترى وزحل خاصة فى لزومياته ! .

قران المشترى زحلا يرجى لايقاظ النواظر من كراها
وهيهات البرية فى ضلال وقد فطن اللبيب لما اعتراها
وكم رات الفراقد والثريا قبائل ثم اضحت فى ثراها
تقضى الناس جيلا بعد جيل وخلفت النجوم كما تراها

فإذا كان هذا ما تخلف من العناية بالارصاد فى البقعة الفينيقية الى أيام المعرى فليس من الأمانة للبحث ان نهمل قرائن ارصاد كل الأهمال ، لأننا نرفض التنجيم ونرفض دعوى المجوس فيه .

فمن المعقول ان ننكر على المنجمين علمهم بالغيب من رصد الكواكب وطوالع الافلاك ، ولكن لا يلزم من ذلك ان ننفى ظهور الكوكب الذى رصدوه ، وأن نبطل دلالته مع سائر الدلالات ، وبخاصة حين تتفق جميع هذه الدلالات .

★ ★ ★

وقد ذكر فردريك فرار فى كتابه « حياة المسيح » (١) أن الفلكى الكبير كبلر حقق وقوع القران بين المشترى وزحل حوالى سنة ٧٤٧ رومانية ، يقول فرار فى وصف هذه الظاهرة : « أن قران المشترى وزحل يقع فى المثلث نفسه مرة كل عشرين سنة ، ولكنه يتحول الى مثلث آخر بعد مائتى سنة ، ولا يعود الى المثلث الأول بعد عبور فلك البروج كله إلا بعد انقضاء سبعمائة واربع وتسعين سنة واربعة اشهر واثنى عشر يوما ، وقد تراجع كبلر بالحساب فتبين له ان القران على هذا النحو حدث سنة ٧٤٧ رومانية فى مثلث النونين او الحوتين وان المريخ لحق بهما سنة ٧٤٨ رومانية .

ويظهر من هذا الحساب ان تاريخ الميلاد يضاهى التاريخ الذى يستخلص من التقديرات الاخرى على وجه التقريب ، وان السيد المسيح ولد فى نحو السنة الخامسة أو السادسة قبل الميلاد .

ونعود فنقول ان اثبات الرصد لا يستلزم الايمان باطلاع المجوس على الغيب من مراقبة الافلاك ، وكل مايفهم ، ولا يجوز ان يهمل ان الذين كتبوا تاريخ السيد المسيح بعد عصره بنحو جيلين كانوا يتناقلون خبر تلك الظاهرة ويؤمنون بدلالتها على حدث عظيم فقرنوا بينها وبين ميلاد المسيح المنظور ، ولعل الاناجيل قد دونت والناس يتحدثون بقران فلكى من قبيل ذلك القران فى حكم القيصر هادريان ، فقد ظهر يومئذ مسيح كذاب آمن به الربانى عقيبة ليدحض دعوى المسيحيين ، وسماه ابن الكوكب « باركوكبه بالعبرية » ونقش على العملة التى سكها صورة كوكب ، فعادت الذاكرة بكتاب الاناجيل الى تلك الظاهرة الفلكية النادرة ، بعد الدعوة المسيحية بنحو سبعين سنة

★ ★ ★

على أن الدراسات الأخيرة فى علم المقابلة بين الاديان تسوق المؤرخ الذى يكتب عن تاريخ المسيح حتما إلى مبحث عويص أدق جدا من

---

(١) الجزء الأول صفحة ٢١ الطبعة الثانية من مطبعة كاسل .

المبحث الذى يدور حول السنة الميلادية ، فان القرن الثامن عشر قد أخرج للناس مدرسة الشك المطلق فى مقررات العلم القديم ووقائع التاريخ المتواتر ، فشك الكتاب فى وجود الانبياء والمرسلين وكاد الشك يتناول كل نبى وكل صاحب دين غير محمد عليه السلام ! شكوا فى بوذا كما شكوا فى ابراهيم وموسى وعيسى . وسرى الشك إلى الأدب كما سرى إلى الدين ، فشكوا فى شخصية هوميروس وفى شخصية شكسبير وظن بعض المثبتين للشخصيات المتاخرة فى التاريخ انها وجدت فعلا ولكنها لم تضع ما نسبوه اليها ولم تكتب ما ينشر باسمائها

وقد زار فولتير – إمام الشاكين – بلاد الانجليز فوجد هناك مدرسة بولنجبروك تتحدث بغاية السهولة فى شبهاتها عن وجود السيد المسيح ، وكان نابليون يسال العالم الالمانى ويلاند : هل يعتقد أن المسيح شخص تاريخى وجد كما وصفوه ؟ . . وجاء القرن التاسع وقد طغت على ميدان الدراسات الدينية موجات من الكتب التى الفها الالمان والدنمركيون والفرنسيون والانجليز يفندون بها اقوال المؤرخين ويرجحون أن السيد المسيح شخصية من شخصيات الخيال ، وليس من المستطاع فى هذا الحيز أن نورد أقوالهم مفصلة أو مجملة فى هذا الموضوع ، فان أسماء المؤلفين والمؤلفات وعناوين المسائل التى طرقوها وخلاصة البراهين التى شفعوا بها بيان تلك المسائل تستغرق وحدها كتابا كهذا الكتاب ،ولكننا نجتزىء بتلخيص الاساسين المهمين اللذين قامت عليهما مدرسة الشك فى وجود السيد المسيح ، واحدهما انه عليه السلام لم يذكر فى التواريخ القديمة التى فصلت اخبار عصره والآخر أن روايات التلاميذ عنه قد سبقت روايتها عن شخصيات أخرى من شخصيات الزمن القديم وبعضها أقرب إلى الاساطير والفروض

اما المؤرخون الذين خصوهم بالذكر فهم يوسفوس Josephus وتاستيس Tacitus وسوتينوس Suetonius وكلهم ممن أرخوا عصر الميلاد ولم يثبتوا وجود السيد المسيح بما كتبوه عن أيامه .

نعم وردت فى نسخ من تاريخ يوسفوس اشارة مقتضبة إلى « عيسى القديس » ولكن النقاد التاريخيين يجزمون بانها مضافة اليه ، ويؤكدون انها أضيفت بقلم أحد القراء المتأخرين الذين عجبوا لخلو التاريخ من الاشارة إلى أعظم الحوادث فى ذلك العصر ، فأباحوا لأنفسهم أن يضيفوا تلك الاشارة كأنها من كلام يوسفوس على اعتبار ان الحقائق التاريخية امانة عند من يعلمها وليست امانة المؤلف وحده سواء عرفها أو لم يعرفها ، وما كان من المعقول أن المؤرخ اليهودى الذى ينكر المسيحية يكتب عن رسول هذا الدين فيقول : « انه فى ذلك العهد عاش عيسى ذلك الانسان القديس ان جاز أن يسمى انسانا بعدما اتى به من المعجزات البينات وعلم الناس وتلقى الحق فاستبشر به ، واتبعه كثير من اليهود والاغريق ، وكان هو المسيح »

قالوا : ان يوسفوس اليهودى الذى مات على دينه لا يكتب هذا ولا يؤمن ايمان المسيحيين ، ولو انه آمن كما آمنوا لما اكتفى بتسجيل ذلك الحادث العظيم فى ثلاثة سطور جاءت عرضا بغير تعقيب أو تفصيل

ومن اللاهوتيين الذين عقبوا على هذه الملاحظة القس هورن Hirne الذى الف كتابه « مقدمة الدراسة النقدية والتعريف بالكتب المقدسة » وادرك به هجمة الشكوك الاولى فى سنة ١٨٣٦ (١) .

فقد ذكر هورن ان هذه العبارة موجودة فى جميع النسخ المخطوطة والمطبوعة التى حفظتها مكتبة الفاتيكان من الترجمة العربية . وأن العبارة نفسها موجودة فى النسخة العبرية التى تحفظها الطائفة المارونية بلبنان ، وأن كتاب القرن الرابع والقرن الخامس من السريان والاغريق والمصريين قد اطلعوا عليها واستشهدوا بها وأن يوسفوس قد أشار فى موضع آخر الى جيمس أسقف أورشليم حيث قال : ان حنانا عقد السنهدرين اليهودى وأحضر أمامه جيمس أخا عيسى المسمى

---

(1) Introduction to the Critical Study and Knowledge of the reiy Scriptures.

بالمسيح ومعه أخرون ثم أمر بهم أن يرجموا عقابا لهم على عصيان الشريعة » .

قال هورن : ولو ان أوسبياس Eusobius أول من استشهد بالعبارة المتقدمة كان قد أثبتها مختلقا لها لما عدم ناقدا يكشف دسته من المطلعين على كتاب سفوس وهو كتاب له مكانة موقرة بين الرومان من قديم الزمن ، وبفضل هذه المكانة كسب يوسفوس شرف الوطنية الرومانية ، بل كان من الراجع جدا أن يتصدى اليهود لمن يدس تلك العبارة في تاريخهم الاشهر فيفضحوه تفنيدا له وتفنيدا للديانة التى يدعيها .

والمع هورن الى الشكوك التى تحيط بتلك العبارة لانها لم تذكر قط في كلام معروف قبل أوسبياس ، فقال ان هذه الشكوك لا تقيم حجة لاصحابها لان اقطاب المسيحية كانوا في غنى عن الاستشهاد بأقوال المؤرخين مع استطاعتهم أن يثبتوا رسالة السيد المسيح في نبوءات كتب التوراه .

وختم هورن ردوده بتوجيه عبارة يوسفوس الى معنى لا يستلزم أن يكون المؤرخ اليهودى مؤمنا بالمسيحية أو برسالة المسيح المنتظر ، ولعله سماه « المسح » رواية عن اتباعه الذين كانوا يدعونه مسيحا ويعرفونه بشهرته الغالبة .

أما المؤرخ الرومانى تاسينس الذى كتب تاريخه حوالى سنة (١١٥ ميلادية) فأقدم ما ذكره عن السيد المسيح لا يرجع الى أقدم من سنة أربع وستين ميلادية . ولم يذكره مباشرة بل أشار الى اسمه في سياق الكلام على حريق رومة حيث قال ان الامبراطور نيرون أقلقه اتهام الناس أياه باحراق المدينة فالقى التهمة على طائفة العامة الذين يسمون بالمسيحيين وينسبون الى المسيح الذى حكم عليه بونتباس بيلاطس بالموت في عهد القيصر طيبربوس » .

ولا يعرف الآن علام استندت اسيتس في رواية هذه النسبة ، ولكنها كانت على كل حال رواية شائعة بين اناس كثيرين لم يشهدوا عصر المسيح .

وكذلك لم يذكر سويتنيوس خبرا مباشرا عن السيد المسيح ولكنه قال في تاريخه للقيمص كلوديس « انه نفى من رومة جماعة اليهود الذين كانوا على الدوام يثيرون المتاعب بتحريض كريستس » وكتبها هكذا باللاتينية Chrestus لان الاسم التبس عليه بين كرستس بمعنى الطيب وكريستس بمعنى المسيح .

وايا كان مستند هذا المؤرخ فلا يستفاد من روايته الا ان العاصمة الرومانية كان فيها اناس يعروفون باسم المسيحيين عند منتصف القرن الثاني للميلاد ، وانه كان يحسب أن الزعيم كرستس كان يحرض اتباعه بنفسه في ذلك التاريخ .

وقد عاش في عصر السيد المسيح نفسه كتاب ومؤرخون من اليهود مثل الفيلسوف فيلون الذى سبق ذكره والمؤرخ جستس الطبرى الذى عاش في الجليل أيام الدعوة المسيحية وكتب تاريخ قومه من عهد موسى الى نهاية القرن الاول للميلاد ولم ترد في تاريخه اشارة مباشرة او غير مباشرة الى الدعوة المسيحية .

. تلك خلاصة الحجة التى تقوم على خلو التواريخ المعاصرة من ذكر الدعوة المسيحية في عصرها .

أما الحجة الاخرى وهى حجة التشابه بين القصص المروية عن السيد المسيح والقصص المروية عن الارباب في العبادات الشرقية القديمة ، فهى تعتمد على تفصيلات كثيرة تحيط باخبار المعجزات والشعائر في ديانات الاقدمين من المصريين والبابليين والفرس والهنود والكنعانيين ، وأكثر النقاد المتشبثين بهذه الحجة من علماء المقابلة بين الاديان المطلعين على أديان المشرق في لغاتها ، ويغلب عليهم ترجيح القول بأن أخبار المسيح بقية من بقايا الديانات الشمسية يدل عليها عدد « أثنى عشر » الذى يشير الى البروج ويشير الى عدد التلاميذ ، ويدل عليها الاحتفال بالميلاد في يوم الاعتدال الخريفى على حساب الاقدمين ، والاحتفال بيوم الاحد الذى اعتقدوا قديما انه يوم الشمس ويعرف

حتى اليوم فى اللغات الاوربية بهذه النسبة ، وذلك عدا المشابهة فى اسم الام والولادة فى المذود وركوب « الحمار ابن الاتان » وغير ذلك من الشعائر والمعجزات .

والغريب فى شأن هؤلاء العلماء انهم لم يكلفوا انفسهم تفسيرا مقبولا لوجود المسيحيين بهذه الكثرة بعد جيل واحد من عصر الميلاد ، فان التفسيرات التى فرضوها تتسع لشكوك كثيرة كلها أغرب من القول بشخصية المسيح التاريخية ، ولا يكفى ان يقال ان اخبار المعجزات والشعائر قديمة لتفسير الدعوة المسيحية بغير داع وبغير محور معلوم تدور عليه ، وقد توفى بولس الرسول نحو سنة سبع وستين ميلادية وعاش قبل ذلك نحو ثلاثين سنة يبشر باسم المسيح ، ولم يكن قد طال العهد بتاريخ الدعوة ولم يحدث خلال ذلك ما يفسر تكوينها من المعجزات والشعائر التى ظلت قبل ذلك مئات السنين متواترة على الالسنة وكان تواترها قديما اقوى واشيع من تواترها بعد تقادم العهد وتتابع السنين .

وكل ما يفهم من سكوت المؤرخين المعاصرين على سبيل الجزم أن المؤرخين لم يدركوا خطرها ولم يميزوها من الحركات المتفرقة التى كانت تختلج بها طوائف اليهود على صفة عامة ، ويعزز هذا أن الطائفة الجديدة لم تذكر باسم خاص فى الاناجيل جميعا غير ثلاث مرات ، فذكر اتباع السيد المسيح باسم المسيحيين فى الاصحاح الحادى عشر من اعمال بولس الرسول حيث قيل ان التلاميذ دعوا « مسيحيين » لأول مرة فى مدينة « انطاكية » ثم جاء فى الاصحاح السادس والعشرين على لسان الملك أغريباس انه قال محتجا : « أهون بما تقنعنى به أن أصير مسيحيا » وجاء فى الاصحاح الرابع من رسالة بطرس : « أن عيرتم باسم المسيح فطوبى لكم . . . أن أحدكم لا يتألم لانه قاتل أو سارق أو فاعل شر أو صاحب فضول . فان تألم لانه مسيحى فلا يخجل » وجملة ما يؤخذ من الكلمة فى هذه المواضع الثلاثة أنها كانت نسبة

ازدراء وتعيير على السنة اعداء المسيحيين ، وليس من الصعب أن يضيع الكلام عن طائفة لا عنوان لها بين ما يكتب عن جماهير ذلك الزمن في غمار التواريخ ، وبخاصة اذا كانت لم تبلغ من الخطر ما يدركه مؤرخ الحوادث الكبرى ، وكان من هم أولئك المؤرخين أن يستصغروا شانها لانها طائفة مغضوب عليها في مراجع الدين ومراجع الدولة ، فالهيكل ينكرها والحكومة الرومانية تترفع عنها ، ولم يحدث قبل ذلك أن طائفة من طوائف فلسطين جمعت بين غضب السلطتين ، وهي مع ذلك غير معروفة بعنوان تدور عليه الاخبار !

* * *

ويبدو لنا أن نشوة العلم الجديد ـ علم المقابلة بين الاديان ـ هي التي دفعت اصحابها في القرن الثامن عشر الى تحميل المشابهات والمقارنات فوق طاقتها فاننا نرى أمامنا في هذا العصر ان هذه المشابهات لاتنفي ولاتثبت ، بل لعلها الى الاثبات أقرب منها الى النفي على الاجمال .

نحن نرى في هذا العصر أن اتباع الطرق الدينية يتنافسون فينسب كل منهم الى وليه المختار كرامات جميع الاولياء الآخرين ، لانه يؤمن بتلك الكرامات ولا يشك في وقوعها ولكنه يعتقد ان وليا واحدا هو الجدير باتيانها وهو الولي الذي أصطفاه وفضله على غيره من الاولياء .

ونحن نرى في هذا العصر وفي جميع العصور أن المشهور في صفة من الصفات تضاف اليه نوادر تلك الصفة وعجائبها ويصبح علما لتلك الصفة في كل ما يروى عنها وينسب اليه ، فالمشهور بالكرم تنسب اليه المكارم جميعا بغير سند ، والمشهور بالشجاعة يذكر كلما ذكرت نادرة من نوادر الشجاعة ثم يذكر بعد ذلك كأنه هو صاحب تلك النادرة أو صاحب نادرة مثلها أن لم تكن تفوقها وتزيد عليها في بابها .

وينبغي أن تذكر أن المسيحية وجدت قبل أن تقترن بها تلك المراسم والتقاليد ، وأن المسيحيين الاوائل أعرضوا عن كثير منها واستنكروه ومنعوه ، ومنهم من كان يحرم الاحتفال بمولد للمسيح في يوم كائنا

ماكان ، وعلى رأسهم أوريجين الفقيه العظيم . وقد مضت ثلاثة قرون قبل أن تحتفل كنيسة من الكنائس المعتمدة بعيد الميلاد فى تاريخ من التواريخ ، ثم اختلفت الكنائس فاحتفلت الكنيسة الشرقية بالميلاد فى السادس من شهر ديسمبر ، ويرجع انها اختارت هذا اليوم لتصرف المسيحيين عن حضور المحافل الوثنية التى كانت تتخذه عيدا للشمس وتعلن فيه الافراح بانتصار النور على الظلام ، لان الاعتدال الخريفى هو الموعد الذى يقصر فيه الليل ويطول النهار .

ولا يخفى أن يونس الرسول قد ولد فى طرسوس وهى مركز من مراكز الديانة المثرية ، فليس من المستغرب ان تعلق بذهنه بعض مصطلحاتها وعاداتها ، وأن يكون قد تقبل بعضها تيسيرا لاقناع اتباعها بالدعوة الجديدة ، فلم يزل من سياسة التبشير فى جميع الدعوات ان تسير فى هذا الباب ما يستطاع تيسيره ، وقد ظلت هذه السياسة مرعية عدة قرون ، اذ نقل الراهب بيدBade فى تاريخ الكنيسة الانجليزية خطابا لغريغورى الاول (تاريخه سنة ٦٠١ ميلادية) يستشهد فيه بنصيحة المستشار البابوى مليتس Mellitus الذى كان ينهى عن هدم المعابد الوثنية ويرى الابقاء عليها « وتحويلها من عبادة الشياطين الى عبادة الاله الحق ، كى يهجر الشعب خطايا قلبه ويسهل عليه غشيان المعاهد التى تعود ارتيادها » (١)

ولا خلاف فى تكرار العدد « اثنى عشر » فى كثير من الديانات ، ولكن تكراره هذا لا يستلزم أن يكون كل معدود به خرافة او اسطورة غير تاريخية ، وقد كان خليقا باصحاب المقارنات والمقابلات أن يذكروا هذه الحقيقة بصفة خاصة ، اذ اقرب المؤرخين اليهم سوتنيوس صاحب تاريخ « القياصرة الاثنى عشر » وكلهم من « الشخصيات التاريخية » .

وفى تاريخ الاسلام تفصيل مذهب الشيعة الامامية وهم يدينون

---

(١) كتاب من الوثنية الى المسيحية فى الدولة الرومانية (الفصل الثانى)
Paganism into Chrialanity in the Roman Empire by Hyde.

بالولاء لاثنى عشر اماما معروفين بأسمائهم ليس منهم من يمكن أن يقال فيه أنه شخصية غير تاريخية » .

على ان النقاد الذين شكوا فى وجود السيد المسيح قد شكوا كذلك فى وجود يوشع بن نون وظنوا فيه كما ظنوا فى السيد المسيح انه رمز من رموز العبادات الشمسية لانه يسير الشمس ويقفها عن مسيرها ، ولم يصل الى علم هؤلاء النقاد ان اسم يوشع بن نون وجد منقوشا على حجر عند « نوميديا » بشمال افريقية حيث اقام الفينيقيون مستعمرتهم « قارة حداشة » التى عرفت فيما بعد باسم قرطاجة ، وعلى ذلك الحجر الذى كشف (سنة ٥٤٠ ميلادية) كتابه بالفينيقية يقول كاتبوها « اننا خرجنا من ديارنا لننجو بأنفسنا من قاطع الطريق يوشع ابن نون » (٢) . . وليس كاتبو هذا الكلام عن النبى الاسرائيلى ممن يتهمون بالحرص على أثبات وجوده ونفى الشبهات عن سيرته وتاريخه .

وقد تعب أصحاب المقارنات والمقابلات كثيرا فى اصطياد المشابهات من هنا وهناك ولم يكلفوا انفسهم جهدا قط فيما هو أولى بالجهد والاجتهاد ، وهو استخدام المقارنات والمقابلات لاثبات سابقة واحدة مطابقة لما يفرضونه عن نشأة المسيحية ، فمتى حدث فى تاريخ الاديان ان اشتاتا مبعثرة من الشعائر والمراسم تلفق نفسها وتخرج فى صورة مذهب مستقل دون أن يعرف أحد كيف تلفقت وكيف انفصلت كل منها عن عبادتها الاولى ؟ ومن هو صاحب الرغبة . صاحب المصلحة فى هذه الدعوة ؟ وأى شاهد على وجوده فى تواريخ الدعاة المعاصرين لسنة الميلاد ؟ وكيف برز هذا العامل التاريخى الدينى الخطير على حين فجأة قبل ان ينقضى جيل واحد ؟ ولماذا كان يخفى مصادر الشعائر والمراسم الاولى ولا يعلنها الامنسوية للسيد المسيح ؟

---

(٢) الفصل الرابع من المجلد الثالث من صحائف شمبرز Chamber's papers

ان استخدام المقارنات والمقابلات فى تحقيق هذه السابقة اولى بمؤرخى الاديان من كل ماجمعوه أو فرقوه لينتهوا به الى فرض منقطع النظير .

* * *

على ان صناعة النقد التاريخى تتهم نفسها بالعجز البالغ اذا لم تستطع ان تعتمد الكلام المروى فى تقرير « شخصية القائل » وتحقيق مكانة من التاريخ ، وبين أيدينا كلام السيد المسيح كما روته الاناجيل ينبئنا فى هذه الناحية عن كثير .

فمهما يكن من فصل القول فى استقلال كل انجيل او اعتماد بعضها على بعض هناك علامات واضحة لايمكن ان يقصدها كتاب الاناجيل ، لانها علامات نفهمها الآن وفاقا لما درسناه من تطور الدعوة المسيحية ، ولم يكن لها محل فى رؤوس الرواة المشاهدين أو الناقلين .

فان روايات الاناجيل تطابق التطور المعقول من بداية الدعوة الى نهايتها ، ومن التطور المعقول أن تبتدىء قومية عنصرية ثم تنتهى انسانية عالمية ، وأن تبتدىء فى تحفظ ومحافظة ثم تنتهى الى الشدة والمخالفة ، وأن تبتدىء بقليل من الثقة فى شخصية الداعى ثم تنتهى بالثقة التى لاحد لها فى نفوس الاتباع والاشياع ، وهكذا كانت الدعوة المسيحية كما روتها الاناجيل دون ان يتعمد كتابها تطبيق أحوال التطور أو تلتفت اذهانهم الى معنى تلك الاحوال .

وربما كان أوضح من هذا فى الابانة عن شخصية الداعى أن أقواله تتضمن نقدا لجميع المذاهب التى كانت شائعة فى عصره ، وأن هذه الاقوال تشير الى وجهة نظر واحدة لم يكن لها وجود فى غير تلك الشخصية .

فالاقوال المسيحية تنتقد الفريسيين ولكنها لاتصدر فى نقدهم عن وجهة نظر الصدوقيين او السامريين .

وتنتقد اصحاب النصوص ولكنها لاتصدر فى نقدهم عن وجهة نظر الاباحيين والمتحللين .

وتنتقد الآسين المتعصبين ولكنها لاتدين بآراء الفلاسفة أو الابيقوريين والرواقيين .

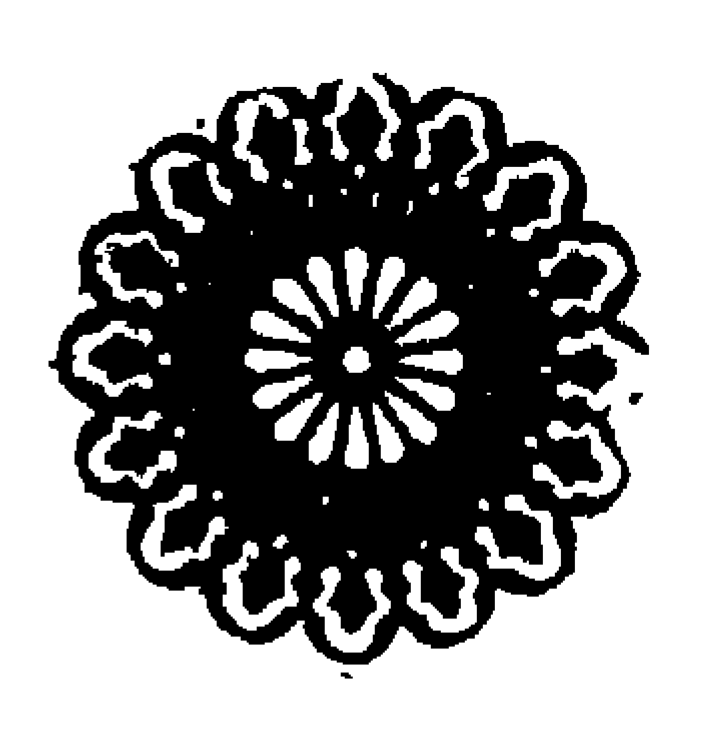
وتنتقد السامريين ولكنها لاترفض السامرية بتاتا ولا ترفض غيرها من النحل كل الرفض من جانب محدود .

وتستشهد بأقوال موسى وابراهيم والانبياء ولكنها لاتتقيد بكل قول منها تقيد المحاكاة ولاتقتدى بها اقتداء التابع للمتبوع .

واذا جمعنا وجوه النقد جملة واحدة أمكن أن نردها كلها الى وجهة نظر متناسقة وقوام شخصى مرسوم ، وقد يقع فيها الاستثناء حيث ينبغى ان يقع ، لأن التناسق الذى يجرى مجرى الاعمال الآلية على وتيرة واحدة لايوافق طبيعة الدعوات الحية المتقدمة ، ولاسيما الدعوات فى عصر الهدم والبناء والمراجعة والتثبيت .

هذه علامات « موضوعية » لها شأنها الاكبر فى الابانة عن شخصية السيد المسيح ، وأصدق تلك العلامات ، بعد هذا كله أن الدعوة جاءت فى ابانها وفاقا لمطالب زمانها ، بحيث تكون الغرابة ان يخلو الزمن من رسول يقوم بالدعوة ويصلح لأمانتها ، لا أن يوجد الرسول ونستغرب أن يكون ، ولو أن مؤلفا بعد ذلك العصر أراد أن يخلق رسولا يوافق رسالته المنشودة لوقف به الخيال دون التوفيق المطبوع

■ ■ ■



صــورة وصــفية

من أقدم الصور الوصفية التى حفظت للسيد المسيح صورة تداولها المسيحيون فى القرن الرابع وزعم رواتها انها كتبت بقلم ببليوس لنتيولس صديق بيلاطس حاكم الجليل من قبل الدولة الرومانية ، رفعها الى مجلس الشيوخ الرومانى فى عصر الميلاد ، وجاء فيها :

« انه فى هذا الزمن ظهر رجل له قوى خارقة يسمى يسوع ويدعوه تلاميذه بابن الله وكان للرجل سمت نبيل وقوام بين الاعتدال ، يفيض وجهه بالحنان والهيبة معا ، فيحبه من يراه ويخشاه . شعره كلون الخمر منسرح غير مصقول ، ولكنه فى جانب الأذن أجعد لماع ، وجبينه صلت ناعم ، وليس فى وجهه شية ، غير انه مشرب بنضرة متوردة ، وسيماه كلها صدق ورحمة ، وليس فى فمه ولا أنفه مايعاب ، وعيناه زرقاوان تلمعان . مخيف اذا لام أو أنب ، وديع مجبب اذا دعا وعلم ، لم يره أحد يضحك ، ورآه الكثيرون يبكى ، وهو طويل له يدان جميلتان مستقيمتان ، وكلامه متزن رصين لايميل الى الاطناب ، وملاحته فى مرآة تفوق المعهود فى أكثر الرجال »

الا أن هذه الرواية مشكوك فيها وفى اسنادها التاريخى ، ومثلها جميع الروايات التى تداولها الناس فى ذلك العصر أو بعده ، ومنها ما لايعقل ولا يظن به الا أنه مدسوس من اعداء المسيحية فى العصور الاولى ، كقول بعضهم انه كان قميئا أحدب دميم الصورة . فان الشريعة الموسوية كانت تشترط فى الكاهن سواء الخلق وسلامة الجسم من

العيوب ، ولاترسم لخدمة الدين من يعيبه نقص أو تشويه ، فمن غير المعقول أن يتصدى للرسالة من يعاب بالحدب والدمامة والقماءة معا ، وان يخلو الكلام المنسوب الى خصومه أو أنصاره من الاشارة الى ذلك في معرض المذمة أو معرض العجب ومداراة العيوب الجسدية بالمحاسن الروحية .

نعم ان الأنبياء في بني اسرائيل لم يكن لهم راسم يرشحهم للنبوة بشروط معلومة كشروط الكهانة ، ولكن اتصاف النبي بالدمامة والحدب لا يبقى في طي الكتمان مع التحدث عنه وعن المشوهين واصحاب الآفات الذين يبرئهم ويساقون اليه ليشفيهم من التشوه والآفة .

وليس في الاناجيل اشارة الى سمات السيد المسيح تصريحا او تلميحا يفهم من بين السطور ولكن يؤخذ من كلام نثتائيل حين رآه لاول مرة انه رائع المنظر ملكي الشارة . اذ قال له « انت ابن الله . انت ملك اسرائيل » . . واراد المسيح ان يفسر ذلك بأنه تحية يجيب بها الفتى على تحيته ، ولكنها على اية حال تحية لاتقال للاحدب ولا للدميم المشنوء .

غير اننا نفهم من اثر كلامه انه كان مأنوس الطلعة يتكلم فيوحي الثقة الى مستمعيه ، وذلك الذي قيل عنه غير مرة أنهم أخذتهم كلماته ، لانه « يتكلم بسلطان » وليس كما يتكلم الكتبة والكهان .

وقد كان ولا ريب فصيح اللسان سريع الخاطر ، يجمع الى قوة العارضة سرعة الاستشهاد بالحجج الكتابية التي يستند اليها في حديث الساعة كلما فوجيء باعتراض أو مكابرة ، وكانت له قدرة على وزن العبارة المرتجلة ، لان وصاياه مصوغة في قوالب من الكلام الذي لاينظم كنظم الشعر ولايرسل ارسالا على غير نسق ، ويغلب عليه ايقاع الفواصل وترديد اللوازم ورعاية الجرس في المقابلة بين الشطور .

وذوق الجمال باد في شعوره كما هو باد في تعبيره وتفكيره ، والتفاته الدائم الى الازهار والكروم والجنائن التي يكثر من التشبيه بها في

امثاله ، عنوان لما طبع عليه من ذوق الجمال والاعجاب بمحاسن الطبيعة وكثيرا ما كان يرتاد المروج والحدائق بتلاميذه ويتخذ من السفينة على البحيرة ـ بحيرة طبرية ـ منبرا يخطب منه المستمعين على شاطئها المعشوشب كانما يوقع كلامه على هزات السفينة وصفقات الموج وخفقات النسيم ، ولم يؤثر عنه انه الف المدينة والحاضرة كما كان يالف الخلاء الطلق حيث يقضي سويعات الضحى والاصيل او سهرات الربيع في مناجاة العوالم الابدية على قمم الجبال وتحت القبة الزرقاء .

وقد اطبقت روايات الاناجيل على انه كان عظيم الاثر في نفوس النساء ، يتبعنه حيث سار ويصغين اليه في محبة ووقار ، ومن عظماء الرجال من تتعلق بهم نظرات النساء كانهن ماسورات مسحورات ، ومنهم من تتعلق بهم نظرات النساء لانهم يلعجون افئدتهن بخوالج اللحم والدم ونزعات الغرائز والاهواء ، ولكن الرجل العظيم الذى يجتذب اليه قلوب النساء لانه يشيع فيها السكينة ويبسط عليها الطمانينة ويفعمها بحنان الطهر والقداسة ويريحها من وساوس الضعف والفتنة ، اعظم في نفوسهن اثرا من كل عظيم ، وهو الذى من اجله ينسين الجسد ويرتفعن بجبهن له فوق مناط الظنون .

لهذا لا نستغرب ان يقال ان قرينة بيلاطس كانت تحذر قرينها ان يمس ذلك الانسان الصالح ، وان تغلب محبة التقوى على محبة الدنيا في نفوس تبعته وهجرت زينة الحياة ، ومنهن الغوانى اللواتى تستدعيهن الحياة كل يوم بداع مطاع .

وقد وصف نفسه بانه « وديع متواضع الفؤاد » وقال ان الوداعة مفتاح السماء فلا يدخلها غير الودعاء ، وتمثلت الوداعة في كثير من اقواله وافعاله ، ومنها الرحمة بالخاطئين والعاثرين ، وهى الرحمة التى تبلغ الغاية حين تاتى من رسول مبرأ من الخطايا والعثرات .

الا ان هذا الرسول الوديع الرحيم كان يعرف الغضب حيث تضيع الوداعة والرحمة ، وكانت شيمته في رسالته شيمة الرسل جميعا حين

تعلو عندهم اواصر الروح على اواصر اللحم والدم ، وتقدم حقوق الهداية على حقوق الآباء والامهات . . « من هى امي ومن هم اخوتي ؟ . . من يصنع مشيئة ابي الذى في السموات هو اخي واختي وامي » . . « من ليس معي فهو على ومن لايجمع معي فهو يفرق » . . « وان كان احد يأتي الى ولا يبغض أباه وأمه وأمرأته وأولاده وأخوته ، حتى نفسه ، فما هو بقادر أن يكون لى تلميذا » .

وهذه واشباهها من الشروط الصارمة التى كان يفرضها على مريدية هي الشروط التى لاغنى عنها لكل دعوة مستبسلة امام السيطرة والجبروت ، ومهما يكن فيها من اساليب المجاز والكناية فالقول الصراح الذى لاخلاف عليه ان ألتجرد من اواصر المنافع والشهوات أول الآداب التى يتأدب بها الجنود في كل ملحمة : جنود الحرب في ميادين الصراع على فتوح الحكم والسياسة ، فما بالنا بجنود الحرب في فتوح الروح ومطالب الكمال .

ولقد كان عليه السلام يأمرهم ان يقدموا على المخاطر في سبيل الحق والهداية ، ولكنه كان يقيم لهم حدود المخاطرة حيث يجب الاقدام على الموت وجوبا لامثنوية فيه ، فالخطر على الروح أولى بالاتقاء من الخطر على الجسد . وهان موت الجسد اذا كان موت الروح في الحسبان ، فان لم يكن خطر على الجسد ولا على الروح فلا خير في المخاطرة . . وكونوا بسطاء كالحمائم وحكماء كالحيات .

وفي انجيل مرقس ان السيد المسيح نجا بنفسه الى جانب البحر حين علم ان الفريسيين والهيروديين يأتمرون به لاهلاكه وفي سائر الاناجيل انه كان يشكو حزنه وبثه حين احدق به الخطر ، وانه كان يدعو الله ان يجنبه الكأس التى هو وشيك أن يتجرعها ، وانه كان يقول لتلاميذه : « نفسي جد حزينة . . امكثوا ها هنا واسهروا معي » . . وانه كان يعتب عليهم حين يراهم نياما على مقربة منه وهو يعاني برحاءه واشجانه ويقول لهم : ما قدرتم ان تسهروا مع ساعة واحدة ؟ . . ثم

قال لهم آخر الامر وقد حم القضاء الآن ناموا واستريحوا !

فليس الاقدام على الجهاد ان تتجرد النفس من طبيعتها فى وجه المخاوف والمتالف ، وليس محظورا على النفس فى سبيل ذلك الجهاد ان تاخذ بالحيطة وتلوذ بمن تحب وتستمد العون من عواطف المحبين ، وانما المحظور عليها ان تخشى الخطر على الجسد حيث تجب الخشية على الروح ، وفى غير ذلك لاخشيه ولا مخاطرة ولا ملام .

ومن تحصيل الحاصل ان يقال ان السيد المسيح خلق على فطرة امثاله من اصحاب الرسالات الكبرى الذين لا ينقطعون لحظة عن الرياضة الروحية ، وهذه الرياضة الروحية هى التى تجعلهم منذ صباهم عرضة للقلق والتنقيب فى أعماق ضمائرهم لعلهم يعرفون مداهم من الاقتراب والابتعاد عن طريقهم الى الله . فهم يشرفون على النور حينا ويحتجبون عنه حينا ويعودون الى طواياهم فى كل حين يحاسبونها على اشراقه أو احتجابه ، ويستبشرون تارة لانهم يلمحون معالم الطريق ، وينحون على انفسهم باللائمة تارة لانهم يتهمونها بالزيغ عن الجادة والانحراف عن السواء ، وفيما بين هذا القلق وتلك البشارة تنمو النفس على الرياضة وتتهيأ للثبات والاستقرار وتتخذ العدة لليقين والايمان .

لاريب ان هذه الرياضة هى التى عناها كتاب الاناجيل بفترة التجربة فى البرية حيث تعيش الشياطين ، وما للشياطين هنا من وساوس غير وساوس القلق وصراع الفتنة وغواية الطمع بين الاقدام والاحجام ، حيث تطمئن النفس ساعة ثم تمتحن هذه الطمأنينة بالتجربة ساعة اخرى . ثم تعاف التجربة لانها تسليم بالنشك حيث ينبغى التسليم بالثقة رسالة الله حقيقة بكل فداء وأهل لكل ثمن وكل جزاء ، ولكن من لك ايها الضمير ، انك انت المختار لرسالة الله ؟ أو تطلب البرهان ؟ فمن اين لك ان تجمع بين طلب البرهان وبين صدق الايمان .

وقد تغلب المسيح على هذه المحنة كما تغلب عليها الانبياء المرسلون بعد قلق وجهاد وصبر اليم . ونحسبه بعد ذلك كان يعالج القلق من هذا

القبيل بالتسليم للواقع ، وكان يستلهم الحوادث ارادة الغيب حين تحتجب عنه هذه الارادة فيترك الحوادث تمضى وتمضى معها وينتظر ماتحكم به المقادير ، وفى هذه المواقف يخفى فى اعماق طويته أن يطلب البرهان الالهى لانه لا يريد ان يجرب الهه ، ويخيفه أن يحجم ويتهم ضميره بالاحجام مخافة العواقب ، فذاك مسعاه الى بيت المقدس فى اخريات رسالته مرتين : مرة وهو يدخلها بين الترحيب والتهليل ، ومرة وهو يدخلها بين النذر والشباك وخيانة الاصحاب ودسيسة الاعداء .

كانت هذه الخطوات من خطوات التسليم الذى ينطوى فيه حب الاستلهام والاستطلاع خير من طلب البرهان وخير من النكوص مالم يكن هناك برهان ، وما قال قائل فى أمثال تلك المواقف ! ليفعل الله مايشاء ، الا وهو يترك للمقادير أن تظهر من مجرى الحوادث حيث تجرى بها مشيئة الله .

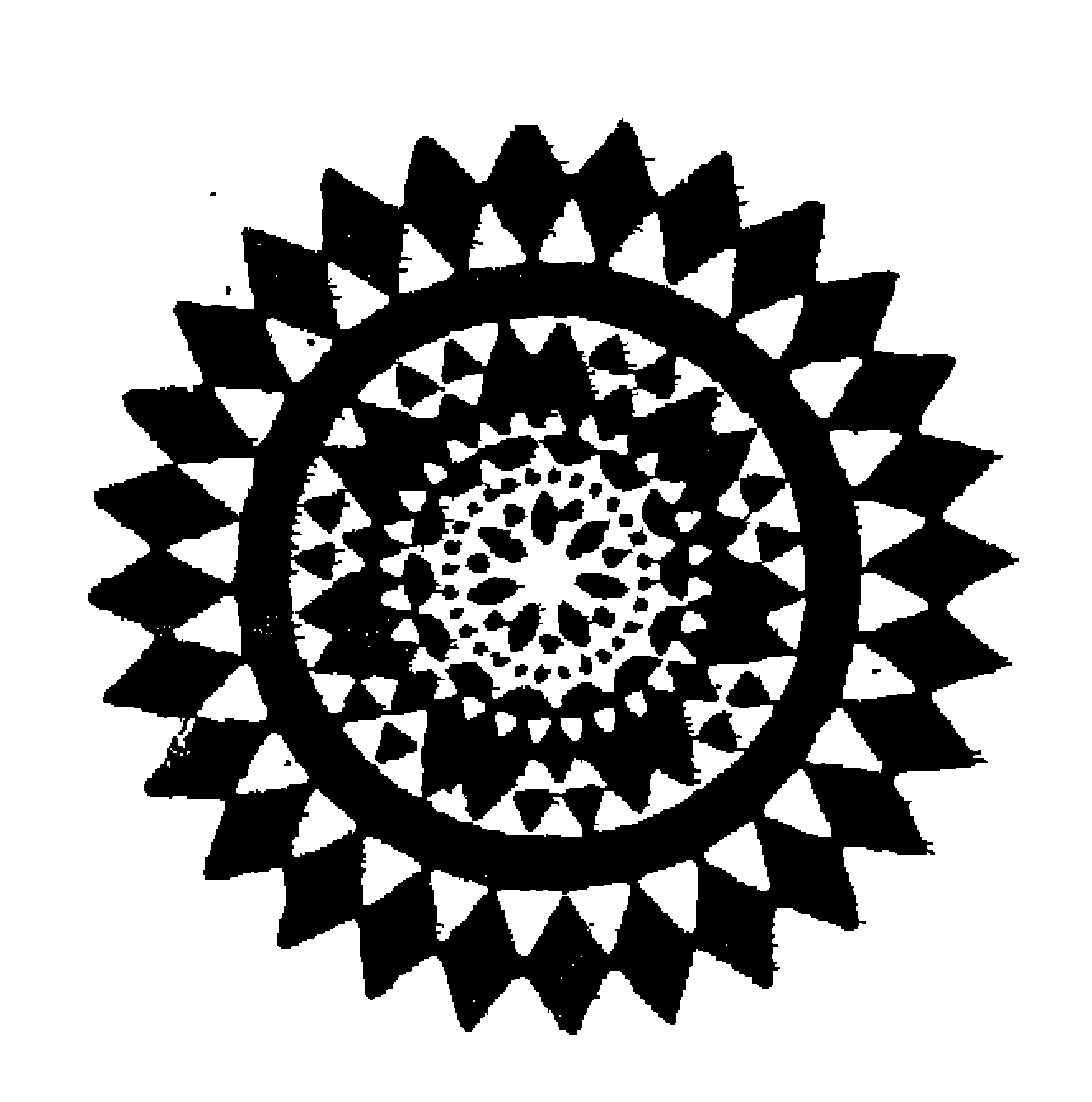
فى لحظات كهذه اللحظات يغوص الانسان كله فى أعماق ضميره ، ولعل لحظة من تلك اللحظات هى التى قال فيها الناظرون اليه : انه غائب عن نفسه ، او هى التى صمت فيها لايحير جوابا لانه هو يترقب جواب الغيب المنظور مما عسى ان يكون عما قريب ، او هى التى اقدم فيها لايبالى بسلامته وعاقبة أمره ، ولم يكن فكره قاصرا عن استطلاع العواقب جميعا فى موقف من تلك المواقف الحاسمة ، ولكن المشكلة الكبرى كلها فى استطلاع العواقب ، فهل تراه لا يقدم على العواقب الا بضمان من البرهان ؟

ان اعمال اصحاب الرسالات لاتفهم على حقيقتها مالم تفهم معها هذه القاعدة الاساسية فى طبيعة الرسل ، وهى ان الشك اخوف ما يخافونه ، وان استبقاء الايمان غاية ما يبتغونه ، وكثيرا ما يقدمون على جسام الامور لان التسليم اقرب الى الايمان ، ولان الاحجام شك او انتظار برهان ، والشك وانتظار البرهان يستويان فى بعض الاحيان .

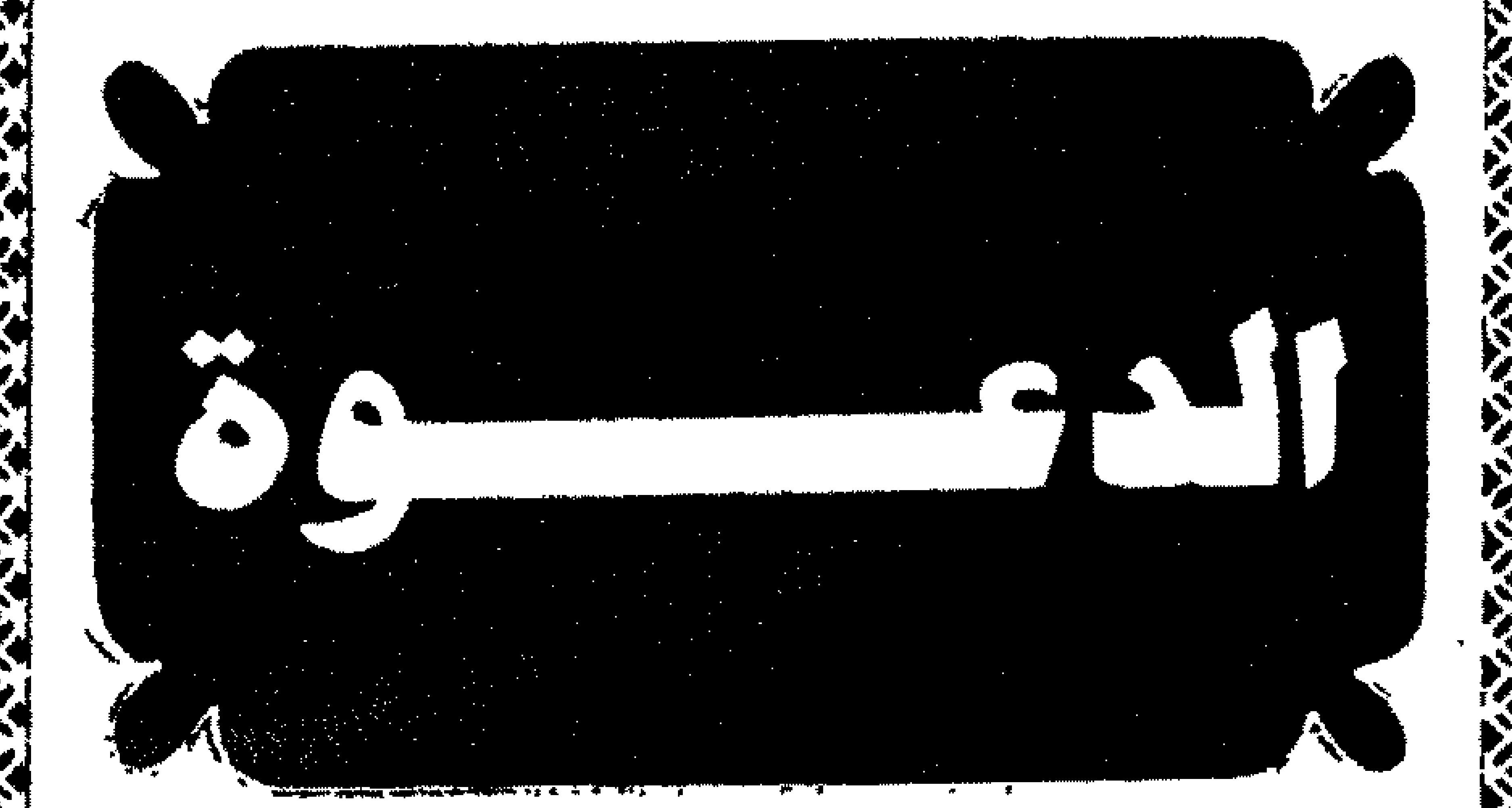
. وقد تواترت الروايات على ان السيد المسيح كان يبتهل الى الله فى اخريات رسالته قائلا : « اللهم جنبنى هذه الكاس ، لكن كما تريد انت لا كما اريد »

وفى هذا الابتهال مفتاح كل عمل اقدم عليه بعد ذلك ، او اقدم عليه فى مثل هذا الموقف فانه لم يتجنب الكاس كما يريد بل ترك لله ان يجنبه اياها كما اراد ، وموضع الشبهة فى نفسه الشريفة أن السلامة هى مايريده ، وان النكول هو طريقه الى اجتناب الكاس ، فليكن مسيره اذن فى غير هذه الطريقه ، وليكن التسليم هو طريقه الايمان .

■ ■ ■



• الباب الثانى •



الدعـــوة

- اختيار القبلة
- تجارب الدعوة
- الشريعة
- شريعة الحب
- آداب حياة
- ملكوت السموات

تواريخ الأديان جميعا تثبت الحقيقة الواضحة التى لا مغزى لكتابة التواريخ مع الشك فيها ، ونعنى بالحقيقة الواضحة أطراد السنن الكونية فى الحوادث الانسانية الكبرى ، فلا يحدث طور من اطوار الدين أو الدنيا إلا سبقته مقدماته التى تمهد لحدوثه ، وجاء سريانه فى العالم على وفاق لوازمه ودواعيه .

وليست المسيحية شذوذا عن هذه القاعدة ، بل هى من أقوى الظواهر التى تؤيدها وتسرى فى مسراها ، وسنرى بعد الاحاطة بالفصول السابقة والفصول التالية أن الصلة لم تنقطع كل الانقطاع بين العصرين ، وأن العصر القديم كان يلتفت بنظره شيئا فشيئا إلى وجه العصر الجديد ، وسنرى غير مرة فى هذا الكتاب أن الدعوى المسيحية جاءت فى إبانها وفاقا لمطالب زمانها .

وليس أقرب إلى جلاء هذه الحقيقة من تلخيص صورة العصر كله فى كلمات معدودات نحصر بها آفاته البارزة ونهتدى بهذه الآفات إلى علاجها الموكول إلى العقيدة .

فما هى آفة العصر التى برزت فى التاريخ وارتفقت عليها أوصاف المؤرخين الذين توقعوا الانقلاب فيه من طريق الدين أو من غير طريق الدين ؟

كانت له آفتان بارزتان : إحداهما تحجر الأشكال والأوضاع فى الدين والاجتماع ، والأخرى سوء العلاقة بين الأمم والطوائف مع اضطرارها إلى المعيشة المشتركة فى بقعة واحدة من العالم المعمور ، وعلى الخصوص تلك الأقاليم التى نسميها اليوم بالشرق الأدنى .

تحجرت الأشكال والأوضاع وغلبت المظاهر على كل شىء ، وتهافت الناس على حياة القشور دون حياة اللباب ، فكل معانى الحياة عندهم سمت وزينة وأبهة ومحافل وشارات ، وانتقلت الحضارة من الداخل الى الخارج أو من النفس الى الجسد ، كما يحدث دائما فى أعقاب الحضارات ، تبدأ فى عالم الفكر والوجدان ثم تستفيض العمارة فتميل الى التجسم والتضخم وتفقد من قوة النفس والضمير بمقدار ما تكسب من مظاهر المادة والمال .

تجمعت الثروة والكسل فى ناحية وتجمعت الفاقة والجهد المرهق فى ناحية أخرى . فغرق السادة فى الترف ، وغرق العبيد والارقاء فى الشقاء ، وفسدت حياة هؤلاء وهؤلاء .

وتحجر نظام المجتمع فأصبح أشكالا ومراسم خلوا من المعنى والغاية ، وتحجرت معه الشرائع والقوانين ، فلم يكن غريبا أن تنقش على حجارة وأن يرتفع ميزانها فى يدى عدالة معصوبة العينين ، وأن تفرغ الكفتان فتستويان لأنهما فارغتان !

وتحجرت العقائد الوثنية فى الدولة الرومانية وتحجرت العقائد الكتابية بين اسرائيل فأصبح فرق الشعرة بين النصين يقيم الحرب الحامية على قدم وساق ، وأصبحت التقوى علما بالنصوص وبحثا عن مراسم الشريعة ، وغلب « المظهر » على المتشيثين بالنصوص والمتصرفين فيها ، فلا خلاف بينهم فى طلب المظهر وإن اختلفوا على اللفظ والتأويل .

أشكال وقشور ، ولا جوهر هناك ولا لباب .

وساءت العلاقة بين الأمة والأمة وبين الطائفة والطائفة ، وبلغ الحس بسوئها غايته ، لأن الذين يعانون من سوئها يعيشون فى نطاق واحد ويخضعون لحكم واحد ، فلا فكاك منه بحال .

دنيا أفتها مظاهر الترف ومظاهر العقيدة ، ومن وراء ذلك باطن هواء ، وضمير خواء ، فلا جرم يكون خلاصها فى عقيدة لا تؤمن بشىء

كما تؤمن ببساطة الضمير ، ولا تعرض عن شيء كما تعرض عن المظاهر ، ولا تضيق بخلاف كما تضيق بالخلاف على النصوص والحروف وفوارق الشعرة بين هذا التأويل وذلك التحليل .

عقيدة قوامها أن الانسان خاسر اذا ملك العالم بأسره وفقد نفسه ، وأن ملكوت السماء فى الضمير وليس فى القصور والعروش ، وأن المرء بما يضمره ويفكر فيه وليس بما يأكله وما يشربه وما يلبسه وما يقيمه من صروح المعابد والمحاريب .

هل كانت للدنيا آفة المظاهرة والتناحر على المظاهرة ؟

وهل كان لتلك الآفة خلاص غير ذلك الخلاص ؟

وهل كانت المسيحية إلا العقيدة التى تدعو الى خلاصها من حيث يرجى وهيهات لها فى غير خلاص ؟

وتقطعت الأسباب بين الأمم وبين الطوائف وبين الآحاد ، واتسم العصر كله بالعصبية فى السائد والمسود والحاكم والمحكوم الرومانى سيد العالم بحقه ، والاسرائيلى سيد العالم بحق الهه ، واليونانى والأسيوى والمصرى كل منهم سيد الأمم وكل منهم مثال الهمجية ، والمولى يخرج العبد من زمرة الآدميين ، والعبد يمقت السيد مقت الموت او يفضل الموت على الرق الذى يجمع عليه بين الذل والألم والجوع ، وأبناء الأمة الواحدة طوائف تشيع بينها التهم وتمها البغضاء .

ويأتى إلى هؤلاء البشير المنظور فماذا يقول لهم أن لم يقل لهم أن الله رب بنى الانسان وأنه هو ابن الانسان ، وأن الحب أفضل الفضائل وأفضل الحب حب الاعداء ، وأن الكرم أن تعطى من يسألك وأكرمه أن تعطى فوق ماتسأل وأن تعطى بغير سؤال ، وأن ملكوت السماوات لا تفتحه الأموال ، وأن ما لقيصر لقيصر وما لله لله وأن المجد الذى يتنازع طلابه لا يستحق أن يطلب ، وان المجد الذى يستحق أن يطلب لا موضع فيه لنزاع .

ولم يأت هذا البشير فضولا على غير انتظار : أبناء قومه موعودون به في ذلك الزمن ، وأبناء الأقوام ينتظرون شيئا لا يعرفه ولكنهم يعرفون ان زمانهم لا يطاق ، وأن حالهم لا بد لها من تحويل .

أفلست العبادات ، وجاء أحد المعبودين ـ قيصر رومه ـ فأحرق الأسفار والنبوءات ، ولم يبق منها إلا ماهو أقرب الى الفن في محراب ابولون اله الفنون .

أما العبادة التي لم تفلس فقد كان رأسمالها كله نسيئة منتظرة . . وهذه علامة السداد يستبشر بها المصدق ولا يمجدها المنكر ، وانما هو خلاف على العلامات ، وعلى مصداقها من العيان والسماع ولقد كانت الدعوة طباق الزمن وقد بدأت في أوانها لم تتقدم ولم تتأخر ، وكفى بذلك برهانا على موقعها الصحيح من التاريخ ، فقد كان بلاء الناس أنهم خربوا باطنهم وعمروا ظاهرهم ، فجاءهم الرجاء الذى يصلح لذلك البلاء : بشارة لا تبالى أن يخرب ظاهر الدنيا كله إذا سلم للانسان باطن الضمير .

وهذه هي دعوة السيد المسيح كما ساقها الغيب وترقبها العالم الذى سيقت اليه ، ولو لم تكن هي طلبته يومئذ لما استولت عليه قبل أن تنقضي عليها أربعة قرون .

وقد لقيت الدعوة أشد ما يلقاه دين من مقاومة . . فلا يفهم من هذا أنها شاعت في العالم الانسانى على الرغم منه أو على غير حاجة منه اليها ، فانما الدين المطلوب هو الدين الذى تعلو أسباب قبوله على أسباب رفضه، وليس هو الذى يقبله الناس جميعا طائعين مستسلمين كأنه غني عمن يدعو اليه ، وما من دعوة قط تستغني عن مبدأ الأمر عن الدعاة .

ولقد تصدى رسول الاخاء والسلام لدعوته وهو يعلم أنها أخطر الدعوات وأنها أخطر جدا من دعوة البغضاء والقسوة ، لأن الذى يدعو الى الأخاء يدعو الى اقتلاع جذور البغضاء ، والذى يدعو الى السلام

يدعو الى تحطيم سلاح الأقوياء ، وليس اقتلاع جذور البغضاء بالأمر الهين وليس تحطيم سلاح الأقوياء علالة حالم وليس السبيل الى ذلك سبيل الرضى والوفاق .

ولهذا كان يقول « جئت لألقى على الأرض نارا فحبذا لو تضطرم » . . وكان يسأل تلاميذه وسامعيه : « أتحسبونني أتيت لأمنح الأرض سلاما ؟ » ثم يبادر فيقول : كلا ! وانما هو الصدام والانقسام خسمة فى البيت ينقسم ثلاثة منهم على اثنين ، واثنان على ثلاثة : ينقسم الأب على ابنه والابن على ابيه ، وتنقسم الأم على بنتها والبنت على أمها ، وتنقسم الحماة على الكنة والكنة على الحماة » .

ولقد كان كلام كهذا يقال على ألسنة بنى اسائيل كما قال ميخا « ما فى الناس من مستقيم . كلهم يكمن للدماء وينصب الشباك . . لا تأتمنوا صاحبا . لا تثقوا بصديق وأوصد فمك عن تلك التى تضطجع فى حضنك ، ان الابن بأبيه مستهين ، وأن البنت على أمها ثائرة . . والكنة الحماة ، وللانسان من أهل بيته أعداء ولكن هذه الأقوال وما شاكلها كانت وصفا لما هو حادث ولم تكن نبوءة عما سيحدث من الشر فى سبيل الخير ، ومن البغضاء فى سبيل الاخاء ، ومن الحرب سعيا الى السلام .

وقد صحت نبوءة الرسول فى بنى قومه فناصبوه العداء لأنه يبسط الدعوة الى الاخاء يعم بها « طيور السماء » وهم رمز للطراق فى جميع الارجاء .

ومن الواضح أنه كان يؤثر قومه بالخير لو استمعوا اليه واتبعوه ، ولكنهم مدعوون الى وليمة يرفضونها فمن حضرها بغير دعوة فهو أولى بها ، وكذلك ضرب لهم المثل بوليمة العرس وقد أرسل الداعى عبده فى طلب ضيوفه « فقال هذا انى اشتريت حقلا وعلى أن أخرج فأنظره ، . . وقال ذاك : أنى اشتريت أزواجا من البقر وسأمضى لاجربها . . فغضب السيد وقال لعبده : أذهب عجلا الى طرقات المدينة وأزقتها وهات الى من تراه من المساكين . . فعاد العبد وقال لسيده : قد فعلت كما أمرت

ولا يزال فى الرحبة مكان . قال السيد : فادع غيرهم من اعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلىء بيتى فلن يذوق عشائى أحد من أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء .

ويمكن أن يقال فى وصف تلك الدعوة العامة كثير لا يحصى على حسب النظرة التى ينظر بها القارىء الى كلام المسيح فى الأناجيل .

يمكن أن يقال انها دعوة الى حين ينتهى وشيكا بانتهاء العالم كله فى امد قريب ، ويمكن أن يقال أنها دعوة ملكوت يدوم ولا يعرف له انتهاء .

ولكننا على التحقيق نطابق جوهرها كله اذا وصفناها بأنها « تغيير وجهة » وافتتاح قبلة ، ولاسبيل الى الجمع بين الوجهتين ولا الى التردد بين القبلتين ، فلن يخدم أحد سيدين . .

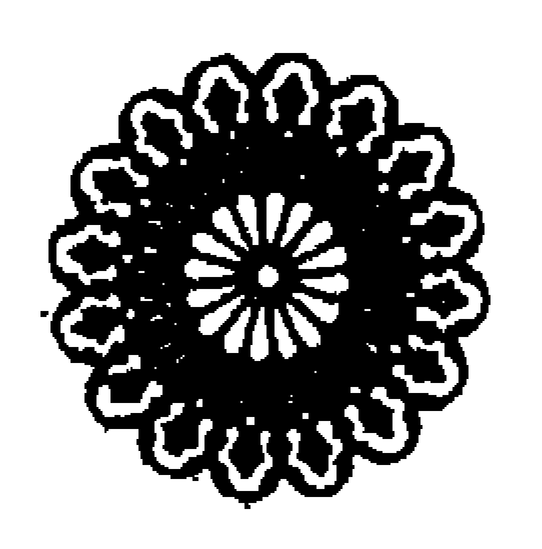
قبلة الروح أو قبلة الجسد

قبلة الله أو قبلة « مامون (١) اله المادة والمال

معبد الضمير أو معبد الصخر والخشب

هنا أو هناك . .

فالمهم هو الاتجاه أين يكون ، والى أى أمد يدوم ، وكل ما يلى ذلك من تفصيل فهو خطوات الطريق تتسع أو تضيق وتسرع أو تتريث متى استقبل السالك قبلته وأدار ظهره لما وراءه ، ولا بد من المفترق الحاسم بين القبلتين ، ولا بد من خيرة بين السيدين !



---

(١) كلمة ارامية ترمز إلى المطامع الدنيوية والشهوات الجسدية ، وتطلق الآن فى اللغات الاوروبية على آله المادة والمال .

إختيــار القبـلة

كان الموقف ـ كما قدمنا ـ على مفترق الطريق ، وكان على السالك أن يختار وجهته وقبلته ، ويحسب لها كل حسابها ، فيأخذها بكل مالها وما عليها أو يرفضها بكل ما لها وما عليها ، ويجمع قلبه كله فى خدمة الرب الذى يعبده ، فليس فى مقدوره أن يعبد ربين وأن يدين بالخدمة والاخلاص لسيدين .

وعلى هذا الوجه وحده تفهم الدعوة المسيحية على جليتها ، ويزول اللبس عنها ، بل يزول عنها ما يبدو عليها من النقائض والاضداد ، لأنها عند تصحيح الاتجاه تعتدل على طريق مستقيم اذا كان الجيل مقبلا على محراب « مأمون » بقلبه وقباله ، فالوجهة الأخرى على الطرق الآخر من هذا المحراب .

إن عباد « مامون » غارقون فى هموم الحطام ، لا يفرغون لحظة لغير الشهوة والطعام ، فالذى يستدبر هذه القبلة فلتكن قبلته حيث لا ظل لذلك المحراب ولا أنقاض لأركانه وأوثانه ، وحيث المطلوب كله هم الروح والضمير وحيث المنبوذ كله هم المادة والجثمان .

أو كما قال لهم الرسول البشير : الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس . . وزنابق الحقل تنمو ولا تتعب ولا تغزل ، وسليمان فى كل مجده لا يلبس كما تلبس واحدة منها ، فاذا كان العشب الذى يقوم اليوم فى الحقل ويطرح غدا فى التنور يلبسه الله فما أحراكم أن يلبسكم يا قليلى الايمان . . »

نعم . واذا تهالكت أمم العالم على الطعام والشراب وقلق العيش فاطلبوا أنتم ما هو أفضل وأبقى . . اطلبوا كنوزا لا تنفد فى سماواتها

حيث لا تنالها يد السارق ولا يبليها السوس من استدبر قبلة مامون فهذه هى القبلة التى يتجه اليها ، وهذه هى غايتها القصوى ، وإن لم تكن هى كل خطوة فى الطريق وعلى هذا الوجه يفهم السامع رسول الرحمة حيث يقول :

« ما هو بقادر أن يكون لى تلميذا من لا يقدر على أن يبغض أباه وأمه وامرأته وبنيه وأخوته ، بل يبغض نفسه .

« وماهو بقادر أن يكون لى تلميذا من لا يقدر على أن يحمل صليبه ويتبعنى فى طريقى »

قائل هذا هو القائل :

« أيها السامعون : أحبوا أعداءكم ، احسنوا إلى مبغضيكم ، باركوا لا عنيكم ، ادعوا لمن يسيئون اليكم ، من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر ، ومن أخذ رداءك فامنحه ثوبك ، وكل من سألك فاعطه ، ومن أخذ مافى يدك فلا تطالبه ، وما تريدون أن يصنعه الناس لكم فاصنعوه لهم انتم ، وأى فضل لكم أن أحببتم الذين يحبونكم ؟ أن الخطاة ليحبون من يحبهم . . وأى فضل لكم أن أقرضتم من يردون قرضكم ؟ إن الخطاة ليقرضون من يقارضهم . . بل تحبون أعداءكم وتحسنون وانتم لا ترجون أجركم . . . »

وقائل هذا هو القائل :

« إن اخطأ أخوك فوبخه . وإن تاب فاغفر له ، وان أخطأ اليك سبع مرات وتاب اليك سبع مرات فتقبل منه توبته »

وهذا نقيض ذاك

هذه الرحمة التى تعم الأعداء والأحباب نقيض البغضاء التى تشمل بها أحب الناس الى الناس : الآباء والامهات والابناء وذوى الرحم والقربى .

انهما تتناقضان غاية التناقض إلا على وجه واحد ، وهو توجيه النظر الى قبلة غير القبلة ووجهة غير الوجهة ، وغاية قصوى غير تلك الغاية القصوى التى تستدبرها .

واذا افترقت الطريقان ووجب عليك أن تمضى هنا أو هناك ، فلا جناح عليك أن تمضى حيث سددت خطاك ولو كرهت نفسك وحملت صليبك وانقطعت عن ذويك .

وما من أحد يأبى أن يحب ذويه وأن يحبه ذووه اذا ساروا حيث سار واستقاموا معه حيث استقام ، فليس عن هذا يجرى الحديث ولا فى هذا موضع للنصيحة والتفضيل ، وانما يجرى الحديث ويستمع النصح حيث يتعارض الطريقان ويتناقضان .

انما يجرى الحديث ويستمع النصح حيث تتقا ' القبلتان ، وحيث تمضى هنا مع الله وتمضى هناك مع مامون .

ولا تناقض فى هذا المفترق بين نصيحة من تلك النصائح أو آية من تلك الآيات ، فكلها على نهج واحد من أول الطريق الى غايته ، ولهذه الغاية القصوى ينبغى أن يتحول من ييممها بخطاه وآثرها بهواه . .

وفى مثل من الامثلة التى تعمر بها أقوال السيد المسيح عبر لهم عن الموقف كله بأن يحسبوا النفقة كلها قبل بناء حجرة فى البرج الشامخ .

« من منكم - وهو يريد أن يبنى برجا - لا يجلس ليحسب نفقته ويعلم هل لديه ما يلزم لكماله ؟ »

فهذا حساب التكاليف جميعا قبل وضع الحجر الأول فى أساس البناء والا فلا حجرة ولا أساس ولا برج هناك ، وخير لمن تخذله القدرة وتعوزه النفقة أن يترك الأرض والحجر والبناء .

فمن نظر الى الأرض فرأى شعابا تتقاطع ومفارق تختلف فليرفع نظره من تلك الشعاب ولينظر الى الأفق الذى تنص اليه الركاب ، فهنالك القبلة التى يتلاقى عندها ما تشعب ، وينتهى اليها ما أعوج أو استقام من الدروب .

ولقد كان المستمعون الى السيد المسيح ، وأولهم تلاميذه وأتباعه يعجبّون منه لأمرين : ترحيبه بالأطفال الصغار وخطابه للمنبوذين المحقرين ، فانتهرهم حين رآهم يبعدّون عنه أطفال القرى وقال لهم :

« دعوا الأطفال يأتوا الى ولا تمنعوهم . . فمن لم يقبل على ملكوت الله طفلا فلن يدخل اليه »

وقال لقوم أيقنوا انهم أبرار واحتقروا المشهورين بالذنوب : « صعد اثنان الى الهيكل يصليان ، فريسى وعشار . .

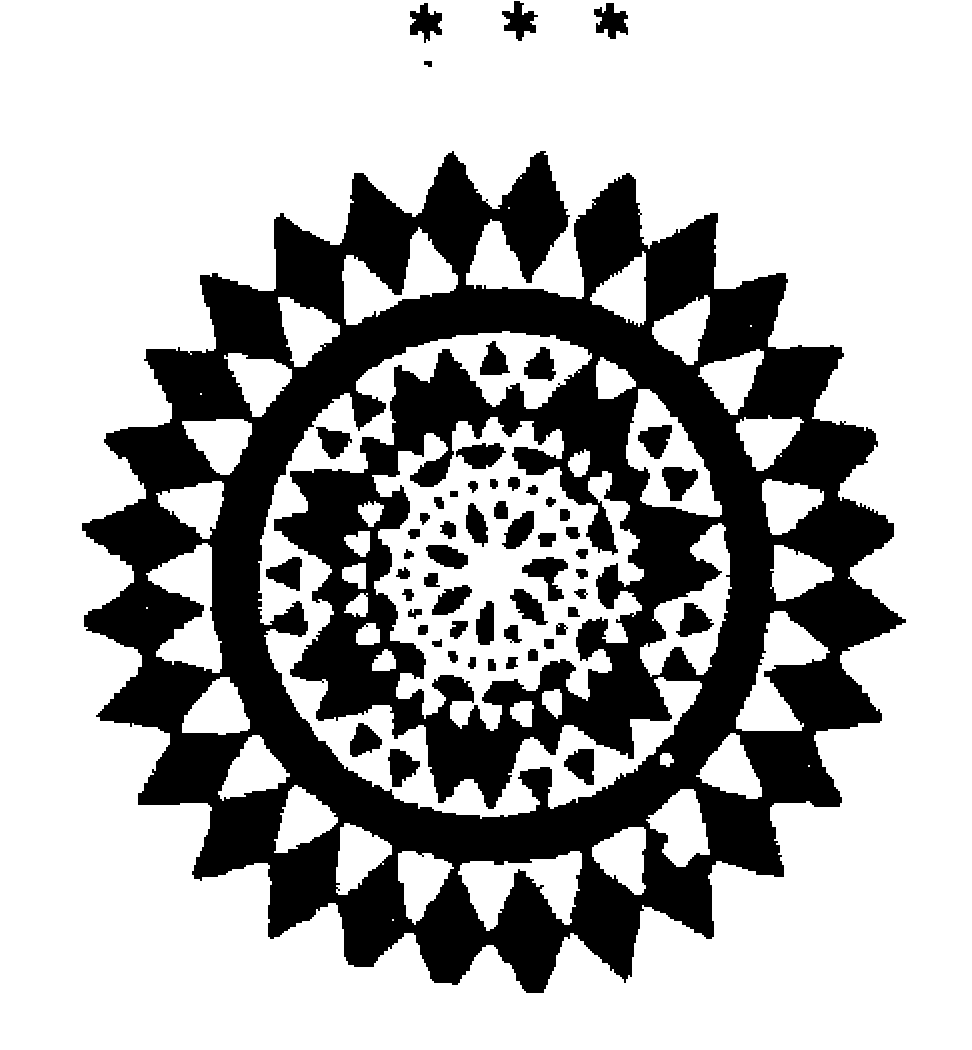
« فاما الفريسى فراح يقول فى صلاته : حمدا لك يا إلهى ! انني لست كسائر هؤلاء الخاطفين الظالمين الزناة ، ولا كمثل ذلك العشار ، أصوم فى اليوم مرتين وأؤدى حق العشر عن كل ما اقتنيه .

« وأما العشار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه الى السماء وقرع صدره وابتهل الى الله : ارحمنى يا الهى أنا الخاطىء . .فهبطا الى بيتيهما هذا مستجاب وذلك غير مبرور »

وتكررت هذه الأمثلة فتكرر معها العجب من المستمعين اليه من آمن به وأحبه ومن كفر به وحنق عليه ، ولو أنهم اذ كانوا يعجبون ذلك العجب قد عرفوا رسالته واستقبلوا قبلته لما أنكروا عليه أن يشخص ببصره الى بعيد ، وأن يزّهد فى يومه ثم يمتد بالرجاء الى غده ، فانما فى الغد يوم أولئك الأطفال المرتقب ، وانما يرجى لتبديل الحال من لا يعنيه من الحاضر إلا أن يزول .

وجماع القول أن الدعوة الجديدة ، كانت ككل دعوة جديدة عربية مناقضة لما حولها ، ولكنها تنفض عنها كل غرائبها ونقائضها اذا نظرنا الى القبلة التى تستقبلها فهنالك تلتقى الشعاب ويحسن المآب . .

* * *



تجارب الدعوة

استوفت الدعوة تجربتها فى فترة قصيرة لم تطل أكثر من ثلاث سنوات، ولكنها كانت كافية . لأنها كانت فى الواقع تجربتين ودعوتين ، قام بهما رسولان مختلفان فى الطبيعة والطريقة :

وهما يوحنا المعمدان (يحيى المغتسل) وعيسى ابن مريم .

كان يوحنا المعمدان مثال الناسك الصارم الذى لا يحابى ولا يتردد، ينذر كثيرا ويبشر قليلا ، ويضع الفأس على أصل الشجرة ، ولا يبالى أن يلقى بها حطبا فى الأتون .

ولد لشيخين كبرين بعد يأس ، كلاهما من سلالة الكهانة أبناء هارون : وهما زكريا واليصابات .

وفى انجيل لوقا شرح لقصة هذا المولد فى شيخوخة الأب والأم جاء فيه أن زكريا كان يتولى الخدمة الدينية فى نوبته فأصابته القرعة لدخول الهيكل واطلاق البخور ، فطال مكثه فى المحراب وجمهور المصلين يترقب ويتعجب ، حتى عاد اليهم صامتا لا يتكلم فعلموا أنه قد حلت به الرؤيا داخل المحراب ، ثم روى أنه بصر على يمين المذبح بملك واقف فاضطرب وعرته رجفة فقال له الملك : لا تخف يازكريا . إن الله قد أجاب سؤلك وستلد أمرأتك ولدا وتسميه يوحنا وتفرح به ويفرح به كثيرون ، لأنه يولد من بطن أمه ممتلئا بالروح القدسى ويرد بنى اسرائيل الى الههم ، ويتقدم بروح ايليا « الياس وقوته . . » .

وقد ذكرت قصة زكريا فى سورة آل عمران من القرآن الكريم :

﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أنَّ الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين قال رب أنّى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ، قال كذلك الله يفعل ما يشاء . قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألاَّ تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا ، واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والابكار ﴾ .

وذكرت فى سورة مريم :

﴿ ذِكْرُ رحمة ربك عبده زكريا ، إذ نادى ربه نداء خفيا ، قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا ، وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا ، يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا . يازكريا أنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا . قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا . قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا . قال رب اجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ، فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أنْ سبحوا بكرة وعشيا ، يا يحيى

خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا ، وحنانا من لدنا وزكاة ، وكان تقيا ، وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا ﴾

وقد نشأ الطفل منذورا للبتولة وذلك معنى وصفه فى القرآن الكريم بالحصور ، وكان عليما بالكتب الدينية ، يسمعها من أبويه ويتلوها فى خلواته ، وكان كثير العزلة شديدا على نفسه فى تهجده ونسكه ، فلما ظهر بالدعوة رآه الناس فى ثوب خشن من الوبر يلف حقويه بمنطقة من الجلد ، يصوم أكثر الأيام ويقتات من الجراد العسل البرى ويهيب بالناس فى صوت قوى صارم : توبوا واستعدوا . قد وضعت الفأس فى رأس الشجرة وكل شجرة لا تأتى بثمر جد تقطع وتلقى فى النار : صوت صارخ فى البرية كما قال الأنبياء الأقدمون .

ولم يكن يتقى حرجا فى كلامة عن ذى خطيئة أو دنس ، فراح ينحى بهذا الصوت القوى الصراح على الملك هيرود لأنه تزوج من هيرودية أخته وزوجها لا يزال بقيد الحياة ، فلما اعتقله الملك وجىء به الى حضرته لم يسكت ولم يكف عن التنديد به وبأخته وأمره بتطليقها فرارا من غضب الله .

وفى سهرة من سهرات اللهو التى تعود هيرود أن يحييها فى قصره ، رقصت بنت أخته (سلامه) بين يديه فاستخفه الطرب ووعد أن يعطيها سؤلها كائنا ماكان ، فلم تسأله شيئا غير رأس يوحنا فى طبق ، وأصرت على طلبها فأعطاها ما سألت وهو كاره ، ونجا بفعلته لأن يوحنا كان شديد اللسان على الكهان والفقهاء ، فتقبلوا تلك الجريمة بغير تشهير أو اعتراض .

وقد تنكر الكهان والفقهاء للرسول الثائر قبل أن يتنكر لهم ، كما يفعل الدينيون « المحترفون » عادة بالوعاظ الذين لا ينتسبون اليهم

ولا يعيشون فى زمرتهم ، فكان يوحنا يصيح بهم « يا أولاد الأفاعى . . لا يهجسن باخلادكم انكم تنتسبون الى ابراهيم . . انى اقول لكم ان الله قادر أن يخرج من هذه الحجارة أبناء لابراهيم » .

وكانت هذه أول صيحة من ذلك الرسول الثائر سمع فيها الناس أن الخلاص نعمة يسبغها الله على من يشاء ولا يخص بها أبناء سلالة دون سائر السلالات البشرية وكانت علامته على قبول المسيحيين لدعوته أن يذكر اسم الله ويرشهم بالماء ويمسح على رؤوسهم فهم بعد ذلك أهل للدخول فى زمرة التائبين وطلاب الخلاص ، ولو لم يكن لهم نسب فى آل يعقوب وابراهيم .

هذه الدعوة الصارمة لم تلبث أن اصطدمت بعماية الشهوات وعناد الغرور ، ولكنها لم تذهب سدى بين الدهماء التى لا تضلها أهواء السيادة ، وبقى اسم يوحنا مقدسا محبوبا يخاف الأدعياء أن يجترئوا عليه ، فلما أراد الكتبة والنامسوسيون أن يحرجوا السيد المسيح بالأسئلة والمعميات رد عليهم حرجهم وقال لهم : أجيبونى (أولا) هل كانت رسالة يوحنا من السماء أم من الناس ؟ فلم يستطيعوا جوابا لأنهم اذا اعترفوا برسالته اتهموا أنفسهم واذا انكروها غضب الشعب عليهم فصمتوا مفحمين .

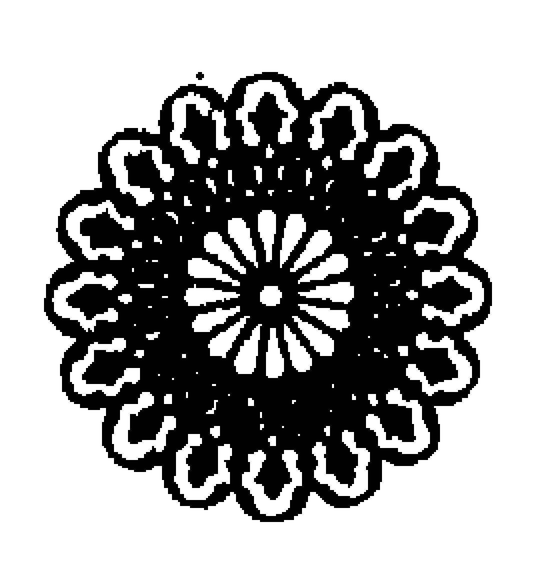
وليس أدل على مكانة يوحنا من ثناء يوسفوس المؤرخ الكبير عليه ، وهو شديد الحذر من أغضاب ذوى الرأى والسلطان ، فقد قال عنه : « أنه كان انسانا صالحا أوصى اليهود أن يبر بعضهم ببعض وأن يتقوا الله » . وهذه شهادة من المؤرخ يردد بها شهادة قومه ، وهى شهادة للرسول وشهادة على أنفسهم ، وقد باءت دعوة الرسول الصارم باحدى التجربتين اللتين مرت بهما دعوة الخلاص فى عصره ، فخرج الرسول الصارم من الدنيا وهو يعلم أن دعوة الخلاص ضائعة اذا انحصرت فى قبيل واحد ، وأن الخلاص مرهون بمن يطلبه ويخشى من فواته ، ولو لم يكن من ذلك القبيل .

والسيد المسيح طبيعة أخرى غير طبيعة يحيى بن زكريا ، فلم يحن متأبدا ولا نافرا من الناس . بل كان يمشى مع الصالحين والخاطئين ، وكان يشهد الولائم والأعراس ، ولم يكن يكره التحية الكريمة التى تصدر من القلب ولو كانت فيها نفقة وكلفة ، ووبخ تلاميذه مرة لأنهم تقشفوا وتزمتوا فاستكثروا أن تريق احدى النساء على رأسه قارورة طيب تشترى بالدنانير ، وقالوا : لماذا هذا السرف ؟ لقد كان احرى بهذا الطيب أن يباع ويعطى ثمنه للفقراء ، فقال لهم عليه السلام « مابالكم تزعجون المرأة ؟ انها أحسنت بى عملا . وأن الفقراء معكم اليوم وغدا ، ولست معكم فى كل حين » .

هذه السماحة قد اصطدمت بعماية الشهوات وعناد الغرور كما اصطدمت بهما تلك الصرامة . وقد احصى السيد المسيح على عصره هذه الصدمة وتلك الصدمة فقال : « ان يوحنا جاءهم لا يأكل ولا يشرب فقالوا به مس شيطان ، ثم جاء ابن الانسان يأكل ويشرب فقالوا انه انسان أكول شريب محب للعشارين والخطاة » .

رسالة قد استوفت تجربتيها بل تجربتها ، وخرجت من التجربتين معا انسانية عالمية تنادى من يستمع اليها ، وتعرض عمن اعرض عن دعوتها بل دعوتيها : دعوة الغيرة الصارمة الأبية ، ودعوة الغيرة السمحة الرضية ، ولو قدر لها أن تعيش فى قبيل واحد لا ستمع لها ذلك القبيل فانعزلت معه ، فلم يسمع بها العالمون .





الشـــريعـة

كل مراجعة تاريخية لذلك العصر تنتهى من جانب البحث السياسى أو جانب البحث الاقتصادى أو جانب البحث الاجتماعى ، أو الدينى أو الثقافى الى نتيجة واحدة : وهى أن ضحايا البذخ والرياء قد بلغوا فيه من كثرة العدد وسوء الأثر حدا يفوق احتمال عصر واحد ، فلا يطيق أن ينتقل بها الى العصر الذى بعده دون أن يطرأ عليه طارىء ، ولن يكون ذلك الطارىء غير طارىء انقلاب شامل .

بلغ فيه ضحايا البذخ والرياء غاية ما يبلغونه فى عصر واحد ، وقد يقال انهم ضحايا الرياء بألوانه الاجتماعية والنفسية ، فما كان البذخ إلا ضربا من الرياء الاجتماعى ، لأنه معلق فى جميع أحواله بفخفخة الظهور ، وسيان ولع النفوس بفخفخة الظهور الأجوف وولعها بالرياء .

وفى عصر كذلك العصر تلزم الرسالة .

لكنها رسالة لا تلزم لتأتى العالم بمزيد من الشريعة ، ولا بمزيد من تطبيق الشريعة . فقد تكون المصيبة كلها فى تطبيق الشريعة اذا جرى على سنة الرياء ، وغلب فيه النفاق على الصدق والانصاف انما تلزم الرسالة فى امثال ذلك العصر لتعطى العالم ما يحتاج اليه ، وتنقذ ضحاياه .

والآداب الانسانية هى الحاجة العظمى حين ينخر السوس باطن العرف والشريعة ، وضحايا الرياء هم أول من يتلقف تلك الآداب الانسانية ويشعر بتلك الحاجة العظمى .

انها رسالة قلب كبير يشعر فيجذب اليه كل شعور ، ولا سيما شعور الضحايا والمظلومين .

ويوشك مع الظلم أن يكون كل متهم مظلوما ، لأن الجريمة كلها في جانب الحاكم لا في جانب المحكوم عليه .

وحيث يكون الظلم هو الآفة فالمتهمون هم أولى الناس بالرحمة والعطف والانقاذ .

وقد كان المتهمون هم أولى الناس بالرحمة والعطف والانقاذ في أحضان الدعوة الجديدة : احضان الرسول المبشر بالخلاص والنجاة .

طوبى للحزانى . طوبى للمساكين . طوبى للجياع والظماء . طوبى للمطرودين في سبيل البر ، طوبى للودعاء والرحماء : « تعالو الى يا جميع المتعبين والمثقلين . . احملوا نيرى عليكم وتعلموا منى . . فتجدوا راحة لنفوسكم . لأن نيرى هين وحملى خفيف » .

أما الويل فهو ويل الشباعى الذين لا يعلمون أنهم جائعون والأغنياء الذين لا يعلمون أنهم معوزون ، والمتجبرين الذين لا يعلمون أنهم مساكين ، والمتكبرين الذين لا يعلمون أنهم منكسرون .

★ ★ ★

واستجاب ضحايا الرياء صيحة الرسول الكريم على قدر شوقهم الى العزاء ، وعلى قدر ما يحملونه من أوقار الشريعة العمياء ، والتقوى المزيفة ، وربما كان الأصح أن الرسول الكريم بذل عطفه لضحايا الرياء على قدر حاجتهم اليه وشعورهم براحته ورحمته ، وعلم أن الشكران على قدر الغفران ، وأن الأمل في التوبة على قدر الكرم في المحبة : « مدينان على أحدهما خمسمائة دينار وعلى الآخر خمسون . ليس لهما ما يوفيان ، فأجزلهما شكرا من سومح في الدين الكبير » .

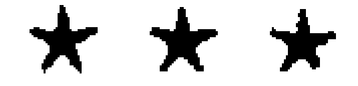
وكانت ضحية الضحايا في ذلك العصر المرأة ، لأنها لم تزل ضحية الضحايا في كل عصر يطغى عليه البذخ من جانب ويطغى عليه الحرمان من جانب ، ويعم الرياء في كلا الجانبين ، ولم تزل في كل عصر كذلك

العصر تبوء بشقاء الفتنة على ألوانها : فتنة الغواية وفتنة الفاقة وفتنة الأسرة المنحلة وفتنة الحيرة التى تعصف بالثقة . . والطمأنينة الزم ما يلزم المرأة فى كل زمان .

ونظرت تلك الفريسة التى لا حقتها اللعنة احقابا بعد احقاب واطبقت عليها الفتنة فى ذلك العصر خاصة آكاما فوق آكام ـ فإذا حنان طهور يغمر ضعفها ويجبر كسرها ويمسح اليأس من قرارة وجدانها ويشيع الأمل فى رحمة الله بين جوانحها ، فعلمها درس من دروس الحب القدسى ، مالم تتعلمه من دروس العقاب فى شريعة المنافقين وموازين المقسطين ، وبرزت على صفحة الزمن فى ساعة من ساعات ذلك العصر المريج صورة مشرقة زالت شرائع الهيكل ، وزالت شرائع روما ، وهى باقية عالية : صورة الغفران ماثلة فى شخص الرسول الكريم ، وصورة التوبة ماثلة فى شخص فتاة منبوذة جاثية على قدميه ، تسكب عليهما الدمع والطيب وتمسحهما بغدائر رأسها .

والتفت السيد الى تلميذه والى المتعجبين من حوله ، يتساءلون : كيف يزعم أنه نبى ويجهل أنها امرأة خاطئة ، فقال : « اتنظر الى هذه المرأة ! انى دخلت بيتك فلم يكن لقدمى فيه مسحة من ماء ، ولكنها غسلتها بالدموع ومسحتها بشعر رأسها ، ولم تمنحنى قبلة وهى منذ دخلت لا تكف عن تقبيل رجلى ، ولم تدهن رأسى بزيت ، وهى قد دهنت رجلى بالطيب . . ومن أحب كثيرا غفر له الكثير من خطاياه . . »

توبة صادقة ورحمة مستجيبة لا غرو تضيع على الشريعة الكاذبة فرائسها ، وتخشى التقوى الزائفة على فخرها وكبريائها ، وويل لمن يفتح بابا للتوبة والرحمة ولا يبالى الأبواب التى فتحت للنقمة والعقاب .



منذ الخطوة الأولى التى خطاها السيد المسيح فى التبشير برسالته أخذ على نفسه أن يعتزل « السلطة » ويتنحى لها عن ميدانها ، فلا يتصدى لها بابطال أو انفاذ : لا يبدلها ولا يدعى لنفسه ولايتها ، وحق لكل معلم قادر أن يسلك تلك الخطة فى زمنه ، فانه ـ كما تقدم ـ قد نشأ فى دنيا تشكو الكظة من الشرائع والأوامر والنواهى والحكام والمتحكمين : ما فاض من رومة الشرائع تملاه مراسم الهيكل وشعائره ومحللاته ومحرماته ، وما فاض من رومة ومن الهيكل ملأته سيطرة هيرود وابنائه وأذنابه وتابعيه ، ولا حاجة الى مزيد من الأحكام مع فساد الحكام ، فاذا وجب اصلاح بعضها فالخير من اصلاحه لا يساوى جهد الحرب التى تشنها طائفة ضعيفة على دولة الرومان ، وعلى دولة الهيكل وعلى الدويلة الأدومية اليهودية التى تشايع الدولتين وتعمل لحسابها بعد حساب هاتين القوتين ، ومن الحقق أن الشر الذى ينجم من ذلك الجهد اخطر وأفدح من الخير الذى يتأتى من ورائه ، ان تأتى ، وقد يدرك باصلاح الضمائر وتهذيب الآداب الانسانية وتعليم الآحاد امثلة من الأخلاق تهدى أصحابها حيث تضلهم الشرائع والقوانين .

إلا انه بهذه الحيدة عن طريق السلطة قد ترك ميدانها فلم تترك له ميدانه ، وسرعان ما اقبلت عليه الجموع حتى أحست السلطة ـ سلطة الدين قبل كل شىء ـ بالخطر المقبل من ذلك الداعية المحبوب ، وكل داعية محبوب خطر على سلطة التقاليد والجمود جاءوه فى ميدانه بعد أن ترك ميدانهم ، ووقع الاشتباك الذى لا بد منه بين سلطة شعارها المبالغة فى الاتهام والبحث عن المخالفات والعقوبات ، وبين دعوة شعارها تيسير التوبة للخاطئين وتمهيد سبل الرجاء فى الغفران .

كان التبشير بالغفران والتوبة أكبر ذنوب الداعى الجديد ، لأن الخطايا والعقوبات بضاعة السلطان القائم ، وهى على كونها مصلحة مربحة ، باب للفخر والكبرياء .

فجاءوا يسوقونه الى حيث أبى أن يساق ، وكان همهم الأكبر أن يثبتوا عليه أنه يبطل شريعة أو يتصدى لتنفيذ ذريعة ، فاعنتوا عقولهم فى البحث عن المشكلات والألغاز التى يفتى فيها بما يخالف الشريعة الدينية والقوانين السياسية ، أو يفتى فيها بما يخالف آداب الرحمة ووصايا السماحة والصلاح .

برز له مرة واحد من جموع السامعين فقال له : أيها المعلم ! مر أخى يقاسمنى الميراث . . وظن أنه يتولى هنا سلطة التقسيم بحق الكرامة على تلاميذه ومستمعيه ، فما زاد على أن قال : أيها الانسان ، من أقامنى عليكما قاضيا أو حسيبا ؟

وتعمدوا وهو فى الهيكل أن يضطروه الى موقف الحكم أو انكار الشريعة ، فاقتحم عليه الكتبة والفريسيون درسه ومعهم امرأة يدفعونها الى وسط الحلقة ، وراحوا يتصايحون : أيها المعلم هذه امرأة أخذت وهى تزنى، وقد أوصانا موسى أن نرجم الزانية ، فماذا تقول أنت ؟

ماذا يقول هو ؟ ما بالهم يسألونه ويستأذنونه وهو لا يملك أن يمنعهم لو ذهبوا بها الى قضاتها ؟ . . ان الشرك مكشوف على وجه الأرض . وليس منه مخرج فيما حسبوا وخمنوا . . إن قال ارجموها فذلك حق الولاية يدعيه ، وأن قال أطلقوها فتلك شريعة موسى ينكرها فى قلب الهيكل . فكيف الخلاص من جانبى الشرك ، ولو أنه مكشوف معروف .

سبق الى ظنهم كل خاطر إلا أنه ينتهى من القضية الى حل لا يدعى به السلطة ولا ينكرها ، ولا ينساق فيه الى مجاملة الرياء بالدين والكبرياء بالتقوى ، ولبثوا يترقبون ولا يدرون كيف يخرج من المأزق الذى دفعوه اليه ، وهو يستمع اليهم ويخط بأصبعه على الأرض حتى فرغوا من جلبتهم وسؤالهم ، فوقف قائما ورد عليهم رياءهم فى وجوههم وكسر الشرك بقدميه من كلا طرفيه ، وهو يقول لهم : « من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم وليرمها بحجر »

لا ينقض شريعة موسى ولا يدعى تنفيذها ولا يجامل رياءهم بل يدعهم هم يحاولون الخلاص من الحيرة والخجل بالروغان !

وبقيت المرأة المسكينة واقفة وحدها أمامه ، فسألها سؤال العارف : أين المشتكون منك . أما دانك أحد ؟ . . فقالت : لا أحد أيها السيد . فأرسلها وهو يقول : ولا أنا أدينك . فاذهبى ولا تخطئى .

نعم . لا يدينها ولا يحسب عليه أنه لا يدينها فى تلك القضية ولو كان هو قاضيا ، لأن القاضى لا يدين بغير شكوى ، وبغير شهود وبغير بينة !

وتناول مسألة الزواج والطلاق وقد بلغ من سهولتهما فى ذلك العصر أن تتصدع الأسرة وأن تصبح الزوجة أضيع من الخليلة فى عرف قومها ، فقال أن الزوج والزوجة جسد واحد لا يفصلهما الانسان وقد جمعهما الله ﴿ ومن طلق امرأته إلا لعلة الزنا دفعها الى الزنا ، ومن تزوج مطلقة فإنه زان ﴾

ولم تحدث مناوشة قط من هذا القبيل بينه وبين المتفيقهين من متخذى العلم صناعة وأحبولة إلا ارتدوا منها مفحمين ، وخرج منها مجيبا أحسن جواب بل أكرم جواب .

فلم يصعب عليه أن يحطم « الشرك السياسى » الذى نصبوه له ليسمعوا منه اشارة باعطاء الجزية أو بعصيان الدولة ، وأراهم أنهم يتعاملون بنقود قيصر ويكنزون منها الثروة والمال ، فلماذا لا يعطون ما لقيصر لقيصر وما لله لله ؟

ولم يصعب عليه أن يسكت الصدوقيين والفريسيين معا والأولون ينكرون البعث والآخرون يؤمنون به جسديا وروحيا على السواء . فلما قيل له ان شريعة موسى توصى الأخ أن يبنى بزوجة أخية المتوفى حفظا للأسرة ، وسألوه : لمن تئول فى يوم القيامة زوجة تعاقبها سبعة أخوة ، خيل اليهم أنه لن يستطيع أن يجيب على هذا السؤال جوابا يرضى الصدوقيين أو يرضى الفريسيين ، فكان جوابه مفحما لهؤلاء وهؤلاء ،

لأن الأحياء فى العالم الآخر لا يتزاوجون زواج هذا العالم ، ولا يتناسلون !

والحق أن الأناجيل لا تروى لنا من هذه المساجلات إلا ما نشهد أمثاله اليوم فى كل درس من الدروس العامة يتصدى فيه المتعالمون المتفيهقون لتعجيز المعلمين والوعاظ ، وان اختلفت المقاصد من اسئلة السائلين فى كل حلقة على حسب الموضع والموضوع .

والحق أن قدرة السيد المسيح على الردود السريعة والأجوبة المسكتة لهم دليل آخر الى جانب أدلة كثيرة على « الشخصية » التاريخية ، والدعوة المتناسقة ، لأنها قدرة من وراء طاقة التلاميذ والمستمعين ، بل هم يرونها ولا يفطنون الى أهم البواعث عليها فى سياسة الرسالة المسيحية ، فان هذه الرسالة قائمة على اجتناب التشريع واجتناب التعرض له بالابطال أو الابدال ، ووجهتها على الدوام أنها لا تدعى سلطة من سلطات الدنيا والدين ، وأن مملكة المسيح من غير هذا العالم ليست من ممالك الدول والحكومات . كذلك قال لكهان الهيكل وكذلك قال لبيلاطس حاكم الرومان ، وعلى ذلك جرى أسلوبه فى كل أمر وفى كل موعظة . فهو أسلوب الآداب والمثل العليا وليس بأسلوب النصوص والقوانين ، وكلامه عن زنى المطلق وعن زنى العين التى تقلع اذا نظرت نظرة اشتهاء ، وعن خطيئة اليد التى تقطع اذا وقعت فى العثرات ، لا يحمله أحد على محمل التشريع وليس فى مسلك المسيح كله فى رسالته ما يجريه مجرى الالزام ، ومع هذا غلب على الرواة من يحسبه تشريعا مقصودا بحروفه ، وقل من الرواة من فرق فى فهمه بين أسلوب الشريعة المقصودة بحرفها وأسلوب الآداب الانسانية التى ترتفع الى الأكمل فالأكمل وتنفذ الى المعانى من وراء الألفاظ ، ويرجع الأمر فيها الى ضمير يحاسب صاحبه ولا يرجع الى قاض يسمل عينا أو يدخل فى الصدور ليتتبع فيها بواعث الاشتهاء ، ولو خلصت هذه المعانى الى سامعيها جميعا كما عناها السيد المسيح لما ثبتت له كما ثبتت من اختلاف الفهم والتأويل .

* * *

شريعة الحب

الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر ـ فالجمود يقف بصاحبه عند الكلمات والنصوص ، يخيل اليه أنها مقصودة لذاتها فتصبح شغلا شاغلا له يمعن فى تأويلها وتوجيهها واستخراج العقد والألغاز منها،وينتهى الأمر به إلى اعتبارها مسألة براعة وفطنة واعتبار الأحكام والعقوبات فرصة للشارع لا يجوز أن تفلت من بين يديه ، وإلا كان ذلك مطعنا فى براعته وفطنته وهزيمة له أمام غرمائه المقصودين بتلك الأحكام والعقوبات .

ومن الجامدين من يفخر بعلمه بالنصوص والشرائع ، ويقيس علمه بمبلغ قدرته على خلق العقد والعقبات من خلال حروفها وسطورها أو من المقابلة بين سوابقها ولواحقها وبين مواضع الموافقة والمناقضة منها ، ويحدث هذا لكل « شريعة » صارت الى أيدى الجامدين والحرفيين ، فقد أدركنا فى مصر اناسا من كتاب الدواوين يفخرون بقدرتهم على توقيف العمل بين المراجعات والردود ، اعتمادا على هذا النص أو تلك الحاشية ، وافتنانا منهم فى عصر العبارات ونبش الدفائن واقامة الدليل من ثم على سعة العلم والغلبة فى ميدان الحوار ومجال اللف والدوران .

ولا حساب للنفس البشرية بطبيعة الحال عند هؤلاء الجامدين الحرفيين ، فانما الحساب كله للنص المكتوب من جهة ولدعوى العلم والتخريج من جهة أخرى ، وانما النفس البشرية هى الفريسة التى يتكفل العقاب باقتناصها ويتكفل العلم باغلاق منافذ النجاة فى وجهها ، ويقدح فى غرور العالم المحيط بأسرار الشريعة وخفاياها أن تتمكن

النفس المسكينة من الهرب وأن يرجع العقاب بغير فريسة . . وتلك خيبة للشرائع والقوانين ، خيبة لها أن تفتح مذابحها ثم تتيح للضحايا والقرابين أن تفلت منها !

فالشارع الماهر فى عرف الجمود هو أقدر الشارعين على مد الحبائل واقتناص الضحايا .

والفخر كل الفخر لخدام الشريعة أن يوفروا لها الصيد ويحكموا من حوله الشبكة .

وقد تنتفخ الأوداج بهذا الفخر علانية ، ويصبح أحق الناس بالمفخرة اقدرهم على ادانة الآخرين .

ويتمادى الأمر حتى تصبح الأستقامة براعة فى اللعب بالألفاظ وتعجيزا للجهلاء بالحيل والفتاوى ، وحتى يزول الجوهر فى سبيل العرض ، ويزول اللباب فى سبيل القشور ، وتزول الاستقامة وطهارة الضمير فى سبيل الكلمات والنصوص ، وتزول الحقائق فى سبيل الظواهر والأشكال .

واذا صار أمر الفضائل الى الظواهر والأشكال تساوى فيها الصدق والرياء ، فان غاية الصدق والرياء معا شكل ظاهر باطنه خواء ، فلا فرق بين المرائى وبين الصادق فى فضيلته ، ما دامت الفضيلة جمودا لا حس فيه ولا حياء ولا اعتبار فيه للنفس البشرية وراء النصوص والأحكام ووراء الأوامر والنواهى ، ووراء العقاب والاحتيال .

ان الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر .

وعالم الظواهر غير عالم الضمير

وهذان هما العالمان اللذان تقابلا وجها لوجه عند قيام الدعوة المسيحية :

عالم كله قيود واشكال .

وعالم طلق من القيود والأشكال ، فى ساحة الضمير روى انجيل متى فى الاصحاح الخامس أن السيد المسيح قال :

« لاتظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل جئت لأكمل » .

وروت الأناجيل أنه عمل في يوم السبت وسخر من المحرمات التي لا تدنس الانسان ، وخاطب الناس بغير خطاب الناموس .

فهل نقف المسيح من تقدموه أو اتبعهم في كل ما أبرموه ؟

إن شئت فقل أنه نقف كل شيء .

وان شئت فقل انه لم ينقف منه مثقال ذرة .

لأنه نقف شريعة الاشكال والظواهر وجاء بشريعة الحب ، أو شريعة الضمير .

وشريعة الحب لاتبقي حرفا من شريعة الأشكال والظواهر ، ولكنها لا تنقف حرفا واحدة من شريعة الناموس بل تزيد عليه وينبغي هنا ان نصحح معنى الناموس في الأذهان ، فان معناه هو « القوام » الذى يقوم به كل شيء ، وناموس العقيدة هو الأصول الأبدية التي يقوم بها ضمير الانسان ما دام للضمير وجود ، فلن يزال قائما ـ كما قال السيد المسيح ـ ما قامت الأرض والسماوات .

ولقد كمل المسيح شريعة الناموس حقا لأنه جاء بشريعة الحب ، وهي زيادة عليه .

ان الناموس عهد على الانسان بقضاء الواجب . أما الحب فيزيد على الواجب ، ولا ينتظر الأمر ولا ينتظر الجزاء .

الحب لا يحاسب بالحروف والشروط ، والحب لا يعامل الناس بالصكوك والشهود ، ولكنه يفعل ما يطلب منه ويزيد عليه ، وهو مستريح الى العطاء غير متطلع الى الجزاء .

بهذه الشريعة ـ شريعة الحب ـ نقض المسيح كل حرف في شريعة الأشكال والظواهر .

وبهذه الشريعة ـ شريعة الحب ـ رفع للناموس صرحا يطاول السماء ، وثبت له أساسا يستقر في الأعماق .

وبهذه الشريعة - شريعة الحب - قضى على شريعة الكبرياء والرياء ، وعلم الناس أن الوصايا الالهية لم تجعل للزهو والدعوى والتيه بالنفس ووصم الآخرين بالتهم والذنوب ، ولكنها جعلت لحساب نفسك قبل حساب غيرك ، وللعطف على الناس بالرحمة والمعذرة ، لا لاقتناص الزلات واستطلاع العيوب .

وفى اعتقادنا أن « شخصية » السيد المسيح لم تثبت وجودها التاريخى وجلالها الأدبى بحقيقة من حقائق الواقع كما اثبتتها بوصايا هذه الشريعة : شريعة الحب والضمير .

فكل كلمة قيلت فى هذه الوصايا فهى الكلمة التى ينبغى أن تقال ، وكل مناسبة رويت فهى المناسبة التى تقع فى الخاطر ولا تصل اليها شبهة الاختلاق .

يلزم فى شريعة الكبرياء والرياء من يتخذ الدين سبيلا الى التعالى على الآخرين ، ويلزم فى شريعة الحب من يقول لذلك المتعالى على غيره المتفانى بنفسه : ﴿ لماذا تنظر الى القذى فى عين أخيك ولا تنظر الى الخشبة فى عينك ؟ ﴾ .

يلزم فى شريعة الفرح بالعقاب والسعى وراء العورات من يسوق المرأة الخاطئة فى المواكب ويخف الى مواقف الرجم كأنما يخف الى محافل الأعراس ، ويلزم فى شريعة الحب من يبهت ذلك الجمع المنافق ويكشف له رياءه ويرده الى الحياء ، وقد ارتد الى الحياء حين استمع السيد يناديه : ﴿ من لم يخطىء منكم فليرمها بحجر . . ﴾ .

ويلزم فى شريعة الرياء والكبرياء أن يفخر المصلى بصلاته وأن يعلن الصائم عن صيامه ويتخذه زيا ينم عليه بعبوسه وضجره ، ويلزم فى شريعة الحب من ينهى الناس عن صلاة الرياء وصيام الرياء لأنهم يحبون أن يصلوا قائمين فى المجامع وفى زوايا الشوارع .. ومتى صمتم أنتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين ، فانهم يغيرون وجوههم ليظهروا للناس صيامهم فقد استوفوا أجرهم فلا أجر لهم ، وأما أنتم فمتى صمتم

فادهنوا رؤوسكم وأغسلوا وجوهكم ، لا يظهر صيامكم للناس بل لأبيكم المطلع على الصدور » .

يلزم فى شريعة الرياء والكبرياء أن يفخر المعطى بالعطاء وان يستطيل به على الفقراء ، وأن يصوت قدامه بالأبواق ويعلن صدقته فى الطرقات والأسواق ، ويلزم فى شريعة الحب أن تستتر أعمال المحسنين فلا تعلم الشمال ما تفعل اليمين .

فى شريعة الكبرياء يتقى المتكبر تقواه ليتكبر بها على المذنبين ويلوم المرشد المصلح لأنه يجلس مع العشارين والخطاة وفى شريعة الحب والضمير يقال للمترفعين بتقواهم ما ينبغى أن يقال لهم : إنما يحتاج المرضى الى الطبيب وإنما يكون الحب على قدر الغفران .

وقد بلغت فتنة « الظواهر والأشكال » غايتها وطغت من الهيكل الى البيت ، ومن المكتب الى السوق ، ومن المنبر الى المائدة . حتى لقمة الطعام أصبحت لا تحل أو تحرم إلا بمقدار ما يتلى عليها من الأوراد والعزائم ، وما تحاط به من الشعائر والمراسم ، وما يرسمه الكهان من أحكام الذبائح والولائم ، فبحق يصطدم هنا عالم الظواهر وعالم الضمير ، وبحق يقال للمتطهرين بغسل الأيدى والتلاوة على لقم الطعام وصحاف المائدة :

« إن مايدخل الفم لا يدنس الضمير ، وأن الدنس إنما يخرج من القلب الذى فيه الشر والزور والفسوق والكفران » .

★ ★ ★

ومجمل القول أن الخير كله كان فى حكم شريعة الظواهر والأشكال . شريعة الكبرياء والرياء ، مسألة « امتياز رسمى » يحتكره أصحابه بفضل السلالة والعنصر ويرجع الأمر فيه الى الموروثات والمأثورات .

فالفضل بين الأمم « امتياز رسمى » محتكر لاسرائيل لأنهم أبناء ابراهيم ، والفضل بين الاسرائيليين « امتياز رسمى » محتكر لأبناء هرون وأبناء لاوى أصحاب الكهانة بحق النسب والميراث ، والفضل فى

الدين والعلم حرفة يحتكرها الكتبة والتلموسيون أو فقهاء ذلك الزمان ، بل كادت محبة الله لشعبه المختار أن تكون « وثيقة فى صك مرسوم » تضمن الايثار لذلك الشعب وان هبطت به أعماله دون سائر الشعوب . .

﴿ فلا لأنكم أكثر الشعوب لازمكم الرب واختاركم فانكم أقل من سائر الشعوب ، بل هى محبته وحفظه القسم الذى عاهد عليه آباءكم ﴾ .

فلما قامت الدعوة المسيحية بشريعة الحب والضمير كانت كلمتها هى الكلمة التى تقال فى كل ما ادعوه ، وما استأثروا به واحتكروه .

ليس الخير حكرا للنسب والسلالة ﴿ بل الذى يعمل بمشيئة الله هو أخى وأختى وأمى ﴾ . . ﴿ ان كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابراهيم واسحاق ويعقوب على أرائك الملكوت ، وأما بنو الملكوت فيطرحون الى الظلمة بالعراء ﴾ .

وإنما الرحمة عمل ، لانسبة ولاحرفة . . وضرب لهم مثلا : انسانا خرج عليه اللصوص فى الطريق فسلبوه وضربوه وتركوه بين الحياة والموت ، وعبر به كاهن فأهمله ومضى فى طريقه ، وجاء لاوى فمضى ولم يلتفت اليه . . ولكن سامريا رآه فأشفق عليه وضمد جراحه وأركبه على دابته وأتى به الى فندق وأولاه عنايته ثم أخرج لصاحب الفندق عند سفره دينارين لينفقهما عليه ويعنى به ومهما ينفق عليه فهو موفيه عند مرجعه ﴾ . .

قال السيد المسيح لتلاميذه وقد ضرب لهم هذا المثل : « اى هؤلاء الثلاثة أقرب الى ذلك الصريع الجريح ؟ » والجواب الذى لا خلاف عليه بداهة أن السامرى المنبوذ أقرب اليه من أبناء هرون ومن اللاويين المصطفين !

وراح يجيبه فطاحل العلماء التياهين بما علموه وحفظوه وتفننوا فى ألغاز الفقه وأحاجى الشريعة ، فقال لهم « أن الدين بما تعمل لا بما

تعلم » . . وحذر اتباعة ومريديه أن يقتدوا بهم فى عملهم وأن يدعوا مثل دعواهم : ﴿ لأنهم يحزمون الأوقار ويسومون الناس أن يحملوها على عواتقهم ولا يمدون اليها أصبعا يزحزحونها ، وإنما يعملون عملهم كله لينظر الناس اليهم ؟ يعرضون عصائبهم ويطيلون أهداب ثيابهم ، ويستأثرون بالمتكأ الأول فى الولائم والمجالس الأولى فى المجامع ، ويبتغون التحيات فى الأسواق وأن يقال لهم : سيدى سيدى حيث يذهبون . . ﴾

* * *

ثم يهتف بأولئك المنافقين التياهين : « أيها القادة العميان الذين يحاسبون على البعوضة ويبتلعون الجمل . . أنكم تنقون ظاهر الكأس والصحفة وهما فى الباطن مترعان بالرجس والدعارة . . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون - أنكم كالقبور المبيضة ، خارجها طلاء جميل وداخلها عظام نخرة » .

ولما تعالموا عليه بالأسئلة عن أسرار الكتب والغاز الفرائض والوصايا ، وسألوه أيهما أعظم فى الناموس ؟ حسبوا أنه سينقب بين السطور ويطيل البحث بين الأسرار والألغاز ، ولكنه ترك السطور والنصوص وجمع لهم الدين كله والكتب جميعا فى كلمات معدودات : ﴿ أن تحب ربك بجماع قلبك ومن كل نفسك وفكرك ، وأن تحب قريبك كما تحب نفسك ﴾

هذا كل مايلزم العابد الصالح أن يحتقبه من القماطر والأوراق ، ولا تكون العقبى أنه يهدر الفرائض والأحكام وأنه يستبيح ما لا يباح ، بل لعله يتشدد حيث يترخص النصوصيون والحرفيون ، كما يتشدد الانسان حين يحاسب ضميره ويصنع فى سبيل الحب مالا يصنعه فى سبيل الواجب ، وكل ما هناك أن تصبح الفضيلة وحى نفس وحساب ضمير ، ولا يصبح قصاراها وحى القانون وحساب الصكوك والشروط ، وأساليب الروغان من بين السطور والحروف .

لاجرم كانت شريعة الحب والضمير أشد وأحرج من شريعة الظواهر والأشكال ، لأن الضمير موكل بالنيات والخواطر قبل الأفعال والوقائع ، ولأنه يحاسب صاحبه على همساته ووساوسه ولا يتركه حتى يعمل ما يضر أو يسوء .

« قيل للقدماء لا تقتل ومن يقتل وجب عليه العقاب . أما أنا فأقول لكم أن من يغضب على أخيه باطلا يأثم ويجزى . . فان قدمت قربانك وذكرت حقا لأخيك عليك ، فدع قربانك أمام المذبح وأذهب قبل فصالح أخاك .

﴿ وقيل للقدماء لاتزن . أما أنا فأقول لكم أن من ينظر الى امرأة فيشتهيها فقد زنى بها فى قلبه ، فان كانت عينك اليمنى تلقى بك فى العثرات فاقلعها والقها عنك فخير لك أن يهلك عضو لك من أن تهلك كلك . .

﴿ وقيل للقدماء لا تحنث . . وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا . . وليكن كلامكم كله نعم نعم . لا . لا . وما زاد على ذلك فهو من الشيطان . .

﴿ وسمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن . وأما أنا فأقول لكم لا تقابلوا الشر بالشر ، ومن لطمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر . . ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه ميلين . .

﴿ وسمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك . وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعينكم . أحسنوا الى مبغضيكم . وادعوا لمن يسيء ويطردكم ، لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى

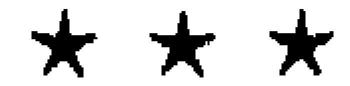
في السماوات ، فانه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين ويرسل غيثه للأبرار والظالمين . وأى أجر لكم أن احببتكم من يحبونكم . اليس العشارون يفعلون ذلك ؟ وأى فضل تصنعون أن خصصتم أخوتكم بالسلام ؟ اليس العشارون يفعلون ذلك ! فتعلقوا أنتم بالكمال ، فان الله كامل . . يحب الكمال . . »

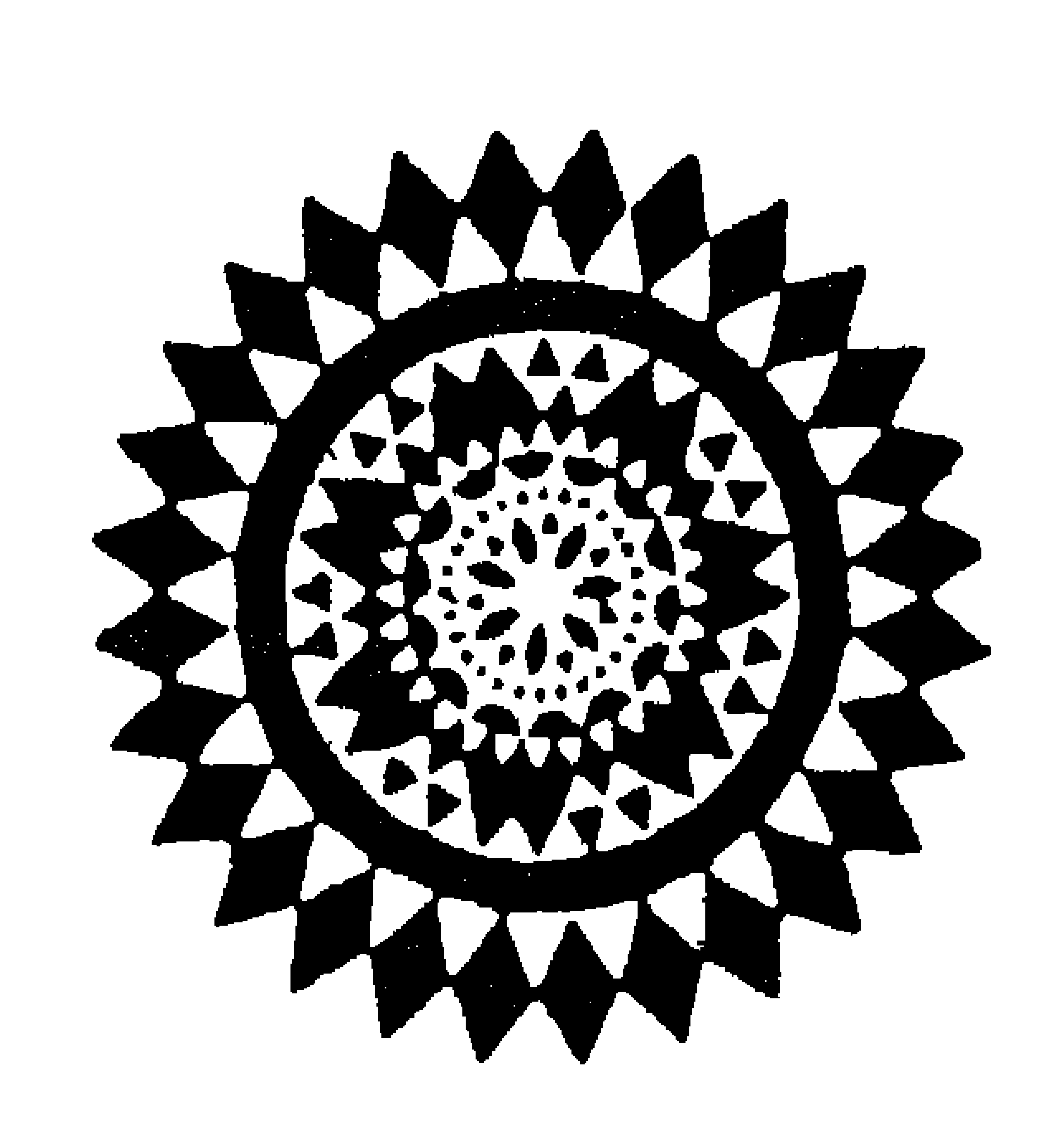
هذه شريعة تهدم كل عرف قائم وتعصف بكل شكل ظاهر ، ولكنها لا تهدم الناموس ولا تعصف بركن من أركانه ، وقد تزيد فرائضه ولا تنقص حرفا منها حين تنقلها من الأوراق ومناظر العيان الى الضمائر والقلوب ، لأن الانسان يحاسب نفسه اذا حب حسابا لا تدركه الشرائع ولا يطلع عليه القضاء .

وقد كان المصطدم بين الشريعتين حيث يتوقع وكما يتوقع ، وكان السجال بينهما هو السجال الذى تمليه شريعة الحب والضمير وشريعة الظواهر والأشكال ، ولم تسقط من ذلك السجال كلمة كانت منظورة من دعاة الرياء والكبرياء ، ولم يكن الجواب على كلمة منه عرضا غير مقصود في وجهته أو جزافا يقوله كل قائل ويأتي لغير مناسبة ، ومن ثم نقول أن الشخصية التاريخية والدعوة المتناسقة لم تثبتا ببرهان أصدق من هذا البرهان ، وأن المصطدم بين الشريعتين لا يختلقه المختلق أن شاء ، لأنه من وراء طاقة المختلق أن يخلق طبيعة الشريعتين : شريعة الحب والضمير وشريعة الرياء والكبرياء ، ويدفع بهما حيث يندفعان ويملي عليهما ما تسألان عنه وما تجيبان .

تلك معالم واضحة ومقاصد بينة معروفة المنحى ، فاذا وقع اللبس مرة فليس أيسر من الحسم في مواضع اللبس على ذوى النية الحسنة ، فكل ما وافق شريعة الحب والضمير وخالف شريعة الظواهر والأشكال

فهو هنا ، وكل ما مشى فى سبيل الظواهر والأشكال وأعرض عن سبيل الحب والضمير فهو هناك ، ولن يطول اللبس فى معنى من معانى السيد المسيح إلا على عباد الألفاظ والنصوص ، وليس من الانصاف ولا من حسن الفهم أن تحكم الألفاظ والنصوص فى الدعوة التى تزدريها وترجع بكل شىء الى مقاصد الحب والضمير . ذلك كما قال السيد المسيح هو وضع الخمر الجديدة فى الزق القديم أو وضع الرقعة القشيبة على الثوب الرديم .





آداب حياة

كان « أوريجين » فيلسوفا ملحوظ المكانة فى تاريخ الفلسفة والديانة المسيحية . ويرى الكثيرون أنه أكبر المفكرين الدينيين الذين نبغوا بين القرن الثانى والقرن الثالث للميلاد ، ومن لم يره كذلك فلا خلاف عنده فى حسبانه بين ثلاثة أو أربعة من كبار المفكرين فى عصره ، غير مستثنى منهم اساتذته الأولون . هذا الرجل قرأ فى شبابه قول السيد المسيح أن اناسا يخصيهم الله واناسا يخصيهم الناس واناسا يخصون أنفسهم فى سبيل الله ، فحمله على معناه الحرفى وجب نفسه ليقدم بعد ذلك على تعليم النساء وهو آمن ولكنه أدرك خطأه بعد ذلك وعدل عن هذا الفهم الحرفى لا قوال السيد المسيح .

إلا أن ثبوت هذه الرواية فى سيرة رجل من أعلام زمانه يبطل العجب من روايات كثيرة بقيت بين أخبار الدعوة المسيحية فى عصرها الأول ، فقد كان الرجل يفقأ عينه اذا علم أنها نظرت الى امرأة نظرة اشتهاء ، وكان يمسخ جسده مسخا اذا راودته الشهوات ، حتى ليتساقط منه الدود وهو بقيد الحياة ، فاذا كان شاب فى ذكاء « أوريجين » وقوة فطنته يفهم العظات المسيحية على هذا الوجه ، فلا عجب أن يشيع هذا الفهم بين طائفة من البسطاء الذين لا يبلغون مبلغه فى الفطنة والدراية .

لكن « أوريجين » نفسه قد عدل عن خطئه بعد زمن كما أسلفنا . وسبقه وجاء بعده اناس من طبقته أيقنوا أن السيد المسيح قصد المعانى ولم يقصد الحروف حين أوصى بكف الأعضاء عن نزغات الجسد ، فلم يعن بفقء العين إلا ما نعنيه بقطع اللسان حيث نريد به السكوت أو الاسكات ، ولم يعن بقمع الجسد إلا ما نعنيه بقمع الرياضة والتربية ، وكان كلمنت الأسكندرى يقول بحق أن السيد المسيح لا يعنى بنبذ المال أن نرفضه بتاتا فى جميع الأحوال ، والا لم يكن الاحسان فضيلة من أكبر الفضائل فى الوصايا المسيحية ، وجاء القديس أو غسطين بعد ذلك فنفى أن الدين يوجب الزهد على كل أحد ، مع استحسانه الزهد لمن يقد عليه .

إلا أن الخلاف على فهم وصايا المسيح لم يزل قائما بعد تفسيرها على هذا الوجه مرات فى أقوال حكماء المسيحية ، ولا يزال هذا الخلاف قائما الى عصرنا هذا فى الوصايا التى تدور على رفض الحياة الخاصة ، وغير قليل من المتأولين ينحو منحى الدكتور « شويتزر » shcweitzer الذى يرى أن السيد المسيح قد أوصى الناس بتلك الوصايا لأعتقاده أن الساعة قريبة وأن الدنيا التى يهجرونها مقضى عليها بالفناء فى مدى سنوات ، فكل ماأوصى به الناس فالمفهوم منه أنهم على سفر وأن الزاد للعالم الآخر من غير هذا الزاد الذى يدخره المدخرون للدنيا الزائلة .

وفى اعتقادنا أنه لامحل للخلاف على الوصايا التي وجهها السيد المسيح لتلاميذه ورسله المتجردين لنشر الدعوة ، فان كل دعوة فى عصر السيد المسيح أو فى عصرنا هذا ، وفى جهاد الدين أو جهاد الدنيا ، تحتاج من الدعاة الى مثل ذلك التجرد ومثل ذلك الانقطاع عن الشواغل الأخرى ، ونظام فرق الفداء فى الجيوش الحديثة معلوم لا خلاف عليه ، وأول أحكامه أن يفكر « الجندى المجاهد » فى الموت قبل تفكيره فى الحياة .

o—o

إنما الخلاف على الوصايا حين تتجه الى غير التلاميذ والرسل : الى ابناء الدنيا الذين يعيشون فيها ويعملون لأنفسهم ولمن يعولونهم من أبنائهم وذويهم ، فهل يطلب من هؤلاء جميعا أن ينقطعوا عن دنياهم ويرفضوا حياتهم وتشبهوا بالطير والنبات فى اعتمادهم على الغذاء والكساء ؟

أقول حقا اننى أفهم وصايا السيد المسيح جميعا ولا أجد فى فهمها صعوبة على الاطلاق اذا أنكرنا الجمود على الحروف والنصوص كما كان ينكرها عليه السلام ، واذا علمنا أنه عليه السلام قد قال كل شىء حين قال ولخص حكمته كلها فى هذا المقال : « ليس الانسان للسبت ، وإنما السبت للانسان » .

لقد كان هم السيد المسيح فى الاصلاح النفسى تغيير البواعث لا تغيير المقادير .

كان همه أن ينقل الآداب من محور الى محور ، ولا قيمة للمسافات ولا للأبعاد اذا كان انتقال المحور هو المقصود .

كانت العروض هى المحور الذى تدور عليه حياة الأمم والآحاد فى عصره ، فوجب أن يكون الجوهر الصميم هو محور الحياة .

كانت « الأشياء » مقدمة على النفس الانسانية ، فوجب أن تكون النفس الانسانية مقدمة على الأشياء .

وجب أن يكون ربح النفس الانسانية هو الغنيمة الكبرى ، لأن من ربحها فلا جناح عليه أن يخسر العالم .

وإذا كان « الحطام » هو محور الحياة فسيان الكثير والقليل : سيان من يطلب الدرهم الواحد ومن يطلب ملايين الدراهم ، فكلاهما مدراة خطأ وسعيه عقيم .

اذا كانت « الشهوة » هى محور الحياة فسيان من يشتهى بعينه ومن يقوم ويقعد ويسهر وينام فى طلب اللذة والغواية ، فكلاهما فارغ لهذا المحور الذى يدور عليه .

ولكننا ننقل المحور ، أو ننقل القبلة كما أسلفنا فى فصل سابق ، فينتقل كل شىء ويتغير اللباب الأصيل من كل خلق .

اذا اصبح كسب النفس الانسانية ـ كسب المحور ـ هو غاية الحياة فالذى يملك الملايين زاهد كالذى يملك العشرات أو الذى لا يملك شيئا من الأشياء .

إذا تغير المحور فمسافة الفرسخ والميل كمسافة الشبر والقيراط .

وإذا بقى المحور فالبعيد كالقريب والقريب كالبعيد .

وتغيير المحور هو الذى عناه السيد المسيح .

وتغيير المحور لازم فى ذلك العصر ، لازم فى هذا العصر ، لازم فى كل زمن ينحرف فيه الاتجاه عن سوائه ، ولهذا كانت رسالة السيد المسيح نموذجا للرسالات ، ولم تكن آخر الرسالات فى الحياة الانسانية .

لهذا نعتقد أن السيد المسيح كان يغير المحور تغييرا آخر لو أنه حضر الدنيا بعد عصره ببضعة أجيال ، ورأى الناس يغرقون فى تعذيب الجسد ويفرحون باطعامه للدود وهم بقيد الحياة .

بل لا حاجة بنا الى الفرض هنا أو الاحتمال الذى يقبل الخلاف ، فان المسيح قد غير المحور هذا التغيير فى زمانه : غيره حين قبل انفاق الدنانير فى عطر تمسح به قدماه ، وحين قبل أن يشهد الأعراس ويضرب المثل لاتباعه فى أفراح الحياة ، وفى براءة كل فرح يأتى من القلب ويسر الجسد ولا يحزن الروح .

وماكان الاصلاح فى الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات : انت تنهك نفسك لتكنز مليونا فحسبك أن تنهك نفسك لتكنز عشرة آلاف ، ولا تزيد .

أنت تتهالك على جميع اللذات فى جميع الأوقات ، فتتهالك عليها أياما فى الأسبوع ، أو تهالك على بعضها دون سائرها فى جميع الأيام .

أنت مشغول الذهن بالعدوان والبغضاء فاشتغل بهما قليلا ولا تجعلهما شغلا شاغلا بغير انقطاع .

كلا . لم يكن الاصلاح فى الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات، وانما كان على الدوام مسألة « محور » ينتقل ، أو مسألة « باعث » يتغير ، وعلى الدنيا بعد ذلك أن تعرف شأنها فى مسافاتها ومقاديرها ، حتى يبلغ بها الانحراف غايته فتعود أو يعاد بها الى محورها الذى انحرفت عنه أو الى محور جديد .

اننا لاننصف السيد المسيح بل ننصف انفسنا حين نعتقد أنه كان يدرك ما يقول وهو يقول : « من أخذ منك رداءك فاعطه قميصك مع الرداء » .

أترى السيد المسيح كان يفوته أن الرداء والقميص اللذين يعطيهما المعطى هما الرداء والقميص اللذان يأخذهما الآخذ أو يسلبهما السالب ؟

كلا . ماكان يفوته ذلك ولاريب ، ولا أدنى ريب .

ولكن النفس الانسانية هى المقصود ، وليس المقصود هو الرداء أو القميص .

المقصود هو أن ترفع النفس الانسانية فوق اشيائها ، بمثل من الأمثلة ، يصح أن يكون هذا المثل ويصح أن يكون مثلا سواه !

فيلكن العطاء حبا وطواعية لأن من يعطى مجبرا أو يعطى مالا يهمه أن يعطيه يفقد شيئا ولا يملك نفسه .

وليس كذلك من يعطى لأنه يريد العطاء : انه يكسب ما أعطاه ولا يضيعه ، لأن غنى النفس يقاس بما تعطيه ، وغنى الجسد يقاس بما يأخذه ، ومن كان لا يبالى أن يعطى العالم كله ليربح نفسه فأخلق به أن يربح نفسه بقليل من العطاء .

أراد السيد المسيح أن يعبد الانسان سيدا واحدا ، ولا يعبد سيدين ، وهذا كل ما أراد .

فمن يملك أموال الدنيا غير عابد للمال فلا جناح عليه .

ومن يعبد الله ويستعبد المال فلا جناح عليه .

ومن حاول غير ذلك فهو غير مستطيع ، وليس قصاراه أنه غير مشكور و غير مأجور . .

ونحسب أن النهى عن عبادة سيدين قد أقام الحد واضحا سهلا بين ما هو مباح وما هو محظور فى طلب الدنيا ومتاعها وزينتها . فلا حرج على انسان يملك المال العريض وهو لا يعبد المال ولا يقدم نفسه قربانا على هيكله ولا نجاة لأنسان يملك درهمين ولا ينالهما بغير عبادة المال .

ويحسن بنا على الجملة أن نذكر أن السيد المسيح لم يقصد اقامة مجتمع فى مكان مجتمع ، ولكنه قصد الى تهذيب آداب انسانية يعتصم بها ضمير الفرد وضمير الأمة ، وأقامها على اساس واضح فى وصايا متعددة لا تضارب بينها .

فالجسم أفضل من الطعام واللباس .

والانسان أفضل من السبت .

وغنيمة النفس أربح من غنيمة العالم .

ومملكة الضمير فى قرارة كل انسان أبقى من ممالك العروش والتيجان .

وبساطة الايمان أصلح من حذلقة العلماء والحفاظ ، ولولا هذه الحذلقة لما استعصى على أحد أن يفهم ما يسمع من وصايا السيد المسيح وما جرى مجراها فى كل زمن ، فمن دأب الحذلقة على الدوام أن تجتهد لكيلا تفهم وليس من دأبها أن تجتهد مرة لكى تفهم ، وعندها فى كل آونة سبب لتعطيل كل فهم وسبب لتعطيل كل عمل وسبب للظهور يصرفها آخر الأمر عن بواطن الأمور . وهذه الحذلقة هى التى حالت بين المتحذلقين قديما وبين كل عمل بكل وصية ، فليس عندها مستمع لنبى ولا لحكيم .

ان الحذلقة هى التى أبت أن تفهم حين قال القائل : أن العصفور المبكر يجد الدودة قبل غيره . . أفليس فى هذا الكلام شىء يفهمه السامع ؟ بلى . وفيه نصح لمن يريد أن يسمع ويعمل . ولكن الحذلقة

هي التي قالت في جواب تلك النصيحة : ان الدودة لو لم تبكر قبل العصفور لما اكلها العصفور .

ان الحذلقة تقول هذا لأنها لا تعمل ، فهل تراها كسبت شيئا حين خسرت العمل ؟ . كلا فان سخريتها تستقيم اذا كان التاخير اسلم للدودة من التبكير ، ولكنهما يستويان على الأقل ، ان لم يكن التاخير خليقا أن يعرض الديدان لمئات المناقير ومئات العيون ، بدلا من فرد منقار وفرد عين . . !

كذلك يقول السيد المسيح : من طلب منك رداءك فاعطه قميصك مع الرداء ، فتقول الحذلقة ولماذا يحق للطالب أن يملك القميص والرداء معا ولا يحق لمن يعطيهما أن يحتفظ بهما في حوزته ؟

أفليس في قول السيد المسيح ما يفهم ؟ بلى . فيه ما يفهم وما يصحح فهما على ضلال ، ولكن الحذلقة لا تريد أن تفهم ولا أن تعمل ، ولا تريد إلا ظهورا « على حساب » الفهم والعمل كما يقولون ، ولولا ذلك لما غاب عنها أن الجديد في الأمر هو امتحان المعطى الذى يقتدى به في الاحسان ، وان طالب الرفد لا خلاف عليه ولا على قيمة عمله من الفضيلة ، وانما الخلاف الذى يحتاج الى جديد هو قيمة الاعطاء من فضيلة السماحة والايثار .

. لقد كانت الدنيا تدور على محور الشرة والشر والبغضاء والنفاق ، فحسن ولا شك أن تدور على غير ذلك المحور ، واذا انتقلت منه الى محور القناعة والخير والحب والصدق فلا مشاحة في قياس المسافات ولا تقدير المقادير .

بل نقول أن الرسالة كاملة وافية ولو لم يكن هذا الانتقال إلا الى حين وفي حيز محدود ، فانما العبرة باضافة هذه القيم الجديدة الى حساب الانسانية ، وشأن الانسانية بعد ذلك وما تستطيع ، وشأن الرسل بعد ذلك وما يستطيعون من تجديد الرسالة كلما انحرفت الجادة أو احتاج ضمير الانسان الى محور جديد .

★ ★ ★

ملكوت السموات

﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾ .

قرآن كريم

هذه آية كريمة لها مرجع من تاريخ كل دعوة ولا سيما الدعوات الدينية الكبرى ، وما من شىء هو أدعى الى التدبر الطويل من المقابلة بين مقاصد أصحاب الدعوات وبين الغايات التى تنتهى اليها دعواتهم على غير قصد منهم ، بل على خلاف ما قصدوا اليه ، ثم يمضى الزمن وتنطوى المقاصد والغايات فيبدو أن طريق الدعوات كان أهدى من طريق أصحابها ، كأنما الدعوات والدعاة معا وسيلة مسخرة تسير فى عنان الحكمة الأبدية ، دون أن يعلم الدعاة أو يعلم المستجيبون لهم الى أين تسير ، والى أين يسيرون .

ماذا لو أن أهل مكة عقلوا فاستجابوا الى الدعوة المحمدية ولم يدخل المسلمون مكة دخول الغالبين المنتصرين ؟

ان الهجرة من مكة الى المدينة كانت فاتحة الفتوح الاسلامية فلو انها ارتفعت من تاريخ الاسلام لتغير ذلك التاريخ ، ولكنه لا يستفيد فيما نعتقد بزوال ذلك الحادث الذى كان محسوبا من العقبات ، بل أكبر العقبات فى صدر الاسلام .

وماذا لو أن بنى اسرائيل فى عصر السيد المسيح قبلوه وصدقوه وفتحوا له أبواب الهيكل مرحبين مؤمنين ؟

كان غاية الأمر أن نبيا من الأنبياء يضاف اسمه الى اسماء الانبياء فى كتاب العهد القديم ، وتبقى اسرائيل فى عزلتها كما كانت ، ويبقى العالم كله كما كان من هذه الناحية ، وتبقى الناصرة كما كانت فى التاريخ : منسية لا تذكر ، أو تذكر كما تذكر أصغر القرى التى تحكمها رومة الخالدة : رومة القياصرة والجبارين المتألهين .

فمما لا ريب فيه أن السيد المسيح قد أراد اسرائيل بدعوته الأولى ومن البداية أن يريدهم قبل أن يريد أحدا غيرهم ، لأنهم عشيرته الأقربون ، ولأنهم أصحاب الكتب التي تبشر بالخلاص وتترقب الرسول المخلص من وراء الغيب .

وقد كان السيد المسيح يعظ التلاميذ ويقول لهم . ماذا تركتم للأمم ؟ لأنهم أبناء أمة أولى بها أن تستمع الى الحق من أبناء الأمم كافة ، وهم غير مختارين

وقد كان يرسل التلاميذ للدعوة وينهاهم أن يدخلوا السامرة ، ويحذرهم على العموم أن يطرحوا اللآلىء تحت أقدام الخنازير .

وعلى رفقة في الخطاب كان ينتهر المرأة الفينيقية التي أرادت منه كرامة من تلك الكرامات التي يخص بها أبناء يعقوب ، لأنه ليس بالحسن أن يؤخذ الخبز من أبناء البيت ليلقى به الى الكلاب .

وكان هذا الايثار بديها كما قلنا من وحي الفطرة ووحي الكتب والدواوين ، وكان كذلك حكمة من حكم الدعوة التي يراد لها النجاح ، فان المساواة بين العشيرة الأقربين وبين الغرباء الموتورين كانت خليقة أن تقصي الأقربين ولم يكن يقينا ولا شبيها باليقين أن تداني اليه أحدا من أولئك الغرباء الموتورين ، الذين يحاربونه ويحاربون قومه ويبادلونهم سوء الظن وتارات الانتقام .

فماذا لو استجاب المدعوون الى الدعوة على أحسن حال وأيسر احتمال ؟ ماذا لو استجابوا بغير عناد وبغير استشهاد !

ان استجابوا جميعا الى الدعوة فقد دخلت الدعوة في نطاق « العصبة العنصرية » ولم يتغير بها في شيء في غير ذلك النطاق المحدود .

O—O

وان لم يستجيبوا جميعا ، واستجابت منهم فئة من فئات شتى ، فغاية الأمر انها فرق تضاف إلى فرق الفريسيين والصدوقيين والآسين والغلاة . بل قد حدث فعلا أن فئة من بني اسرائيل قبلت المسيحية على

انها طائفة يهودية » سميت بالطائفة « الابيونية » أى طائفة الفقراء والدراويش ، ثم ذهبت هذه الطائفة فى الغمار فلا هى إلى اليمين ولا إلى اليسار . ولم يبق لها نصيب فى تاريخ اليهود ، ولم يبق لها نصيب فى تاريخ المسيحيين .

بل حدث فعلا أن كنيسة مسيحية يهودية هجرت بيت المقدس إلى شرق الاردن ، واعتزلت كنائس اسرائيل وأقامت شرقا حيث تحرم الاقامة على سائر اسرائيل . وظلت ردحا من الزمن لا هى اسرائيلية خالصة ولا هى مسيحية خالصة ، ثم ذهبت فى الغمار كما ذهب الابيونيون .

لقد مر بنا المثل الذى ضربه السيد المسيح للمدعوين المتخلفين . مثل الأمير الذى أولم الولائم . وأرسل إلى الصفوة المختارين من الاقرباء والصحاب يدعوهم أن يفرحوا معه ويشاركوه فى طعامه وشرابه فلم يجبه منهم أحد ، وتعلل كل منهم بعلة تؤدى به إلى ما بعد يوم الوليمة ، فأقسم لا يحضرنها أحد بلغته الدعوة ، وليملأنها بمن حضر ومن لم يحضر ، ومن تزويه الازقة أو تقذف به الطريق . وأبى أن يبقى مكان على المائدة خلوا من ضيف . وأصبح كل طارق ضيفا مقبولا على الرحب والسعة ، وهكذا تعمر وليمة السماء التى يتأخر المدعوون إليها ، ويتقدم إليها من هم أحق بها ، لأنهم يشتهون ما يعافه المدعوون المتبطرون .

قال السيد المسيح لمن دعاهم وألحف فى دعواهم فأنكروا وألحفوا فى انكاره : « ان الحجر الذى رفضه البناءون صار على رأس الزاوية . . ان ملكوت الله ينتزع منكم ويوهب لامة تؤتيه ثماره . . من سقط على ذلك الحجر رضه ومن سقط الحجر عليه سحقه . . هناك يكون البكاء وصرير الانسان . هناك يدعى الكثيرون ولا ينتخب إلا القليلون .

ومنذ استحكمت النبوة بينه وبين الجامدين والمتعصبين قلت وصاياه التى يخص بها « الأمة » ويفردها بين الامم ، وكثرت فى وصاياه

الأدب الانسانية التى يستحق بها الانسان ملكوت السماوات ، فردا فردا كائنا ما كان شأن الأمة التى ينتمى اليها ، وفهم السامعون من الملكوت انه احق لمن يقصده من بنى الانسان أجمعين .

غير أن ملكوت السماوات لا يفهم على صورة واحدة من روايات الاناجيل المتعددة ، بل لا يذكر بلفظ واحد فى جميع الاناجيل ، فان مرقس ولوقا يذكرانه باسم ملكوت الله ، ومتى يذكر باسم ملكوت السماوات ، ويتفق أحيانا أن يذكر فى جميع الاناجيل باسم ملكوت ابن الانسان .

كذلك يبدو من بعض الأقوال أنه حاضر على الأبواب ، وأن من الأحياء السامعين من لا يذوق الموت حتى يرى ابن الانسان آتيا فى ملكوته . (١٦ متى) .

ويبدو من أقوال أخرى أن المدى بعيد وان الضلال فى دعواه طويل الأمد « لا يضلنكم أحد . فان كثيرين سيأتون باسمى فيضل بهم كثير . وسوف تسمعون بحروب وأنباء ولا يحين الحين بعد . . بل تقوم امة على أمة ومملكة على مملكة ، وتحدث مجاعات وأوبئة وزلازل فى أماكن شتى ، وهذه كلها بوادر الأوجاع ، ويسلمونكم يومئذ الى الضيق فتقتلون وتبغضكم جميع الأمم فى سبيلى » . . (٢٤ متى) .

وأحيانا يأتى الكلام عنه كأنه قريب ولكنه مفاجىء مجهول الموعد : « اسهروا اذن لأنكم لا تعلمون فى أية ساعة يأتى ربكم . . ولو عرف رب البيت فى أى هزيع يأتى السارق ما سرق . . فاستعدوا أنتم كذلك . لأنه فى ساعة لا تخطر لكم يأتى ابن الانسان . .

ومن النبوءات مايقول ان ابن الانسان نفسه لا يعلم باليوم والساعة (١٣ مرقس) وان بوادره وشيكة أن تظهر فى هذا الجيل .

ويشار الى الملكوت احيانا بمعنى مشيئة الله وأوامره وفرائضه : « اطلبوا أولا سلكوت الله وبره » ٦ متى « وقد اعطى لكم أن تعرفوا ملكوت السماوات » (١٣ متى) .

وأحيانا يطلق على الرسالة التى يتعلمها التلاميذ من السيد المسيح : « أجعل لكم ملكوتا كما جعل لى أبى » ويقول لوقا « أن التلاميذ والأتباع كانوا يحسبون السيد المسيح ذاهب الى بيت المقدس أن ملكوت الله عتيد أن يظهر فى الحال » (١٩ لوقا) .

وقد رأينا فى كتب التعليقات والتفسيرات أن هذه الصفات المتعددة تستغرب وتثير البلابل بين ذوى الآراء ، كأنها أمر غير منتظر فى تقديرهم ، وهى فى اعتقادنا أقرب شىء الى البداهة وطبائع الأمور .

فيجب أن نقدر أولا أن السيد المسيح قد أشار حتما الى الملكوت الذى يفهم كل سامع أنه هو العالم الآخر ، وانه يأتى فى نهاية هذا العالم ، وأنه اذا أشار الى ذلك الملكوت رجع السامعون بالبداهة الى النبوءات التى جعلت له علامات ، والى كلام المفسرين والمترقبين الذين قرنوا تلك العلامات بنهاية الألف الرابعة أو نهاية الألف السادسة ، واختلفوا هل يأتى المسيح المرتقب ثم يعود » أو ينتهى العالم الأرضى بمجيئه ولا يكون مرجعه بعد ذلك فى هذا العالم الأرضى المعهود .

وطبيعى جدا أن يتكلم السيد المسيح عن ملكوت السماوات بهذا المعنى وأن يرجع السامعون الى تلك النبوءات ، ولا موضع للاستغراب فى هذا الصدد بل الغريب أن يخلو كلام السيد من هذا النذير ، سواء ظهر فى ذلك الوقت أو ظهر بعده فى زمن تتطلع فيه الأنظار الى النهاية والى تحقيق النذر واليسار والعلامات .

فإذا أدخلنا هذا الملكوت بهذا المعنى فى تقديرنا فليكن فى الحساب انه باب من أبواب اللبس بينه وبين الملكوت بمعانيه الأخرى ، ولا سيما الملكوت الذى تقوم عليه رسالة السيد المسيح خاصة ، كما هو الواقع فى جميع الرسالات .

ففى رسالات الأنبياء الداعين الى العالم الآخر جميعا ملكوت رضوان يتحقق فى السماء وملكوت يعمل له الناس فى هذه الحياة أو رسالة يستمعون لها فى هذا العالم فيسبقون بها الملكوت فى العالم الآخر .

هذا الملكوت أيضا ملكوت إليه الرسالة المسيحية أو ملكوت الانسان يقع فى البال حتما أن السيد المسيح قد تكلم عنه ووصف لاتباعه مطالبه ووصاياه .

ولابد من لبس هنا مع اللبس الذى يحدث من توجيه المعنى حينا الى ملكوت القيامة ، وتوجيهه حينا الى الملكوت القيامة .

أما اللبس فى مهم الملكوت الذى يدور الى تطور الدعوة على حسب قبول المستمعين لها فالملكوت فى الدعوة التى يخص بها الاسرائيليين غير الملكوت فى الدعوة التى لا يخصون بها ، بل لعلهم يطردون منها ، وتعم الأمم أجمعين .

ومرجع اللبس من جهة أخرى الى سمو الرسالة على مدارك السامعين ، ولا مناص من هذا اللبس إذا دعى السامعون الى رسالة أسمى جدا مما ترقبوه وتطلعوا اليه واستطاعوا أن يفهموه .

ولانرى أن المسافة الشاسعة بين نفس السيد المسيح وبين نفوس التلاميذ والأتباع قد برزت فى موضع من المواضع بروزها فى الأسئلة التى توالت منهم عليه وفى الخير التى دلت عليها هذه الأسئلة ، حتى نيقوديموس عضو المجمع الأعلى لم يفهم معنى الملكوت الذى يستدعى من الانسان أن يولد ولادة ثانية ويدخل اليه انسانا جديدا كما يدخل الطفل الوليد الى هذا العالم ، وحتى بعد بلوغ الدعوة ختامها ظل التلاميذ يحسبون أن الملكوت يأتى بدولة بنى اسرائيل :

﴿ فسألوه قائلين : يارب ! هل فى هذا الوقت ترد الملك الى اسرائيل ؟ فقال لهم : ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التى أودعها الأب سلطانه . . لكنكم ستنالون قوة متى حل عليكم الروح القدس ، وستكونون شهداء لى فى أورشليم وفى اليهودية جميعا ، وفى السامرة ، والى أقصى المسكونة ، .

ونعود فنقول ان اللبس طبيعى جدا فى هذا الموقف بين مقصد المتكلم ومدارك السامعين ، وأن هذا التفاوت البعيد هو الذى يؤدى بنا الى فهم الملكوت كما أراده السيد المسيح ، لأنه ملكوت لم يكن فى طاقة التلاميذ أن يخلقوه ويصوروه ، وكل ما فى استطاعتهم أن يذكروا له أوصافا متفرقة سمعوها فسجلوها والتقطوها كما يلتقط السامع الفاظا من لغة لا يفهمها ، فاذا أمكننا بعد ذلك أن نخرج تلك الألفاظ مفردات متناسقة مفهومة على صورة واحدة فتلك هى الآية على صحة تلك الصورة، وانها هى الوصف المقصود .

والأناجيل قد ذكرت وصفا متناسقا للملكوت فى مواضع شتى : ذكرت مملكة ليست من هذا العالم ، وذكرت مملكة قائمة فى ضمير الانسان فى كل زمان ، اذا ربحها فهو الغانم واذا خسرها فالعالم كله لا يجديه ، وذكرت مملكة لا يدخلها الانسان إلا بنفس طاهرة صافية كنفس الطفل البرىء ، وذكرت مملكة لا يفتحها السيف لأنه ما بالسيف يؤخذ فبالسيف يضيع . ﴿ ولما سأله الفريسيون متى يأتى ملكوت الله ؟ أجابهم : انه لا يأتى بمراقبة . ولا يقول قائل هوذا هاهنا وهوذا هناك ، لأنه هو الآن فى داخلكم ﴾ (١٧ لوقا) .

فالذين استغربوا الأوصاف ولم يروا فيها إلا التناقض والشكوك ! ماذا يصنعون بهذه الصورة المتناسقة ؟ وعلى أية صورة كانوا ينتظرون أن تأتى غير هذه الصورة مع التفاوت بين مدارك المعلم ومدارك

التلاميذ ، ومع حضور الملكوت فى أذهان السامعين بمعنى القيامة ووروده أحيانا فى كلام السيد المسيح بهذا المعنى ؟ بل كيف كانوا ينتظرون أن تأتى على غير هذه الصورة مع تطور الدعوة تطورا لا بد منه بين كلام موجه الى أمة خاصة وكلام موجه الى جميع الأمم ؟

ان الخلاصة المغربلة موجودة بين السنابل والحبوب ، ولكن العيب فى الغربال الذى لا يعمل عمله وفى حامل الغربال الذى ينسى ان الغربال لازم وان هذا موضع لزومه على التخصيص .

اذا جاءنا رجل لا يعرف اللغة الصينية ، ووضع أمامنا خطوطا وأشكالا ، وتسنى لنا أن نخرج من تلك الخطوط والأشكال كلمات تتم بها جملة مفهومة ، فتلك آية الآيات على صدق الصورة المنقولة ، وتلك الصورة اذن أحق بالاعتماد عليها من كلام الناقل الذى يستطيع أن يزيد على الكلام أو ينقص منه ، أو يدخل عليه التحوير والتبديل حسب هواه .

★ ★ ★

تحولت الدعوة من خاصة الى عامة ، ومن أمة واحدة الى سائر الأمم ، بل الى « الانسان » فردا كان ، أو عنوانا يشمل كل انسان .

وحدث هذا التحول والعالم الانسانى متهيىء للدعوة الجديدة من أعماق وجدانه ، وان لم يكن يسيرا عليه أن يفهمها حق فهمها ، أو يسبر أغوارها .

والعالم الانسانى يتهيأ لهذه الدعوات على حسب حاجته اليها ولا يلزم على الدوام أن يفهمها كما يلزم أن يحتاج اليها أو الى شىء من قبيلها .

مثله فى ذلك مثل التربة التى ينفعها المطر لأنها مهيأة له متعطشة اليه ، ولا محل هنا للحديث عن الفهم وسبر الأغوار .

كانت العلاقة العالمية ، أو العلاقة الانسانية قد وجدت من وراء أسوار الأمم والأقوام ، ولكنها قد وجدت فى بقاع من الأرض ولم توجد فى

سرائر الضمير ، ولعل الناس قد اختبروا منها أضرار العداء والبغضاء وكبرياء الجنس ونفور العصبة ، قبل أن يختبروا منها مزايا الوحدة ويتطلعوا من ورائها الى الأخوة والصفاء .

بل تحطمت أسوار الأمم والأقوام أمام وطأة الشقاء قبل أن تتحطم أمام دعوة الأخوة والصفاء ، فاتسعت رقعة العالم المتوحد لأناس من جميع العصب والسلالات ، لا يشعرون بينهم بوحدة غير وحدة العبودية والضنك ، أما فى ربقة الرق الصراح أو فى ربقة أخرى لا تقل عنها فى القسوة والنقمة ، وهى ربقة الحرمان والقنوط .

* * *

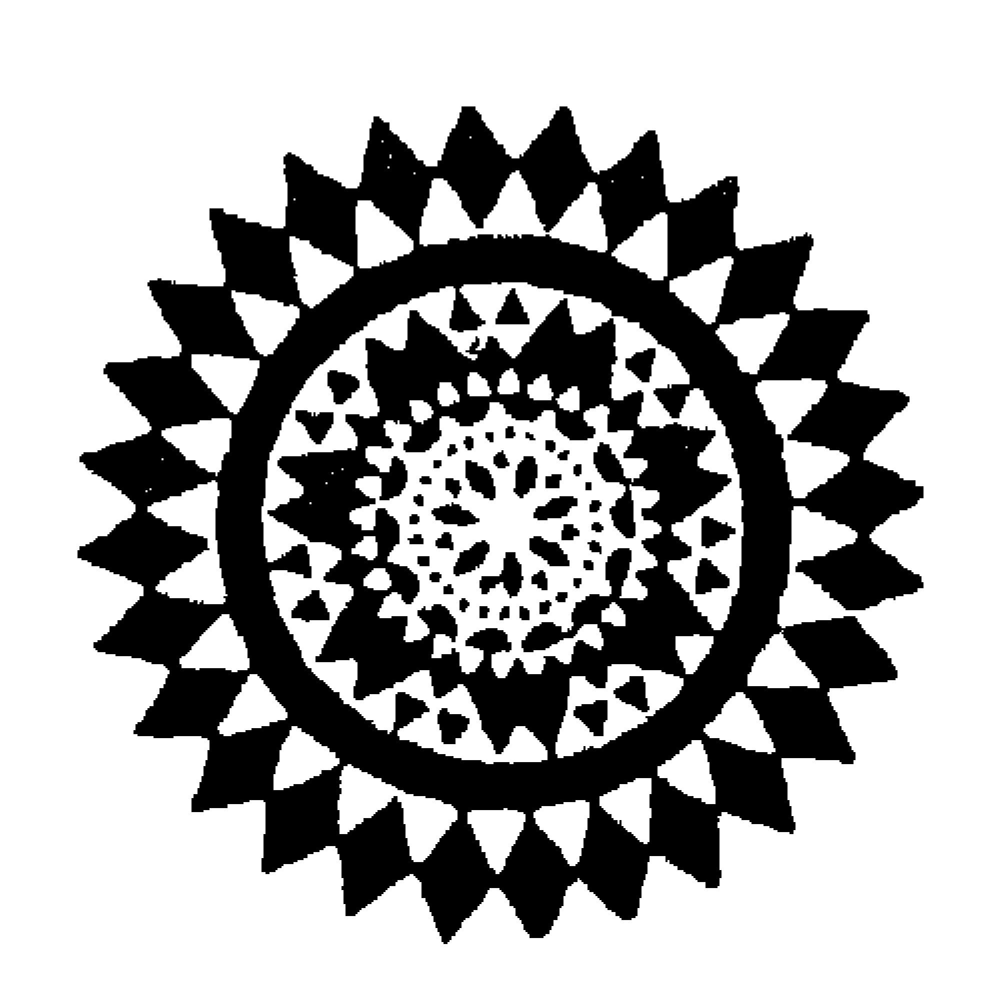
وقد كان العسير أن يتمخض العالم الوثنى عن رسول يجمع الأقوام الى دين واحد ، لأن تاريخ الوثنية لم يعهد فيه أن يخرج للدنيا رسلا تملؤهم الحماسة الروحية وتفيض منهم على من حولهم فضلا عن البعيدين عنهم ، ولم يعرف التاريخ قط داعية وثنيا تجرد للتبشير والانذار غير حافل بالموت ولا مرتدع بما يلقاه من زواجر الارهاب والوعيد ، وكل ما يحدث فى الأديان الوثنية أن تتغلب الدولة التى تدين بها على الشعوب المقهورة فتحملها على طاعة أربابها كما تحملها على طاعة قوانينها وأحكامها ، وتفرض عليها العبادات التى تتصل بالشعائر العامة والمحافل الرسمية ثم تترك لها بعد ذلك مايروقها أن تعبده من الأرباب والأصنام أما الحماسة الروحية التى كانت لازمة لتوحيد العقيدة فى العالم الانسانى فلم تعهد قط فى غير الأديان الكتابية أو الأديان الألهية ، ولم يكن لها رسل قط غير الرسل المؤمنين بالله أعظم من الدنيا وأعظم من الدول وأعظم من كل موجود .

ولحكمة من الحكم الخالدة وجد هذا الرسول فى تلك الفترة ولحكمة من الحكم الخالدة وجد هذا الرسول مطرودا فى قومه ولم يوجد بينهم مقصور الدعوة عليهم ، فوجد فيه العالم بغيته فى ساعة الحاجة اليه ، وانها لآية من الآيات التى يطول عندها تدبر الباحثين والمؤرخين . لأنها

من التوفيقات التى يكون القول بالمصادفة فيها أصعب وأعجب من القول بالتدبير والتقدير .

وتم على يد هذا الرسول نقيض ما يتم على أيدى الوثنية فى صولتها وسلطانها ، فان الوثنية تتغلب لأنها دين الدولة الغالبة ، أما هذه الرسالة ـ رسالة الملكوت السماوى ـ فقد نشأت فى عشيرة قبيلة ذليلة ، تحكمها تارة دولة الرومان الغربية ، وتحكمها تارة أخرى دولة الرومان الشرقية ، فلم يمض غير أجيال معدودات حتى غزت الدولتين واستوت على العاصمتين ، وصح مارووه عن جوليان ـ سواء قاله أو لم يقله ـ فانتصر « الجليلى » بملكوته السماوى على ممالك القياصر ، وضم القياصر الى حاشيته ، فمنه يأخذون ما أخذوه باسم قيصر وما أخذوه باسم الله !

■ ■ ■



● الباب الثالث ●

أدوات الدعوة

■ قدرة المعلم . .
■ إخلاص التلاميذ . .
■ الأناجيل . .

قــدرة المعـلم

إذا انتشرت دعوة من الدعوات الكبيرة في العالم ثبت من انتشارها شيئان على الأقل ، وهما أن العالم كان عند انتشارها محتاجا اليها ، ومستعدا لسماعها ، وهما شيئان مختلفان لا يذكران في معرض الترادف والتماثل ، لأن الحاجة إلى الدعوة كالعلة ، والاستعداد لسماعها كالشعور بالعلة أو كالاستعداد لطلب الدواء .

وقد يتفقان في وقت واحد ، وقد توجد العلة ولا يوجد معها طلب الدواء ولا قبوله اذا عرض على العليل .

وجملة ما يفهم من العصور التمهيدية التي لخصنا الكلام عليها فيما مضى أن العالم في عصر الميلاد كان محتاجا إلى الدعوة المسيحية ، مستعدا لسماعها ، سواء قصرنا الكلام على عالم إسرائيل أو عممنا به العالم أجمع .

فعالم إسرائيل كان يؤمن بالمسيح المنتظر وبموعده في تلك الحقبة من الزمن ، والعالم المعمور كان يؤمن ايمانا « سلبيا » بإفلاس الوثنية واقفار النفوس من الرجاء ، وكان عامته في بؤس ويأس ، وخاصته مستسلمين للمتاع أو مستسلمين للتصوف ، من كان منهم يفكر دان بالابيقورية أو دان بالرواقية ، ومن كان مطبوعا على التدين والبحث في شئون الغيب ، دان بنحلة خاصة من النحل السرية التي تحل فيها المراسم والشعائر محل الفرائض والعبادات .

وقد يكون الكثيرون من الخاصة بمعزل عن الابيقوزية والرواقية والنحل السرية ، فهم اذن فى حالة الخواء الذى يسبق الامتلاء ، وأسلم ما يقال عنه فى صدد العقيدة المقبلة انه لا يملك القوة على مقاومتها بقوة مثلها ، وانه قد يتفتح بقبولها فيكون شعور الخواء من أسباب الاقبال عليها والرغبة فيها .

كان العالم فى عصر الميلاد محتاجا للعقيدة مستعدا لسماعها ما فى ذلك ريب ، ولكنه مع هذه الحاجة وهذا الاستعداد لم يكن خليقا أن يظفر بتلك العقيدة عفوا صفوا بغير جهاد من رسلها ودعاتها ، وبغير كافية عالية من أولئك الرسل والدعاة .

لم يكن احتياج العالم للعقيدة ولا استعداده لسماعها مغنيا للعقيدة عن أدوات الفلاح والنجاح ،، وأولها قدرة الداعى على كسب النفوس واجتذاب الاسماع والغلبة على ما يقاومه من المكابرة والعناد .

وقد كانت هذه القدرة موفورة فى معلم المسيحية ، وبحق سمى المعلم ونودى به فى مختلف المجامع والمحافل ، لأن مهمته الكبرى كانت مهمة تعليم وايحاء روحى حيوى من طريق التعليم .

نودى المسيح بالمعلم فيما روته الأناجيل مرات : ناداه بهذا اللقب تلاميذه كما ناداه به خصومه ومن يستمعون له غير متتلمذين وغير مخاصمين .

وكان نداؤهم له بهذا اللقب لأنهم يجدون فى كلامه علما واسعا بالكتب والأسفار ، وبديهة حاضرة فى الأستشهاد بها والتعقيب عليها ، ويكفى ما بين أيدينا من الأناجيل للجزم بأنه كان يرتل المزامير وكان يحفظ كتب أرميا وأشعيا وحزقيال فضلا عن الكتب الخمسة التى نسبت إلى موسى عليه السلام ، وفضلا عن اختلاف المذاهب فى تطبيق الوصايا والأحكام .

ويرجع بعض المؤرخين انه كان يعرف اليونانية وان الحديث الذى دار بينه وبين بيلاطس كان بهذه اللغة ، لأن اليونانية كانت شائعة فى

عصره بين أبناء الجليل ، وكان كثير من اليهود خارج الجليل لا يفهمون العبرانية ولا الارامية ويحتاجون إلى ترجمة الكتب المقدسة باللغة اليونانية ، ومنهم من كان يحج إلى بيت المقدس في الأعياد ، ومن أبناء الجليل اليهود من كانوا يسافرون إلى الاسكندرية وبلاد الاغريق ولا يتفاهمون بغير اليونانية مع أبناء جلدتهم هناك ، فلا غرابة في معرفة السيد المسيح باليونانية كما كان يعرفها الكثيرون من ابناء الجليل ، ولكن المحقق انه كان يعرف العبرية الفصحى التي تدرس بها كتب موسى والأنبياء ، وانه كان يعرف الارامية التي كان يتكلمها كلام البلغاءبها ، وانه اذا عرف اليونانية فانما كانت معرفته بها معرفة خطاب ولم يكن معرفة دارسة ، لأن أقواله خلت من الاشارة إلى مصدر واحد من مصادر الثقافة المكتوبة بتلك اللغة ، ولأن العبارات التي جاءت في الأناجيل اليونانية منسوبة اليه تشف عن اصلها الآرامي بما فيها من الجناس أو من قواعد البلاغة وايقاع الألفاظ على ان هذا العلم كله بالثقافة الموسوية الاسرائيلية لم يكن فريدا بين احبار اليهود في تلك الآونة ، فربما كان في بيت المقدس يومئذ مئات من الكتبة والفريسيين حفظوا من تلك الكتب ما حفظ السيد المسيح ، واقتدروا على الاستشهاد بها والتعقيب عليها بعارضة قوية وبديهة حاضرة ، ولم تكن لواحد منهم كفاية المعلم الذي يبث الحياة الروحانية في النفوس وينفث في الخواطر تلك الراحة التي تشبه راحة السريرة ، حين تتناسق فيها الأنغام التي كانت متنافرة قبل أن تجمع وتصاغ .

لقد كانت اللغة التي حملت بشائر الدعوة الأولى لغة صاحبتها بغير مشابهة ولا مناظرة في القوة والنفاذ .

كانت لغة فذة في تركيب كلماتها ومفرداتها ، فذة في بلاغتها وتصريف معانيها ، فذة في طابعها الذي لا يشبهه طابع آخر في الكلام المسموع او المكتوب ، ولولا ذلك لما أخذ السامعون بها ذلك المأخذ المحبوب ، مع غلبته القوية على الأذهان والقلوب .

كانت فى تركيبها نمطا بين النثر المرسل والشعر المنظوم ، فكانت فنا خاصا ملائما لدروس التعليم والتشويق وحفز الذاكرة والخيال ، وهو نمط من النظم لا يشبه نظم الاعاريض والتفعيلات التى نعرفها فى اللغة العربية ، لأن هذا النمط من النظم غير معروف فى اللغة الآرامية ولا فى اللغة العبرية ، ولكنه أشبه ما يكون بأسلوب الفواصل المتقابلة والتصريعات المرددة التى ينتظرها السامع انتظاره للقافية ، وان كانت لا تتكرر بلفظها المعاد .

كان أسلوبه فى ايقاع الكلام أسلوبا يكثر فيه الترديد والتقرير ، وليس فى الترجمة العربية ما يدل عليه من قريب ، ولكنها مع التأمل تدل عليه من بعيد ، كما فى هذا المثال :

« أسألوا تعطوا .
« أطلبوا تجدوا .
« اقرعوا يفتح لكم .
« لان من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن يقرع يفتح له الباب .
« من منكم يسأله ابنه خبزا فيعطيه حجرا .
« أو يسأله سمكة فيعطيه حية .
« أو يسأله بيضة فيعطيه عقربا .
« فاذا كنتم ـ وأنتم أشرار ـ تحسسنون العطاء للأبناء ، فكيف بالأب الذى فى السماء يعطى الروح القدس لمن يسألون » .

أو كما فى هذا المثال :

« كما فى ايام نوح كذلك يكون فى أيام ابن الانسان .
« كانوا يأكلون ويشربون ويزوجون ويتزوجون ، إلى اليوم الذى دخل الفلك وجاء الطوفان وأهلك الجميع .
« كذلك فى أيام لوط كانوا يأكلون ويشربون ويبيعون ويغرسون ويبنون ، ولكن اليوم الذى خرج فيها لوط من سدوم أمطرت نارا وكبريتا من السماء فأهلك الجميع .

« هكذا يكون فى اليوم الذى يظهر فيه ابن الانسان .

« فى ذلك اليوم من كان على السقف وأمتعته فى البيت فلا يهبط اليها ليأخذها .

« ومن كان فى الحقل فلا يرجع إلى الوراء . ألا تذكرون امراة لوط ؟

« من طلب الخلاص لنفسه يهلكها ، ومن اهلكها يحييها .

« أقول لكم فاستمعوا : فى تلك الليلة يكون اثنان على فراش واحد فيؤخذ احدهما ويترك صاحبه .

« وتكون اثنتان تطحنان ، تؤخذ احداهما وتترك الأخرى .

« ويكون اثنان فى الحقل يؤخذ هذا ويترك ذاك .

« . . . حيث تكون الجثة هناك تجتمع النسور .

* * *

وقريب من هذين المثالين نذيره لأورشليم .

« يا أورشليم . . يا أورشليم .

« يا قاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين .

« كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها .

« ولم تريدوا .

« هو ذا بيتكم رهين بالخراب .

وقريب منه نذيره لبنات أورشليم :

« يا بنات أورشليم .

« لا تبكين على ، وعلى انفسكن واولادكن فابكين .

« أيام يقولون طوبى للعواقر والبطون التى لم تلد والثدى التى لم ترضع .

« أيام ينادون الجبال أن تسقط عليهم ، والآكام ان تكور غطاء لهم .

أن كان بالغض الرطب يصنع هذا ، فباليابس ماذا يصنعون ؟

* * *

هذى النماذج فيها بعض الدلالة على أسلوبه فى تركيب اللفظ وسياق النذير والتذكير .

أما أسلوب المعنى فقد اشتهر منه نمط الأمثال فى كل قالب من قوالب الأمثال ، ومنه القالب الذى يعول على الرمز ، والقالب الذى يعول على الحكمة ، والقالب الذى يعول على القياس ، والقالب الذى يعول على التشبيهات ، وكلها تتسم بطابع واحد هو طابعه الذى انفرد بين أنبياء الكتب الدينية بغير نظير ، وان كانوا قد اعتمدوا مثله على ضروب شتى من الأمثال .

فمن نماذج المثل الذى يعول على الرمز مثل الزارع والبذرو : « زارع خرج ليزرع وفيما هو فى الطريق سقط بعض البذور فجاءت طيور السماء وأكلته ، وسقط بعضها فى مكان محجر خفيف التربة فنبتت على الأثر ثم لم يلبث أن اشرقت عليه الشمس فاحترق ، واذ لم يكن له عمق فى جوف الأرض جف ، وسقط بعض البذور بين الشوك فطلع الشوك وخنقه فلم يثمر ، وسقط غيرها فى الأرض الجيدة فأعطى ثمرا يصعد وينمو ، فأتى واحد بثلاثين وآخر بستين وآخر بمائة . من له أذنان للسمع فليسمع » .

ومن نماذجه مثل فتيات العرس : « يشبه ملكوت السماوات عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس : خمس منهن فطنات وخمس غافلات . أما الغافلات فقد أخذن المصابيح ولم يأخذن معها زيتا ، وأما الفطنات فأخذن الزيت فى آنيتهن مع المصابيح ، وأبطأ مقدم العريس فغلبهن النعاس جميعا ، ثم علت الصيحة عند منتصف الليل : ها هو ذا العريس قد أقبل فاخرجن للقائه ، فالتفتت الغافلات إلى مصابيحهن تنطفىء ، وسألن زميلاتهن قليلا من زيتهن فأجبنهن : لعله لا يكفينا فاذهبن واشترين حيث يباع . وفيما هن ذاهبات قدم العريس . . وصحبته الحاضرات المستعدات إلى محفل الزفاف ، ثم جاءت الغائبات وقد أغلق الباب وطفقن ينادين : افتح لنا يا سيد .

افتح لنا يا سيد . فاجابهن من أنتن ؟ أنى لا أعرفكن ! » .

ومنه قوله : « أنا خبز الحياة . . من يقبل على لا يجوع » .

ومن نماذج المثل الذى يعول على الحكمة : « لا تطرحوا الدر أمام الخنازير » . . « بالكيل الذى تكيلون يكال لكم » . . « أيها المداوى داو نفسك » . . « خمر جديدة فى زقاق قديمة » . . « لا تدع يسارك تعلم بما تصنع يمينك » . . من ثمارهم تعرفونهم » . . « لا كرامة لنبى فى وطنه » .

ومن نماذج المثل الذى يعول على القياس . . « أن كنتم تحبون من يحبونكم فأى فضل لكم ؟ أليس ذلك شأن العشارين ؟ » .

ومنه فى تبكيت من ينكرون عليه صحبة الخاطئين : « لا حاجة بالاصحاء إلى طبيب ، وانما المرضى يحتاجون إلى الأطباء » ، ومنه : « أن كان النور الذى فيك ظلاما فالظلام كم يكون ! » .

ومن نماذج المثل الذى يعول على التشبيهات خطابه لتلاميذه « انتم ملح الأرض ، فأن فسد الملح فبماذا يصلح ؟ أنه لا يصلح اذن الا لان يلقى على التراب ويداس . أنتم نور العالم ، ولا خفاء بمدينة قائمة على رأس جبل ، وما من سراج يوقد ليوضع تحت المكيال ولكنه يرفع على المنار يستضىء به جميع من فى الدار » .

ومن نماذجه : « لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون . بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء حيث لا سوس ولا صدأ ولا لصوص . وحيث يكون الكنز يكون القلب .

وقد أثر عن السيد المسيح فى جميع الأمثال حب المقابلة بين الاضداد لجلاء المعانى وتوضيح الفوارق من وراء هذه المقابلة :

« يرون القذى فى أعين غيرهم ولا يرون الخشبية فى أعينهم » . . « يحاسبون على البعوضة ، ويبلعون الجمل » . . « فى الظاهر جدران

مبيضة وفى الباطن عظام نخرة » . . « غنى يدخل باب السماء كحبل غليظ يدخل فى سم الخياط » .

ومعظم هذه الأمثلة تأتى فى مناسباتها عفو الخاطر ، جوابا على سؤال ، أو تعقيبا على حادث عارض ، او تقريعا لمكابر ، فيندر أن يسترسل فيها المعلم البصير إلى غير المناسبة التى توحيها ، ولهذا يرجع بعض الشراح المحدثين أن الأمثلة المتوالية فى المقاصد المختلفة لم تصدر عنه فى سياق واحد أو جلسة واحدة ، وأن الخطبة على الجبل ـ وهى أحفل الخطب بالمقاصد والموضوعات ـ جمعت من متفرقات كانت منجمة على حسب الموضوعات فى أوقاتها ومناسباتها .

واذا كانت طائفة من عظات السيد المسيح جاشت بنفسه فى أوقات مناجاتها فانتظمت فيها كما تنتظم المعانى المنسوقة فى البديهة الملهمة فقد كانت سرعة البديهة تسعفه فى غير هذه الأحوال ، فتجرى كلماته فى مجراها المالوف على نسق سهل قد يظن به التحضير لانه منتظم غير مرسل ، ولكنه فى الواقع لم يكن محضرا قبل ساعته ، وغاية ما يعرض له من التحضير ان الفكر الذى يجود به لم يخل قط من التفكير فيه وانه تعود التفكير فى المواقف المتشابهة فانسكبت قوالب التعبير فى بواطن قريحته غير مقصودة ولا متكلفة ، وهى عادة يعرفها من تعودوا التفكير ، والتعبير وحضور الشعور بينهم وبين الجماهير ، وقد سمعت خطباء جادوا بابلغ آياتهم الخطابية فى لحظة من لحظات الارتجال الفياض بين الشعور المتجاوب والحماسة المنبعثة من القائل والمستمعين ، فهم مرتجلون يخيل اليهم قبل غيرهم انهم يسمعون كلاما معهودا ، ويوشك ان يتساءلوا : أين يا ترى سمعوه قبل الآن ؟ والواقع انهم نقلوه من وعيهم الخفى إلى وعيهم الظاهر فكان شأنهم كشأن سامعيه فى استغرابه ، والواقع ايضا ان الناس حين يستمعون اليه يرونه غريبا وقريبا فى وقت واحد : قريبا لانه كان يساورهم

ولا يدركونه ، وقريبا لانهم تمثلوه بفضل بلاغة القائل بعد استعصائه على الادراك . .

* * *

ومن كان كالسيد المسيح تربى منذ طفولته على التلاوة فى كتب الأنبياء وتتابعت على سمعه ولسانه أصداء المزامير المرتلة ، والأمثال المرددة ، واستقامت فطرته على الوحى والايحاء فليس أقرب اليه من أن ينطلق بكلام يحيك فى الاسماع بهاتف الصحف الأولى وهو من نبع فؤاده واملاء بديهته ، وهذه هى البديهية التى كان يعنيها حين يوصى تلاميذه بالاعتماد على الطبع وترك الاهتمام بالتزويق ، والتنميق قبل الساعة التى تدعوهم دواعيها للخطاب .

ولعل سامعى العظات الدينية فى عصر المسيح قد سمعوا الأمثال فى قوالبها مرات كثيرة ، ولعهم كانوا يعاودون سماعها كلما دخلوا معبدا أو استمعوا إلى خطيب فى غير المعابد ، فان نقاد البيان العبرى والآرامى يردون هذه الصيغ البيانية إلى عصور قديمة سبقت مولد المسيح بمئات السنين . فلم يكن المسيح مبدعا للأمثال ولا لقوالبها التى تعول على الرموز أو الحكم أو التشبيهات أو منطق القياس ، ولكن الأمر المحقق أن سامعى ذلك العصر لم يعرفوا قط أريحية كتلك الاريحية التى كانت تشيع فى أطوائهم وهم يصغون بأسماعهم وقلوبهم إلى ذلك المعلم المحبوب الذى كان يناجيهم بالغرائب.والغيبيات مأنوسة حية يحسبون أنها حاضرة فى أعماقهم لم تفارقهم ساعة أو بعض ساعة ، لفرط ما كان يغمرهم من حضوره المشرق ويستولى عليهم من عطفه الطيب وحنانا الطهور .

ومن البيان ما يروع ويهول ويخيل إلى سامعه أنه يبتعد من مصدر كلما أصغى اليه ، ومنه ما يجذب ويقرب ويخيل إلى سامعيه أن ك كلمة منه ترفع حاجزا أو تدنى مسافة وتزيل وحشة بين القا والسميع . . من هذا البيان كان بيان المعلم المحبوب القدير على تقرب

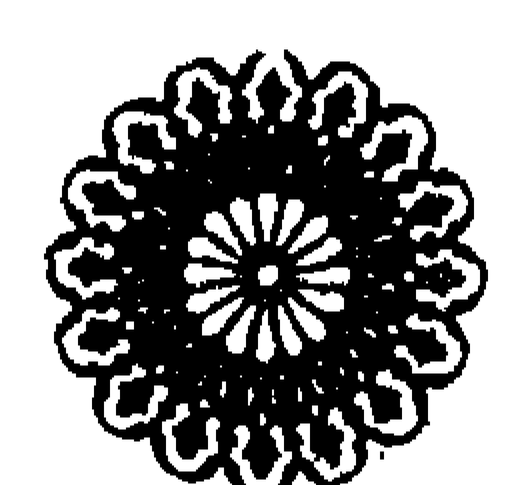
سامعيه بالعطف والافهام ، فمن فهم قريب ومن لم يفهم غير بعيد ، وفى وسعنا أن نتخيل أولئك المستمعين البسطاء يقبلون على الاستماع وهم فى ظلام الجهالة لا يدرون ماذا سيسمعون ثم تتفتح فى أذهانهم الخواطر ، وتتفتق فيها الأشياء وتتبين الفوارق بين الاضداد فينجاب الظلام سدفة بعد سدفة ويعقبه النور قبسا وراء قبس ، ويداخلهم على مهل شعور الأعمى الذى يسترد بصره مشدوها بالرؤية لأول مرة ، أو شعور المدلج الذى يصحب الليل من السحر إلى الفجر إلى الصباح : هداية فى رفق ورحمة ، واقتراب فى غير عناء ولا اقتحام .

فى وسعنا أن نتخيل أولئك البسطاء يقتربون من معلمهم بالفهم والمعرفة ، أو يقتربون منه بالعطف والمودة .

وفى وسعنا أن نتخيل من ثم فضل الرسول فى الرسالة . فلا رسالة فى الحق بغير رسول ، ولا سبيل إلى قيام المسيحية بغير مسيح ، فان مصدر الرسالة الروحية هو زبدتها وجوهرها ، وهو الأصل الأصيل فى قوتها ونفاذها ، وكل ما عداه فروع وزيارات .

لقد كان لب الرسالة المسيحية فى لب رسولها المسيح : هداية انسان لاصولة له على أحد غير العطف والالهام ومكاشفة القلوب والافهام ، ولو لم يكن فضل الرسول هو فضل الرسالة لقد كان يوحنا هو الأولى بالسبق فى الميدان لانه صاحب السبق فى الدعوة وصاحب السبق فى الشهادة ، ولكنها دعوة كانت تنتظر صاحبها ، وصاحبها هو المسيح . . وكانت حاجة العالم كله إلى الدعوة المطلوبة لا تكفى بغير صاحبها القادر عليها . . والصالح لاقامتها ، لان صاحب الحاجة لا يملك بالبداهة ما هو محتاج اليه .

* * *



إخلاص التلاميذ

فضل التلاميذ الأول فى كل دعوة انهم دعاة ، أى انهم شركاء للمعلم فى نشر الدعوة .

أما الفضل الأول للتلاميذ فى الدعوة المسيحية فهو انهم مستجيبون ، فلم يكونوا قادة يدعون غيرهم إلى صفوفهم بل كانوا فى الواقع هم الصف الأول السابق إلى الاستجابة ثم تلته صفوف أخرى من أمثاله ، ليس فيهم قائد ولا مقود ، وكلهم فى قبول الدعوة سواء .

كان فضل التلاميذ فى الديانة المسيحية انهم أول القابلين ، ولابد ان نعلم هذا الفارق بين طبيعة القابلين وطبيعة العاملين .

فالتلاميذ بالنسبة إلى السيد المسيح هم أمته الصغرى ، كبرت مع الزمن على هذا المثال ، فأصبحوا أمة كبيرة تقتدى بتلك الأمة الصغيرة فى الاستجابة ، فهم سابقون أعقبهم لا حقون من قبيلهم وهم الصف الأول فى الجيش الواحد ، وليسوا هم جيشا يقابل جيشا آخر بالدعوة فيلبيه وينضوى اليه .

كانوا نموذج الأمة المسيحية فى أول الرسالة ، ومضى على الأمة المسيحية عدة أجيال وهى لا تخالف هذا النموذج فى التكوين ولا فى الطراز ، ومن هنا نقول ان التلاميذ لم يكونوا دعاة فرضوا عقيدتهم على اناس غيرهم ، ولكنهم وغيرهم جميعا مستجيبون للدعوة فوجا بعد فوج ورعيلا وراء رعيل .

ان الدعوات قادة ومقودون .

ولكن التلاميذ فى الدعوة المسيحية لم يكونوا قادة لغيرهم ، بل كانوا هم السابقين من صفوف تلاحقت وتعاقبت ، لا فرق فى بنيتها بين أولين وآخرين .

وليس فى سيرتهم الأولى ما يفهم منه انهم مميزون بصفة القيادة فهم جميعا من بيئة واحدة ، وربما كانوا جميعا من سلالة متقاربة أو بيوت متجاورة . كانهم وقعت عليهم القرعة بين المتشابهين والمتماثلين ، ثم امتازوا بعد ذلك بالتعليم والتدريب على يدى السيد المسيح .

وكان السيد المسيح ينظر إلى بعضهم فيقول له : اتبعني . فيتبعه ولا يظهر عليه انه أفضل من غيره بمزية عقلية أو نفسية الا أن تكون المزية التي يتوسمها فيه السيد فيدعوه من أجلها ، وهى مزية الاصغاء والاتباع .

ولم يبد منهم انهم أقدر على فهمه من الآخرين ، فلو اصابت القرعة اثنى عشر آخرين لكانوا فى مثل قدرتهم على التعلم واستعدادهم للقبول ، لان كفاءتهم ولا شك هى الكفاءة الوسطى فى كل طائفة بهذا العدد ومن هذه البيئة ، فلم يكن منهم علم بارز لا يتكرر بهذه النسبة فى اية جماعة يقع عليها النظر للوهلة الأولى ، فلا يقال فى واحد منهم انه واحد من مائة أو واحد من ألف لا يتكرر ، او ان واحدا منهم تعلم مالا يتعلمه أمثاله لو حضروا كما حضر على معلمهم القدير . بل كل ما يقال انه مجند يشبه غيره من المجندين ، والفضل للقائد بعد ذلك فيما ظفر به من التدريب والتهذيب .

وقد وقع عليهم الاختيار كما جاء فى الأناجيل .

ولكن لا يبدو من ذلك الاختيار انه كان اختيارا نادرا أو مستعصيا على القائد الحكيم الحصيف ، ولعل العامل الأكبر فيه انهم مختارون من طائفة متعارفة متآلفة ، وان اجتماعهم هكذا خير واصلح من اجتماعهم بددا من بيئات متباعدة ، فان المتآلفين اولى بمصاحبة بعضهم بعضا من المتباعدين .

ونحسب ان التشبيه بالتجنيد هنا خليق ان يقرب إلى الأذهان هذا المعنى الذى نرى له المكان الأول فى فهم الدعوة وأسباب سريانها .

فالمجندون يقترعون ، وكلهم متماثلون فى شروط التجنيد ، ولكنهم مع هذا يعرضون على القائد فيعزل منهم فئة متجانسة فيما يراه ، وكل الفئات الأخرى تضارعها على الجملة فى شروط التجنيد .

لم يكونوا طينة من البشر غير طينة السواد لولا تلك النفحة العلوية التى نفثتها فيهم روح المعلم القدير .

كان يعرف عيوبهم ، وكانوا فى أمانتهم واخلاصهم لا يغالطون أنفسهم فى تلك العيوب .

* * *

كان يخاطبهم فلا يفهمونه فيسالونه مزيدا من التوضيح ، وكان يخامرهم الشك فيحسه منهم فلا ينكرونه ، وربما فاتحوه بالشك إبتداء وسألوه ان يزيدهم ايمانا ، فيزيدهم ويعلمهم كيف يتقون أمثال هذه الشكوك .

ولم يحسب قط انهم طود لا يتزعزع وانهم عزيمة لا تتضعضع وانهم يواجهون المحنة فى كل حال ولا يدركهم ضعف النفس يوما أمام هول من الأهوال .

فقد انبأهم انهم سيتخلون عنه ، وقد ناموا وهو يسألهم ان يسهروا معه ، وقد لامهم غير مرة لانهم يتنافسون على السبق أو لانهم يستبطئون جزاءهم على الايمان ، أو لانهم – بعد وعظهم وتذكيرهم – لم يزالوا يفرقون بين الناس ويدينون بشريعة غير شريعة الحب والغفران ، ولم يكن على اليقين ينتظر منهم أكثر مما نظر ، أو تفوته منهم فى أوائلهم حالة ظهرت له فى أواخرهم ولكنه علم المطلوب منهم كله فوجد فيه الكفاية : علم انهم نموذج لغيرهم يتكرر على مثالهم ، وليس مطلوبا من الناس فى العالم الواسع ان يدركوا مقاما من الايمان فوق مقام الاخلاص وحسن الاستعداد لاصلاح العيوب ، وهذا المقام قد

ادركه التلاميذ يوم وكل اليهم ان يسبحوا فى أرض الله ويجعلوا من أنفسهم مثلا يقتدى به المخلصون .

فهو لم يقصد اعدادهم ليخرجهم طرازا معصوما لا عيب فيه ولا مأخذ فيه ، ولكنه قصد اعدادهم ليحسنوا القدوة ويجمعوا حولهم من يسلك مسلكهم ، ويستقبل معهم قبلتهم ، ويكلفوا أنفسهم غاية ما يستطيعون ، وقد يستطيع من يقفوهم فوق ما استطاعوه .

* * *

ومن العبارات ذات المغزى الكبير فى الأنجيل ان المسيح مضى شوطا بعيدا فى دعوته ولم يقل لهم انه هو المسيح المنتظر ، فشاع ذكره فى القرى وتساءل الناس عنه : من يكون ؟ فمنهم من يقول انه يوحنا المعمدان قد بعث من الموتى ، ومنهم من يقول انه الياس ، ومنهم من يقول انه نبى مبعوث ، والمسيح لا يقول للتلاميذ انه المسيح . بل سألهم بعد شيوع ذكره وتساءل الناس عنه : وأنتم من تقولون انى أنا هو ؟ فأجابه بطرس : أنت المسيح . فانتهره واوصاهم الا يذكروا ذلك لأحد فى رواية أنجيل مرقس . أما فى أنجيل متى فقد روى ان بطرس قال :

« أنت هو المسيح بن الله الحى » فأجاب يسوع وقال : طوبى لك يا سمعان أبن يونا . أن مخلوقا من لحم ودم لم يعلن لك ولكنه أبى الذى فى السماوات . وأنا أقول لك انك أنت بطرس (١) وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، واعطيك مفاتيح السماوات فكل ما تربطه على الأرض

(١) الكلمة الآرامية صفا بمعنى حجر كما فى العربية وبطرس « بيتر » هى ترجمة الكلمة باليونانية .

يكون مربوطا فى السماوات . وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السماوات ثم اوصى تلاميذه الا يقولوا لأحد انه هو يسوع المسيح » .

أما فى أنجيل لوقا فالرواية أقرب إلى رواية أنجيل مرقس : « ففيما هو يصلى على انفراد كان التلاميذ معه فسألهم قائلا ماذا تقول الجموع عني ؟ فأجابوا انهم يقولون يوحنا المعمدان ، وآخرون يقولون الياس وآخرون يقولون ان نبيا من القدماء قام . ثم سألهم : وأنتم من تقولون ؟ فقال بطرس : مسيح الله . فانتهرهم وأوصاهم ألا يقولوا ذلك لأحد » .

★ ★ ★

والرواية فى يوحنا أقرب إلى تصوير ما قدمناه ، فان السيد المسيح أحس ان الناس يتراجعون عنه .

« وان كثيرا من تلاميذه رجعوا إلى الوراء ولم يمشوا معه ، فقال للاثنى عشر : العلكم أنتم تريدون أيضا ان تذهبوا ؟ فأجاب سمعان بطرس : يارب ! إلى أين نذهب ؟ كلام الحياة الابدية عندك ، ونحن قد آمنا وعرفنا انك أنت المسيح ابن الله الحى . فأجابهم : الست أنا اخترتكم . . وواحد منكم شيطان ! » .

وقد تسمى كثيرون باسم التلاميذ فقال لهم كما جاء فى انجيل يوحنا :

« قال يسوع لليهود الذين آمنوا به انكم ان ثبتم في كلامي كنتم بالحقيقة تلاميذى ، وتعرفون الحق والحق يحرركم . فأجابوه : اننا ذرية ابراهيم ولسنا عبيدا لأحد فكيف تقول انكم ستصيرون أحرارا ؟ قال : الحق الحق أقول لكم ان كل من يعمل للخطيئة فهو عبد للخطيئة ، والعبد لا يبقى في البيت أبدا . انما يبقى فيه الابن إلى الأبد . فان حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحرارا . . أنا عالم أنكم ذرية ابراهيم . لكنكم تريدون قتلي لأن كلامي لا يقع منكم موقعا . .

أنا أتكلم بما رأيت عند أبى وأنتم تعلمون ما رأيتم عند أبيكم ، فأجابوه : ان أبانا ابراهيم . قال : لو كان أباكم لعملتم عمله ولكنكم الآن تطالبون دمى وأنا انسان كلمكم بالحق الذى سمعه من الله . هذا لم يعمله ابراهيم وأنتم تعملون أعمال أبيكم . فقالوا له : اننا لم نولد من سفاح لنا أب واحد هو الله . قال : لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأنني خرجت من قبل الله وأتيت اليكم . انني لم آت من نفسي بل هو أرسلني . . أنتم من أب هو ابليس . . » .

فأجابه اليهود :

« لحسن تقول انك سامرى بك شيطان . وبعد أن قال لهم : ان من يحفظ كلامي لن يرى الموت عادوا يقولون الآن تبين لنا أن بك شيطانا . قد مات ابراهيم وانت تقول : ان حفظ أحد كلامي لن يذوق الموت . من تجعل نفسك ؟ ألعلك أعظم من أبينا ابراهيم الذى مات » .

والعبرة من هذه القصة أن السيد المسيح مضى في دعوته زمنا ولم يذكر لتلاميذه انه هو المسيح الموعود ، وانه كان يعلم ممن يطلبون التتلمذ عليه انهم لا يدركون ما يقول ، ولا يفرقون بين لغة الحس ولغة الروح أو لغة المجاز ، وانه أشفق يوما أن ينفض عنه تلاميذه المختارون كما انفض هؤلاء الذين أرادوا أن يحسبوا أنفسهم من التلاميذ وزعموا انهم مثله فأنكر عليهم دعواهم وقال لهم : انما بنوة الله بالأعمال وانما أنتم بأعمالكم أبناء ابليس !

وقد علم المسيح انه لن يبقى طويلا مع طلاب التلمذة عليه إلى الأبد ، وانه لن يبقى معهم حتى يبلغوا من الدراية والايمان تلك الغاية المثلى التي ليس فوقها غاية فان صمد معه أناس يضعفوا تارة ولا يحسنوا فهمه تارة أخرى ولكنهم يحسنون الظن ويترقبون الأمل في الخلاص من هذا الطريق ، فأولئك على علاتهم خير من المتتلمذين الذين يسيئون الفهم ويستكبرون ويأتمرون به ليقضوا عليه .

* * *

والشائع أن التلاميذ كانوا طائفة من صيادي السمك في بحر الجليل ، والمفهوم من هذا عند أناس ممن يعرفونهم بالصناعة على السماع انهم في طبقة عمال الصيد الأميين ، ولكنه فهم متعجل مبني على قياس غير صائب . اذ الواقع انهم كانوا طائفة تقرأ وتكتب وتتردد على مجامع الوعظ والصلاة وتراجع ما قيل عن النبوءات ، لم يبلغوا في العلم مبلغ الفقهاء في زمانهم ، وهو خير لأنهم لو كانوا من فقهاء زمانهم لركبهم الغرور وقابلوا الدعوة بالتحدي والمكابرة ، ولكنهم لم يبلغوا كذلك مبلغ الأمية الجاهلة في الغباء ، وكان منهم من نسميه في عصرنا هذا

بكاتب الحسابات أو مأمور التحصيل وهو متى العشار صاحب الانجيل المعروف باسمه ، وقدرته على كتابة انجيل « باللغة اليونانية كما هو الأرجح » قدرة لا تتآتى لغير المثقفين ومنهم يوحنا الذى ينسب اليه الانجيل الرابع ، وهو ابن خالة المسيح أو من بنى خؤولته ، وكان صاحب عمل ناجح فى تجارة السمك يشاركه فيه أخوه يعقوب كما يؤخذ من أنجيل مرقس حيث يقول : انهما تركا أباهما فى السفينة مع الاجراء وذهبا وراء السيد المسيح .

ومنهم جيمس قريب المسيح ويوحنا و « ابن الرعد » كما سماه المسيح لقوته فى الانذار وتشديد النكير ، ومنهم بطرس وهو متكلم جرىء صلب العزيمة مدرب على حمل السلاح كما يؤخذ من بعض أخبار الانجيل ، وكلهم كانوا على استعداد للمناقشة والمساجلة ومخاطبة الناس فى أمر الدعوة ، وأكثرهم واجه الموت فى عمله لنشر الدعوة ولم يحفل بمقاومة ذوى البأس والسلطان وقد إستمالت الدعوة اليها فى عصر المسيح وبعد عصره طائفة من المثقفين العلماء مثل نيقوديمس عضو المجمع الأعلى ، ومثل الطبيب لوقا صاحب بولس الرسول ، ومنهم بولس الرسول نفسه وهو أستاذ فى فقه الدين عالم بالتواريخ ، وأكثر هؤلاء المثقفين مالوا إلى الدعوة عطفا على التلاميذ المجاهدين الذين نكلت بهم السطوة الغاشمة ، لأنهم خارجون على نظام من العقيدة والعادة يحتقره أولئك المثقفون ولا يجهلون فعل الحماسة الروحية فى تقويضه أو الاجهاز عليه .

* * *

ومن المعاصرين من يحلو له أن يحسب السيد المسيح داعيا إلى الفوضى السياسية متحللا من النظام ، لشدة انحائه على الشريعة والجامدين عليها والمنافقين باسمها ، وفاتهم أن الشريعة الفاسدة فى أيدى الجامدين أو المنافقين هى الفوضى فى صورة أخرى ، ومن يدحضها وينحى عليها لن يكون من الفوضويين ولا أعداء النظام .

أما البينة فى الواقع على سخف هذا الحسبان فهى تنظيمه لتلاميذه وترويضه لهم على الطاعة وانكار الذات ، وتقسيمه للأعمال فى مجتمعه الصغير ـ مجتمع التلاميذ ـ بين أمين للصندوق ، ومباشر لمطالب الجماعة ، وراع يرعى القطيع فى غيبة السيد ، وهم فئة قليلة لا تجاوز العشرين مع حسبان التلاميذ وغيرهم من الطارئين .

وأدخل من هذا فى باب التنظيم انه اختار أولا أثنى عشر تلميذا ثم اختار بعدهم سبعين وأوصاهم أن ينطلقوا بالدعوة اثنين اثنين فى كل اتجاه ، وانهم حين عادوا من رحلتهم أخذهم ناحية فى الجبل ليستمع منهم ويراجع أعمالهم ، ويزيدهم من الوصية والارشاد .

* * *

وقد جعل كل مناسبة للدعوة مناسبة لتعليم اولئك التلاميذ المختارين ، وكان يحذرهم على الدوام من الفتنة الموبقة التى يتحطم عليها نظام كل جماعة . . وهى فتنة التنافس على الرئاسة ، فعلمهم ان الأول فيهم هو خادمهم الأول ، وضرب لهم مثلا فذا فى تاريخ الدعوات ليوقوا جماعتهم غواية الرئاسة كلما ذكروه ، فجمعهم فى محفل ليغسل أقدامهم بيديه ، ونفر بعضهم أول الأمر ولكنهم عادوا فأذعنوا حين علموا العبرة التى عناها بهذه القدوة ، وقال الذين نفروا أول الأمر من هذا التقليد انهم يودون لو يأمرهم بأن يطيعوه فى غسل الأيدى والرءوس . .

وحصر جهده كله فى تعويدهم « انكار الذات » وهو فضيلة الفضائل فى الأعمال العامة ، فعلمهم ان يعملوا ولا ينتظروا جزاء على عملهم ، ثم اذن لهم ان يقبلوا ضيافة البيوت التى يدخلونها لدعوة أهلها ، ولكنه قال لهم :

« لا تحملوا كيسا ولا مزودا ولا أحذية . .
وأى بيت دخلتموه فقولوا سلام . . وأى مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا إلى سبلها وانفضوا غبارها من أرجلكم » .

وكرر لهم الوصية بالبساطة فى العمل والكلام فأمرهم :

« الا يشغلوا بالهم كيف ومتى يتكلمون لانهم يلهمون فى تلك الساعة ما يقولون ، وليسوا هم المتكلمين بل هو روح أبيهم يتكلم فيهم » .

ولم يخف عنهم انهم ملاقون ويلا من الناس فليكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام . أما اذا جد الجد فلا يخافن من يهلك الجسد وليخافن من يهلك الروح .

وقد اثمرت رياضة الحب فى تدريب هذا الجند الروحانى مالا تثمره رياضة القسوة والصرامة فى تدريب جنود القتال فخرجوا يعملون وهم يعلمون ان الونىاء فى أداء الأمانة يصغرهم أمام أنفسهم ، ويصغرهم أمام الله ، وليس اقسى على النفوس من الشعور بهذا الصغار .

وما هو الا ان حان موعدهم ليعملوا وينتشروا فى الأرض حتى خرجوا إلى كل وجهة وأبعدوا الرحلة فى كل مكان معمور ، فمنهم من وصل إلى جزر الهند الشرقية كالرسول توما ، ومنهم من وصل إلى سكيثية وآسيا الصغرى كالرسول اندراوس ، ومنهم من شغل بنفسه فى البلاد الأوربية فارسل صحابته إلى أفريقية الشمالية ، وعمت الدعوة مصر وبلاد العرب والعراق ، فضلا عن الدعوة فى فلسطين .

ولكنهم لم يحفلوا بخطاب أبناء اليهودية كما حفلوا بخطاب « الأمم » فى الجليل وآسيا الصغرى والاسكندرية ، وأفادهم التمهيد الذى سبقهم به طوائف اليهود وأصحاب النحل السرية فى تنظيم الدعوة ، فعملوا كما كان يعمل الآسون والغلاة الغيورون ، يخرجون

اثنين اثنين وينشرون الخلايا فى كل بقعة ، ويحفظون الصلة بين تلك الخلايا بالمراسلة والزيارة ، وهنا يصح ان يقال ان الدعوة الجديدة استفادت من الدعوات التى سبقتها فى العصر السابق لعصر الميلاد ولا جرم يكون أكبر النجاح الذى اصابوه ملحوظا فى آسيا الصغرى والاسكندرية حيث عرف من قبل نظام الخلايا والسياح المتنقلين من الوعاظ .

كذلك يبدو أثر « الحالة العالمية » فى انتشار الدعوة الجديدة من مظاهرة رائعة تكررت فى كل أمة . فقد كان المدعوون إلى الدين الجديد من جماهير الناس سراعا إلى القبول ، حراصا على المعاونة والتأييد ، ولم يصب الرسل خطر الا من قبل « السلطة » الغالبة ، حيث تصطدم عبادة القياصرة بعبادة الله .

وكان أشدهم حماسة لدينه يلجأ إلى المجاملة رجاء ان تكسبه هذه المجاملة بعض المؤمنين الذين يعرضون عن الدعوة اذا واجهتهم الصراحة بغير تقية ، فكان بطرس فى انطاكية يجامل المحافظين ولا يعاشر أبناء الأمم كلما احس حوله بقوم من « آل يعقوب » فوبخه الرسول بولس علانية وحذره من مخالفة الدعوة فى سبيل مرضاة الناس .

على أن بولس نفسه كان يتألف القلوب ببعض المجاملة ، وكان كما قال فى سفر كورنثوس الأول « استعبدت نفسى للجميع لكى أربح الأكثرين ، وصرت لليهودى كيهودى لأربح اليهود وللناموسيين كالناموسيين ولغيرهم كأننى بغير ناموس . صرت لكل كل شىء لعلى استخلص من كل حال قوما » .

ومن ثم ولا شك خالط المسيحيين الأول أناس ممن تحولوا إلى المسيحية من الوثنية ، ونقلوا معهم بعض عاداتها وشعائرها ، وشملهم الأغضاء حينا لعلهم بعد هجر الوثنية يستقيمون على منهاج الدين الجديدة .

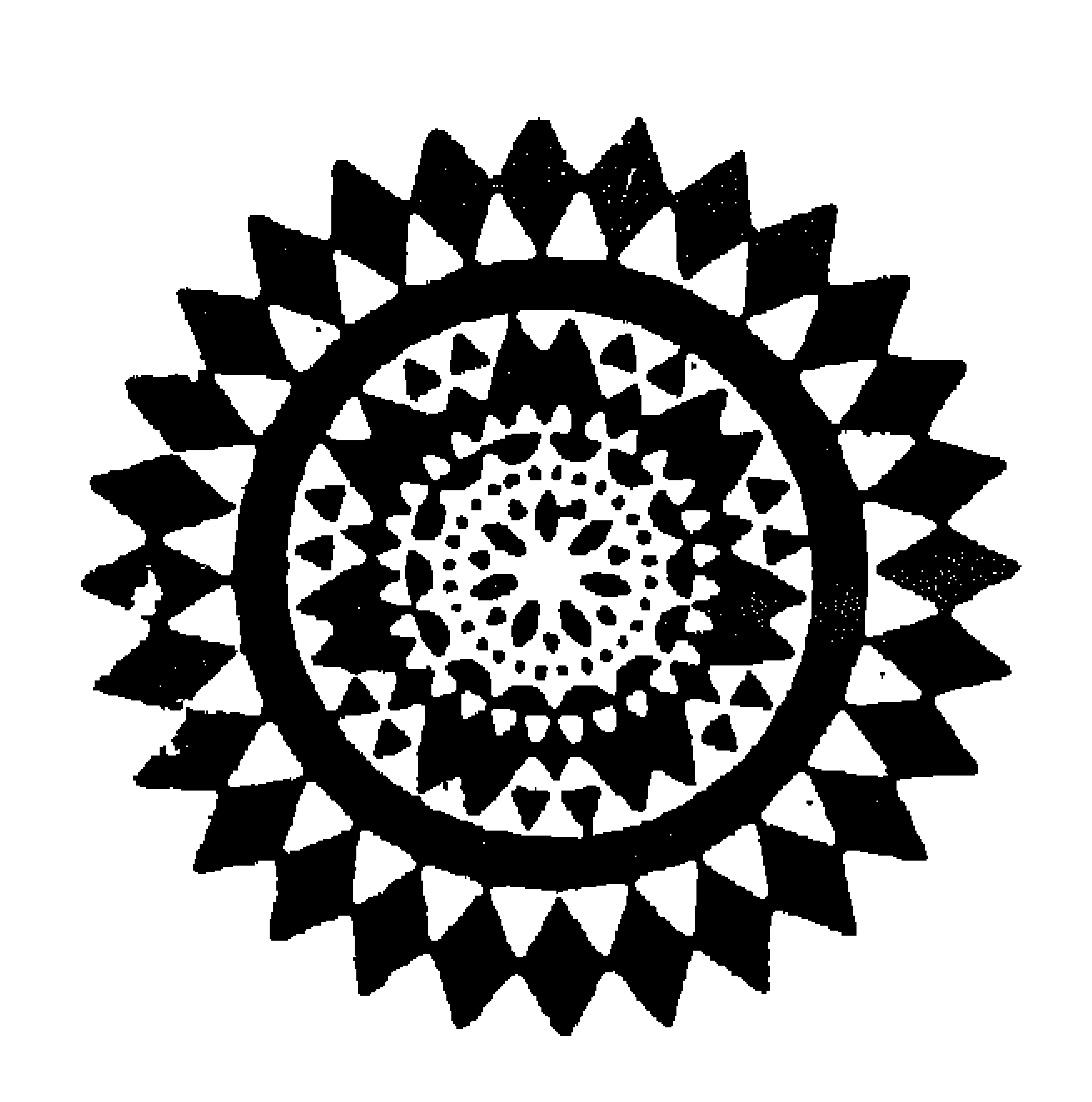
ومن بدع القرن العشرين سهولة الاتهام كلما نظروا فى تواريخ الاقدمين فوجدوا فى كلامهم أنباء لا يسغونها وصفات لا يشاهدونها ولا يعقلونها ، ومن ذلك اتهامهم الرسل بالكذب فيما كانوا يثبتونه من اعاجيب العيان ، أو اعاجيب النقل والرواية ، ولكننا نعتقد ان التاريخ الصحيح يأبى هذا الاتهام لانه أصعب تصديقا من القول بأن اولئك الدعاة ابرياء من تعمد الكذب والاختلاق ، فشتان عمل المؤمن الذى لا يبالى الموت تصديقا لعقيدته ، وعمل المحتال الذى يكذب ويعلم انه يكذب وأنه يدعو الناس إلى الأكاذيب ، مثل هذا لا يقدم على الموت فى سبيل عقيدة مدخولة وهو أول من يعلم زيفها وخداعها ، وهيهات ان يوجد بين الكذبة العامدين من يستبسل فى نشر دينه كما استبسل الرسل المسيحيون : فاذا كان المؤرخ الصادق من ياخذ بأقرب القولين إلى التصديق فاقرب القولين إلى التصديق ان الرسل لم يكذبوا فيما رووه وفيما قالوا أنهم رأوه أو سمعوا ممن رآه ، وليس بالمخالف للمعهود فى كل زمن ان يصدق الانسان عيانا ما يصدقه فى قرارة نفسه ، وبخاصة حين يجمع الألوف على تصديقه ولا يوجد بين قائليه وسامعيه من يحسبه من المستحيل .

وليذكر ادعياء التمحيص فى عصرنا هذا اننا نطلب من الرجل فى القرن الأول للميلاد ان يكذب انسانا لغير سبب وهو يطمئن اليه ولا يتهمه بالتلفيق والاختلاق . ومن التكذيب لغير سبب فى ذلك العصر ان يبادر السامعون إلى تكذيب الرواة كلما تحدثوا عن المعجزات ، فذلك شبيه فى عصرنا هذا بمن يكذب انسانا لانه سمعه يتحدث عن ظاهرة فلكية وصناعية لا غرابة فيها ، ولا سيما اذا كان المتكلم غير معهود فيه ان يتعمد الكذب والاختلاق .

ان اسخف السخف ان يقال ان دينا من الأديان قام على الاعاجيب والخوارق . ان تصديق الخوارق والاعاجيب هو نفسه ايمان كاقوى الايمان ، وما خلت دعوة دينية قط من أحاديث هذه الخوارق

والاعاجيب ما يعقل منها وما لا يعقل ، ولكن لم يحدث قط اقبال كذلك الاقبال الجارف الذى تلقى به الناس رسل المسيحية ، لانهم تلقوهم بنفوس مقفرة متعطشة ، ونظروا امامهم فرأوا قوما مثلهم يؤمنون غير مكترثين لما يصيبهم وغير متهمين فى مقاصدهم ، فأصغوا اليهم وآمنوا كايمانهم ، ولولا ثقة المسيح عليه السلام بهذا الاقبال لما أوصى تلاميذه ان يذهبوا حيث يستمع لهم وينفضوا عن أقدامهم غبار كل بلد يتلقاهم بالصدود والنفور .

* * *



الأناجيل

الانجيل كلمة يونانية بمعنى الخبر السعيد أو البشارة ، وقد تداول المسيحيون في القرن الأول عشرات النسخ من الاناجيل ثم اعتمد آباء الكنيسة أربع نسخ منها بالاقتراع - أي بكثرة الأصوات - وهي انجيل مرقس وانجيل متى وانجيل لوقا وانجيل يوحنا ، مع طائفة من اقوال الرسل المدونة في العهد الجديد .

ويرجع المؤرخون المختصون بهذه المباحث ان الاناجيل جميعا تعتمد على نسخة آرامية مفقودة يشيرون اليها بحرف « ك » مختزلة من كلمة كويل Quelle بمعنى الأصل ، ومنهم من يسمي هذه النسخة « لوجيا » Lógia بمعنى الأقوال ، ويريدون بها الأقوال الشفوية التي سمعت ثم كتبت على القول الراجح عندم باللغة الآرامية ، ويعللون اتفاق متى ولوقا في بعض النصوص باعتمادهما معا على تلك النسخة المفقودة .

اما الاناجيل الموجودة الآن فقد كتبت جميعا باليونانية العامة Koine ولوحظ في ترجمتها انها تعتمد على نصوص آرامية وتحافظ على ما فيها من الجناس وترادف المعاني والمفردات ، وتتفق الآراء على ان هذه الاناجيل لا تحتوى كل مافاه به السيد المسيح ، إذ جاءت في أعمال الرسل التي تضمنها العهد الجديد كلمة منسوبة إلى السيد المسيح لم ترد في الاناجيل وهي « تذكروا كلمات المسيح ان العطاء مغبوط أكثر من الاخذ » . وجاءت في الاناجيل الأخرى التي لم تعتمد كلمات من هذا القبيل ، وكشفت أوراق بردية في مصر ترجع إلى منتصف القرن الثاني لا تشبه الاناجيل المعتمدة في نصوصها .

وتتفق الآراء أيضا على ان نسختين من الاناجيل كتبهما مسيحيان لم يجتمعا بالسيد المسيح ولم يسمعا منه ، وهما نسخة مرقس التى دون فيها ما سمعه من بطرس الرسول بغير ترتيب وعلى غير قصد منه ان تجمع فى كتاب ، وقد كتبها فى رومة بعد مقتل الرسول وليس معه أحد من التلاميذ . ويتراوح تاريخ كتابتها بين سنتى سبع وستين وسبعين .

والنسخة الأخرى هى نسخة لوقا صاحب بولس الرسول . دون فيها ما سمعه منه ، ولعله أضاف اليها جزءا من النسخة المفقودة ثم جزءا من انجيل مرقس بعد اطلاعه عليه . وكانت كتابتها على الأرجح سنة ثمانين .

أما انجيل يوحنا فهو آخر الاناجيل كتابة ومراجعة ، وأكثر النقاد على أنه مكتوب بقلم يوحنا تلميذ السيد المسيح ، وآخرون يعتقدون انها بقلم يوحنا آخر كان فى افسس ولم ير السيد المسيح . . لان يوحنا تلميذ المسيح هو صاحب سفر الرؤيا المؤلف على أصح الأقوال فى سنة ست وتسعين ، ولا يظن ان مؤلفا واحدا يكتب فى وقت واحد كتابين بينهما مثل ذلك التباين فى المنهج والفحوى .

على أن الأب فرار فنتون مترجم الانجيل « طبعة اكسفورد » يعن له ان انجيل يوحنا هو أقدم الاناجيل ، وانه كتبه أولا بالعبرية بين سنة ثلاثين وسنة أربعين ثم نقله إلى اليونانية ، ولكن تأخر الزمن الذى كتب فيه هذا الانجيل ثابت من تفصيله بعض ما اجملته الاناجيل ، وزيادته فى التعبيرات الفلسفية ، وتوسعه فى شرح العقائد التى أثرت عن بولس الرسول ، ولا يظن انه كتب قبل سنة ست وتسعين .

والترتيب المفضل عند المؤرخين ان انجيل مرقس هو أقدم الاناجيل ، ثم يليه انجيل متى فانجيل لوقا ، وهى الاناجيل الثلاثة التى اشتهرت باسم اناجيل المقابلة ، لإمكان المقابلة بين ما فيها من الأخبار والوصايا على اختلاف الترتيب ، مع العلم بأنها كتبت فى الأصل مرسلة بغير أقسام وبغير مواضع للوقت والالحاق ، ولم تقسم إلى اصحاحات قبل القرن الثالث عشر للميلاد .

وليس من الصواب ان يقال ان الاناجيل جميعا عمدة لا يعول عليها في تاريخ السيد المسيح ، لأنها كتبت عن سماع بعيد ولم تكتب من سماع قريب في الزمن والمكان ، ولانها في أصلها مرجع واحد متعدد النقلة والنساخ ، ولانها روت من أخبار الحوادث ما لم يذكره أحد من المؤرخين ، كانشقاق القبور وبعث موتاهم وطوافهم بين الناس وما شابه ذلك من الخوارق والأهوال .

وانما الصواب انها العمدة الوحيدة في كتابة ذلك التاريخ اذ هي قد تضمنت اقوالا في مناسباتها لا يسهل القول باختلاقها ، ومواطن الاختلاف بينها معقولة مع استقصاء اسبابها والمقارنة بينها وبين آثارها ، ورفضها على الجملة اصعب من قبولها عند الرجوع إلى أسباب هذا واسباب ذاك .

فانجيل متى مثلا ملحوظ فيه انه يخاطب اليهود ويحاول ان يزيل نفرتهم من الدعوة الجديدة ،ويؤدى عباراته آداء يلائم كنيسة بيت المقدس في منتصف القرن الأول للميلاد .

وانجيل مرقس على خلاف ذلك ملحوظ فيه انه يخاطب « الأمم » ولا يتحفظ في سرد الأخبار الالهية التي كانت تحول بين بني إسرائيل « المحافظين » والايمان بألوهية المسيح .

وانجيل لوقا يكتبه طبيب ويقدمه إلى سرى كبير ، فيورد فيه الأخبار والوصايا من الوجهة الانسانية ، ويحضر في ذهنه ثقافة السرى الذى أهدى اليه نسخته وثقافة أمثاله من العلية .

وانجيل يوحنا غلبت عليه فكرة الفلسفة وبدأه بالكلام عن « الكلمة » Logos ووصف فيه التجسد الإلهى على النحو الذى يألفه اليونان ومن حضروا محافلهم ودرجوا معهم على عادات واحدة .

وسواء رجعت هذه الاناجيل إلى مصدر واحد أو أكثر من مصدر ، فمن الواجب أن يدخل في الحسبان أنها هي العمدة التى آعتمد عليها قوم همأقرب الناس إلى عصر المسيح ، وليس لدينا نحن بعد قرابة ألفي سنة عمدة أحق منها بالاعتماد .

ونحن قد عولنا على الانجيل ولم نجد بين أيدينا مرجعا أوفى منها لدرس حياة الرسول والاحاطة بأطوار الرسالة وملابساتها ، ولكننا نتبع في مراجعتها طريقة غير التي درج عليها مؤرخو الوقائع والأخبار ، فلا نراجعها من حيث هي وقائع تاريخية ولا من حيث المقاصد التي ارادها كتابها ورواتها ولكننا نجمع الوقائع والأخبار ونسأل عما وراءها من الابانة عن شخصية الرسول . وفي هذه المراجعة تنفعنا الوقائع المستغربة كما تنفعنا الوقائع المألوفة وتهمنا الأغراض المقصودة وغير المقصودة . . فهل وراء هذه الأخبار « شخصية متناسقة » مفهومة ؟ ان كانت هناك علامات على تلك الشخصية المتناسقة فحسبنا ذلك من جميع الوقائع والأخبار ، وعلينا ان نفهم هنا أن النقائض في هذه المراجعة قد تكون من أسباب التصديق ، ولا تكون من أسباب الشك والانكار ، ثم يتأتى لنا أن نجعل هذه الشخصية نفسها محكا لكل واقعة ولكل خبر ولكل كلمة مروية ، فما خرج من السواء فهو فضول .

■ ■ ■

ومن الأمثلة على الاختلاف بين هذه الطريقة وبين طريقة المؤرخين الذين يطلبون الوقائع لذاتها أن الغرائب هنا شيء يجب أن نبحث عنه ان لم نجده ماثلا بين أيدينا ، فانَ خلو هذا التاريخ من الغرائب هو الذي يستغرب وليس هو المألوف الذي يدعو إلى الترجيح أو اليقين . وهل يخلو من الغرائب سجل قوم يؤمنون بها ولا يشكون في وجودها ؟

ونحب هنا أن نبين موقفنا من الخوارق والمعجزات حيث وجدت في تواريخ الأديان . فنحن نسأل هل هذه المعجزة لازمة في تفسير مسألة من المسائل ؟ فان كان تفسير المسألة ميسورا بغيرها فلا حاجة بنا إلى الجدل في امكانها أو استحالتها ، لان التفسير الذي يقبله كل انسان يغني عن التفسير الذي يضطرنا إلى امتحان الممكنات وامتحان الرواة .

أما رأينا نحن في امكان المعجزات فهو رأينا في امكان جميع الأسباب .

فان العقل قاصر عن تعليل الحوادث باسبابها ، وليس من العقل أن يقال أن هذه الأسباب المسماة بالطبيعة هى العوامل الفعالة فى ايجاد الأشياء ، واصح ما يقال فيها قول الغزالى رحمه الله : إن الأسباب والمسببات تحدث معا ، ولا تزيد علاقتها بعضها ببعض على علاقة المصاحبة والتوافق فى الأوقات ، وإلا لزام ان تكون المادة ألوفا من المادات ، كل منها مستقل بخصائصه ومؤثراته وعلاقته بالمواد الأخرى ولا يقول بذلك عقل سليم .

فاذا كان العقل لا يعلل الأسباب الطبيعية فمن الشطط أن يتعجل بانكار المعجزات والجزم باستحالتها .

ومتى ناقشناها فلتكن مناقشتنا لها كمناقشة الأسباب : هل هى لازمة لتفسير هذه المسألة ؟

وكما نقول هل هذا السبب لازم نقول أيضا : هل هذه المعجزة لازمة للفهم والتفسير ؟ وبهذا القسطاس يجب أن توزن الحوادث ويدرس تاريخ الأديان وغير الأديان .

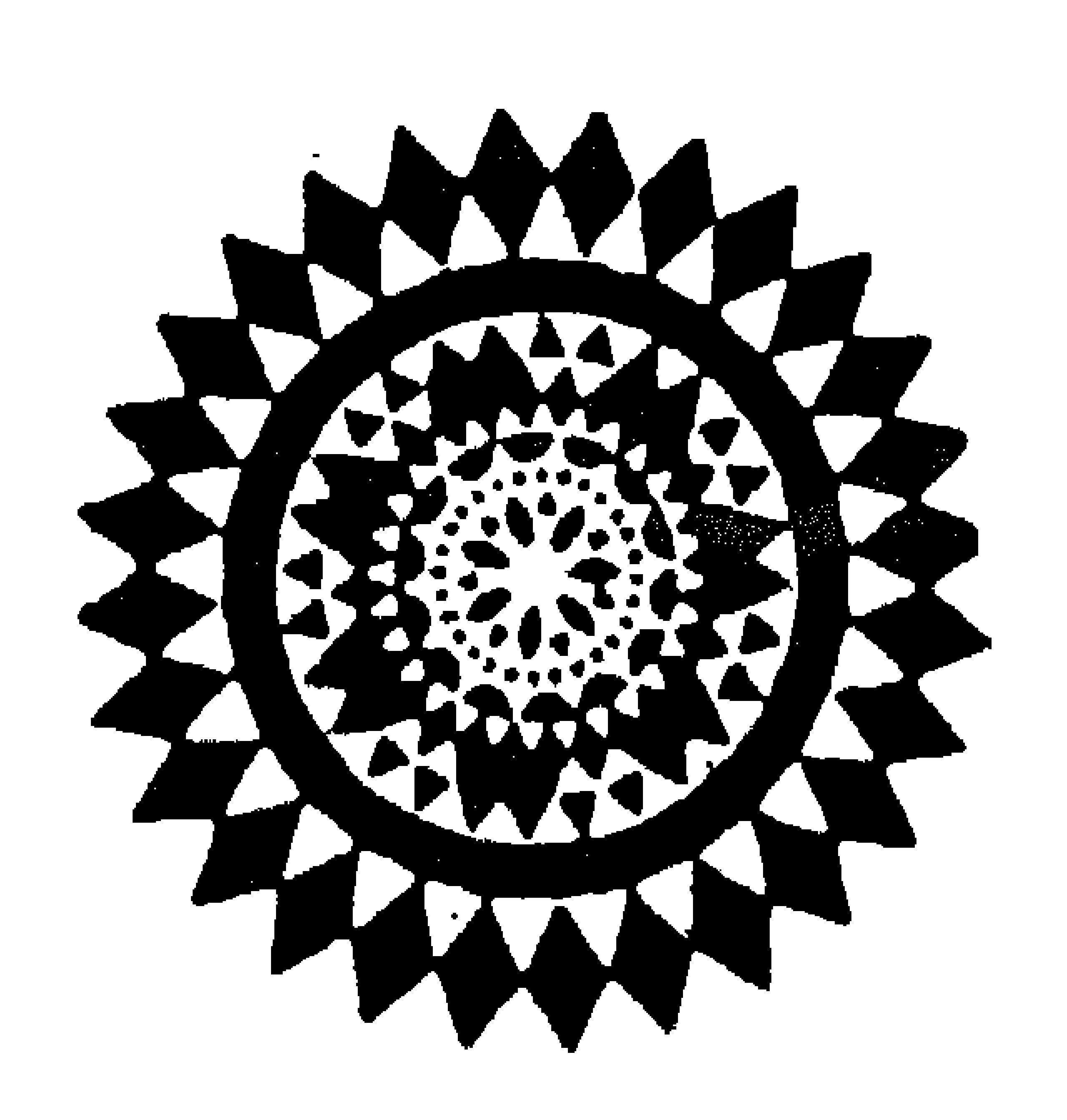
★ ★ ★

ونحن لم نتعرض للمعجزات التى وردت فى الاناجيل لان تفسير الحوادث منساق لنا بغيرها ، فليس فى الاناجيل أن معجزات الميلاد حملت أحدا على الايمان بالرسالة المسيحية بعد قيام السيد المسيح بالدعوة ، وكثيرا ما نقرأ فيها أن معجزة لا تقنع المكابر ، وأن الجيل الشرير يطلب الآية ولا يعطاها ، وأن المنكرين كانوا يعجبون لما يرونه احيانا ولكنهم كانوا يزعمون أنه من فعل الشيطان ، بل كان من أسباب التعجيل بمصادرة المسيح أنه كما قال الكهنة يصنع كثيرا من المعجزات .

* * *

وبعد فمن الحق أن نقول أن معجزة المسيح الكبرى هي هذه المعجزة التاريخية التى بقيت على الزمن ولم تنقض بانقضاء أيامها فى عصر الميلاد : رجل ينشأ فى بيت نجار فى قرية خاملة بين شعب مقهور ، يفتح بالكلمة دولا تضيع فى أطوائها دولة الرومان ولا ينقضى عليه من الزمن فى انجاز هذه الفتوح ما قضاه الجبابرة فى ضم اقيلم واحد ، قد يخضع إلى حين ثم يتمرد ويخلع النير ، ولا يخضع كما خضع الناس للكلمة بالقلوب والأجسام .







■ الغاية بعد كل ختام . .

عنى الشراح الانجيليون عناية دقيقة مضنية بترتيب الحوادث فى سيرة السيد المسيح عليه السلام كما تستمد من روايات الأناجيل ، ولكنهم لم يصلوا إلى ترتيب متفق عليه ، لأن سياق الحوادث مختلف فى الأناجيل الأربعة ، وبعض الأناجيل قد سجلت ما سمعه كتابها فى أوقات متفرقة حسبما عرض لهم من مناسبات الرواية لا حسب تسلسل الأزمنة التى وقعت فيها الحوادث ، فلم يتفق ترتيب الكتابة وترتيب الحدوث .

على أن حوادث السيرة فيها ما يظهر منه أنه مقدمات وما يظهر منه أنه نتائج لاحقة لتلك المقدمات ، فاذا حسبنا بعضها نتيجة لبعض على حسب المعقول من آثار الحوادث ، أمكن على الترجيح متابعة السيرة المسيحية فى خطوطها الكبرى ، ولا يضيرنا بعد استقامة هذه الخطوط أن تختلف أوضاع الحوادث التى يمكن أن تضاف إلى كل فترة دون أن يتغير سياق السيرة كله أو يتغير جوهر الموضوع الذى تدور الحوادث عليه .

كان لقاء المسيح ليوحنا المعمدان مفرق الطريق فى السيرة المسيحية .

ولم تذكر لنا الأناجيل من أخبار نشأة المسيح عليه السلام قبل ذلك اللقاء غير حادثتين اثنتين ، احداهما حادثة السفر إلى مصر وهو رضيع ، والأخرى حادثة السفر إلى بيت المقدس وهو فى الثانية عشرة من عمره .

روى الحادثة الأولى انجيل متى فقال ان « ملاك الرب ظهر ليوسف في حلم قائلا : قم وخذ الصبي وان اهرب إلى مصر . . لأن هيرود مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه . فقام وأخذ الصبي وأمه ليلا وانصرف إلى مصر ، وبقي فيها إلى وفاة هيرود » ثم قال : « وقتل هيرود جميع الصبيان الذين في بيت لحم وتخومها من ابن سنتين فما دونهما » .

ولم يذكر خبر هذه المذبحة في غير انجيل متى ، ولا يعرف الآن سبب وجود الأسرة في بيت لحم -وهي من الناصرة - لأن الاحصاء الذى اشار اليه انجيل لوقا وقال انه سبب انتقال كل أسرة إلى منبتها قد تقرر في السنة السادسة للميلاد وحدثت من جرائه ثورة عنيفة على عهد والى سورية كرينيوس .

أما الانجيل الذى توسع في وصف طفولة السيد المسيح فهو انجيل لوقا الذى روى أخبار ختانه وتسميته والسفر به إلى بيت المقدس :

فلما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبي سمي يسوع » . وتمت أيام التطهير حسب الشريعة الموسوية « فصعدوا به إلى أورشليم ليقدموه للعرب . . ويقدموا ذبيحة زوج يمام أو فرخي حمام » وهي القربان المقبول من الفقراء .

قال انجيل لوقا : « وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح ، فلما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أورشليم كعادة العيد ، وبقي الصبي عند رجوعهما في أورشليم ويوسف وأمه لا يعلمان . واذ ظناه بين الرفقة ذهبا مسيرة يوم وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف ، ولما لم يجداه رجعا إلى أورشليم يطلبانه ، فوجداه بعد ثلاثة أيام في الهيكل جالسا في وسط المعلمين يسمعهم ويسالهم ، وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته ، فلما ابصراه دهشا وقالت له أمه : يا بني . لماذا فعلت بنا هكذا . . فقال لها : « لماذا كنتما تطلبانني ؟ ألم تعلما حيث ينبغي ان أكون فيما لأبي » . فلم يفهما الكلام الذى قاله لهما ، ثم نزل معهما وجاء إلى الناصرة وكان خاضعا

لهما . وكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس » .

ولا يذكر الانجيل شيئا عن نشأة الصبي بعد ذلك إلى أن بلغ الثلاثين وظهر يوحنا « بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا » وحينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن ليعتمد منه ـ كما ورد في انجيل متى ـ فمنعه يوحنا قائلا : أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إلى ؟ فأجابه يسوع تسمح الآن ، لأنه هكذا يجمل بنا أن نستوفي كل بر . فسمح له ، فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء ، واذا السماوات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه ، وصوت من السماوات يقول : هذا هو ابني الحبيب » .

وفي انجيل غير الأناجيل الأربعة المعتمدة ـ وهو انجيل العبريين ـ رواية عن هذه الفترة من سيرته عليه السلام جاء فيها أن أمه وأخوته قالوا له أن يوحنا المعمدان يوالي التعميد لغفران الخطايا فهلم بنا اليه ليعمدنا . فقال لهم : « أي خطيئة جنيت حتى أذهب اليه لتعميدي ! اللهم الا أن يكون هذا القول الذي قلت » .

وليس في الأناجيل ولا في غيرها خبر عن تعليم السيد المسيح في طفولته قبل الثانية عشرة وبعدها ، ولكنه بالقياس إلى نظام التربية في ذلك العصر يبدأ في مكتب ملحق بالبيعة في كل قرية كبيرة يشرف على بيعتها « حزان » أو « خزان » بمعنى الخازن والحارس ، ويندر في المكتب حصول التلميذ على النسخ المخطوطة من الكتب الدينية غير نسخة البيعة المعدة للتلاوة منها في الصلوات وللاستعانة بها على تعليم التلاميذ الصغار ، ومعولهم جميعا على الحفظ والاستظهار .

لقد كانت كل أسرة يهودية تتمنى في ذلك العصر أن يخرج منها المسيح المنتظر ، وقد سمي الطفل يسوع أو « يهوشع » على هذا الأمل ، لأن الاسم مركب من كلمتين تفيدان معنى سعي « يهوا » أو نجدة يهوا » أو خلاص « يهوا » فتربى الطفل تربية دينية خالصة ، ولا يصعب علينا تعليل سفر الأسرة إلى بيت لحم عند مولده ، لأنها

تنتظر المعجزة هناك ، حيث ورد فى أسفار من النبوءات ان بيت لحم هى مولد المسيح الموعود ، لأنها موطن داود .

ولا يبعد أن الصبى المبارك ، وكان فى الثانية عشرة من عمره ، قد وعى جميع الدروس التى يتعلمها الصغار فى مدارس القرى واستمع إلى شيء جديد من فقهاء الهيكل وأحباره ، فتاقت نفسه إلى استيعابه ونسى أهله وموعد عودتهم إلى قريتهم وهو يتنقل بين دروس الفقهاء والأحبار .

ويغلب على الظن أنه كان على صلة وثيقة بيوحنا المعمدان وأن يوحنا قد رآه وعرفه وعرف فضله وطهارة سيرته قبل أن يلقاه فى الأردن عندما تصدى لرسالة التعميد ، وهى بطبيعتها رسالة اعداد وتمهيد .

ومن البديهى أن كلمات يوحنا الفتى ابن الثلاثين فى ساعة التعميد لم تذهب بغير صداها فى نفسه الواعية ، فمن أيسر آثارها فى مثل تلك النفس أن تعزز فيها الأمل وتدعم فيها اليقين وتبعثها على التامل فيما خلقت له وفيما ترجوه ويرجى منها بين البشائر والنذر التى ترددت يومئذ فى كل مكان ، وعلى كل لسان .

★ ★ ★

وخلوة البرية هى احدى نتائج تلك التحية النبوية ، وهى خلوة التجربة والامتحان والتساؤل والإستيثاق التى عالجها كل نبى قبل أن يصدع بما أمر به ، وقبل أن يستيقن أن ما أمر به من عند الله .

ونعتمد فى وصف هذه التجربة على رواية انجيل متى حيث يقول :

« انه عليه السلام بعد أن صام فى البرية أربعين نهارا وأربعين ليلة جاع أخيرا فتقدم به المجرب وقال له : ان كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة تصير خبزا . فأجابه : مكتوب انه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، بل بكلمة تخرج من فم الله . ثم أخذه ابليس إلى المدينة المقدسة

وأوقفه على جناح الهيكل وقال له : ان كنت
ابن الله فاطرح نفسك من عل ، لأنك موعود
أن يوصي ملائكته بك ليحملوك على أيديهم
فلا تصطدم رجلك بحجر . قال يسوع .
ومكتوب أيضا ألا تجرب الرب الهك . ثم
أخذه ابليس إلى جبل عال وقال له أعطيك
هذه جميعها ان سجدت لى . . قال يسوع
أغرب عنى أيها الشيطان ، فانه مكتوب للرب
الهك تسجد واياه وحده تعبد . . » .

قال انجيل متى بعد ذلك : ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم لهيرود أنصرف إلى الجليل وترك الناصرة وسكن فى كفر ناحوم ، وابتدأ رسالته داعيا إلى التوبة ، لأنه قد اقترب ملكوت السماوات .

كان لقاء يوحنا المعمدان مفرق الطريق فى السيرة المسيحية كما أسلفنا ، فكانت سيرة الفتى المؤمن قبل ذلك اللقاء تاهبا واستعدادا وأملا ، وكانت سيرته بعد اللقاء رياضة وامتحانا وعزيمة ، وردته كلمات النبى النذير إلى طويته يسبر أغوارها ويمتحن صبرها ويسائلها ويسائل الغيب ليهديه إلى كنه رسالته ومصدر بعثته ، وتوسوس له التجربة أن يطلب الآية ويلمس الدليل ، وكل تجربة من هذه التجارب التي مثلتها بساطة الرواية الانجيلية تدور على سر الرسالة المسيحية وما إحاط بها فى كتب القدامى من البشائر والمواعيد : ألم يكن رجاء الناس من المسيح الذى ينتظرونه أن يعم الخير ويبطل العناء فى طلب الأرزاق ويصبح الخبز لقيا لمن يطلبه كحجارة الطريق ؟ ألم يكن من مواعيد المسيح أن يقبل على السحاب محمولا على أجنحة الملائكة ؟ ألم يكن من مواعيده ملك العالم بالتاج والصولجان ؟ . . كل تجربة من هذه التجارب كانت هى التجربة التى تساور ضميرا مشغولا بالرسالات

المسيحية ، واقفا على قمة الايمان وشفا الهاوية فى لحظة واحدة ، تغريه من هنا رسالة جسد وسلطان ومساومة على البراهين والآيات ، وتعصمه من هنا رسالة روح وقداسة ويقين لا يساوم على البرهان .

أتكون كلمات يوحنا للمسيح اول وحى نبوى بالرسالة المسيحية ؟

واضح غاية الوضوح أن هذه الكلمات الحية لم تطرق مسامعه الا وقد فتحت فى نفسه الصافية بابا للتامل والتساؤل ، وان فترة الخلوة فى البرية على اثر ذلك كانت فترة اعتكاف لاستخلاص الحقيقة من اعماق الضمير والاستعانة بالصيام والتهجد على مناجاة الغيب والاستقرار على عزيمة خالصة للاقدام على خطوة حاسمة يريدها الله ويبطل فيها الابهام والاحجام .

وعندنا أن انفس خبر يعين على التعريف بمنهاج الايمان فى نفس الرسول العظيم هو هذا الخبر عن تجربة الوحدة فى البرية ، فهو يفسر لنا مواقف السيد المسيح جميعا قبل الاقدام على خطواته الحاسمة ، أو يفسر لنا منهاج الايمان بدواعى العمل فى ضميره السليم .

انه اذا أقدم على أمر من الأمور الجاسمة أطال التفكير فيه ، ولم يزل يطيل التفكير فيه ويقلب وجوه الرؤية والمراجعة حتى يخطر له أن العمل مرهون بانتظار آية يستوثق بها من أراد الله ، وعندئذ يبادر إلى نبذ هذا الخاطر بغير هوادة ، لأن العامل الذى يتوقف عمله على انتظار آية ضعيف الايمان ، ومن كان قوام نفسه أن مثقال حبة خردل من الايمان ينقل الجبل من مكانه ويخلع الشجر من منبته فلن يكون ايمانه معتمدا على آية يراها قبل أن يعمل عمله ويتجرد لمقصده ، وبخاصة حين يبدو للنفس أن الآية منتظرة لاتقاء الخطر وضمان الأمان . فالخطر اذن أحب من الشك ، وكل شىء اذن اسلم من الأمان الذى لا يأتى الا بضمان من البرهان .

★ ★ ★

وكلما بلغ السيد المسيح من تفكيره ورويته هذا الحد الفاصل فمنهاجه الجديد به هو.استخارة الحوادث واستلهام الغيب من هذا الطريق . . ليفعل ما يتوقاه ولا يشترط شرطا للوقاية ، وليفعل الله ما يشاء ، فما يجرى بعد ذلك كله هو ارادة الله .

خرج السيد المسيح من العزلة إلى الرسالة ، ولم يقل لأحد انها رسالة مسيح ، بل سكت عن ذلك حتى تسامع الناس بدعوته وأصبح له أكثر من ثمانين تلميذا يبشرون برسالته ويستمدون الهداية من وحيه .

واصطبغت رسالته الأولى فى الجليل بصبغة مميزة وهى صبغة الرسالة القومية إلى اسرائيل ، وحرص عليه السلام أشد الحرص الا يثير الناس على السلطان الحاكم ولا يثير السلطان الحاكم عليه ، فكان يؤثر المباعدة والتقية ما استطاع ، حتى بلغ الكتاب أجله وأن أن يمضى فى خطوة أخرى بعد الخطوة الأولى التى انتقل بها من العزلة إلى الدعوة بين بنى اسرائيل ، فهذه الخطوة التالية هى الدعوة الانسانية العامة وهى استخارة للحوادث واستلهام للغيب فى ميدان أوسع وأبقى ، وعلى الصفة التى ثبتت له فى طوبية ضميره وهداه اليها وحى الله ، ولم يبق الا أن تؤيدها حوادث القدر كيف شاء .

أما الصفة التى ثبتت له عليه السلام فى طوية ضميره فقد تكررت فى كلامه عن نفسه على صور شتى ، فهو نور العالم وخبز الحياة ، والكرامة الحقيقية ، وهو ابن الله وابن الانسان .

والأبوة الالهية قد وردت فى مواضع متعددة من كتب الأنبياء فجاء فى سفر التكوين أن الملائكة أبناء الله « وأن أبناء الله رأوا بنات الناس حسنات فاتخذوا منهن زوجات (٦ تكوين) » .

وورد فى كلام موسى عليه السلام أن بنى اسرائيل جميعا أبناء الله حين قال لفرعون « دع ابنى يخرج » ووردت بهذا المعنى فى كتب أخرى كسفر التثنية حيث جاء فيه « انتم أبناء الله » (تثنية ١٤) وأشير إلى الشعب كله بأنهم أبناؤه وبناته (٣٢ تثنية) . . ووردت كذلك غير مرة

فى المزامير حيث قيل « قدموا للرب يا أبناء الله » (٢٩) و « من يسبه الرب بين أبناء الله » (٨٩) .

وكذلك وردت فى هوشع وجاء فيه من خطاب الشعب « أنتم أبناء الله الحى » .

أما فى العهد الجديد فمخاطبة الله باسم الأب وردت فى الصلاة التى تبتدىء بدعاء الله « أبانا الذى فى السماوات » وحيث قال السيد المسيح للتلاميذ ان « أباكم واحد هو الذى فى السماوات » وحيث تكلم عن ولادة الروح وولادة الجسد ، وكل ولادة للروح فهى بنوة لله .

أما ابن الانسان فقد وردت فى كتب العهد القديم باللغة الأرامية وباللغة العبرية ، وهى بالأرامية « بارناشا » من بار بمعنى ابن وناش بمعنى انسان ، وهى بالعبرية « ابن آدم » وتطلق فى كلتا اللغتين على الانسان الخالص أو على الانسان من حيث هو نوع يقابل أنواع الأحياء .

وقد وردت تسعين مرة فى سفر حزقيال حيث يخاطب « يهوا » ذلك الرسول فيناديه بابن الانسان .

ووردت مرة فى سفر دنيال بلسان جبريل وهو يخاطب النبى باسم ابن الانسان (٨) .

ووردت فى هذا السفر باللغة الأرامية حيث يتكلم عن مخلوقات بصور الحيوانات ثم ينبىء عن رسول يأتى فى صورة انسان رآه النبى فى رؤى الليل « على سحاب كابن انسان » جاء بسلطان لن يزول .

أما فى كتب العهد الجديد فقد وردت فى مواضع بمعنى « الانسان » ومنها قول السيد المسيح فى انجيل متى « كل خطيئة وتجديف يغفر للناس ، ومن قال كلمة على ابن الانسان يغفر له ، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا فى هذا العالم ولا فى العالم الآتى » (١٢) .

وقد جاءت أحيانا مرادفة لضمير المتكلم « أنا » حين يتكلم السيد المسيح عن نفسه ، فجاء فى لوقا ١٢ . . « كل من اعترف بى قدام

الناس يعترف به ابن الانسان قدام ملائكة الله »
وجاء فى متى ١٠ « كل من يعترف بى قدام الناس أعترف أنا أيضا به قدام أبى الذى فى السماوات » .

وورد فى متى ١٦ « انه لما جاء يسوع إلى نواحى قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلا : من يقول الناس انى أنا ابن الانسان ؟ » .

وورد فى مرقس ٨ « ثم خرج يسوع وتلاميذه إلى قرى قيصرية فيلبس وفى الطريق سأل تلاميذه قائلا : من يقول الناس انى أنا ؟ » .

فهى فى بعض الأناجيل مرادفة أو بديل من ضمير المتكلم حين يتكلم السيد عن نفسه ، ولابد أن يلاحظ هنا أن التلاميذ قد عرفوا استخدامها فى هذا السياق فلم ينادوا السيد المسيح قط باسم ابن الانسان .

وقد وردت حينا بمعنى يشبه معناها فى نبوءة دنيال حيث قال ﴿ كما يجمع الزوان ويحرق بالنار هكذا يكون فى انقضاء العالم ، يرسل ابن الانسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر والآثمين ﴾ (١٣ متى) .

وهى اشارة كاشارة دنيال إلى يوم الدينونة ، وصيغتها بالآرامية واحدة فى الموضعين .

هذه هى الأسماء التى تسمى بها السيد المسيح فى ابان دعوته الأولى أو عند نهايتها ، وفى أثناء هذه الدعوة كان يدعى بالمعلم الصالح أحيانا فيقول : ﴿ لماذا تدعونى صالحا ؟ ليس أحدا صالحا الا واحد ، وهو الله ﴾

★ ★ ★

وعند نهايتها سأل تلاميذه عما يقوله الناس عنه ، فلما قال له بطرس انك أنت المسيح ابن الله باركه ثم أمرهم بالكتمان .

وغنى عن القول أن هذه الأسماء انما كانت تفهم كما تعود قراء الكتب الدينية أن يفهموها فى ذلك الحين ، ولم يوص السيد المسيح تلاميذه أن يفهموا منها غير ذلك حين يذكرون « ابن الله » أو « ابن الانسان » .

★ ★ ★

لو جرت الأمور فى مجراها الذى استقامت عليه الدعوة فى الجليل من بعد الرسالة المسيحية لمضت هذه الرسالة فى طريقها سنوات دون أن تشتبك فى حرب صراح مع دولة الكهانة فى بيت المقدس .

ولكن الحوادث حكمت حكمها فى السنة التى تحسب الآن سنة ثلاثين للميلاد ، وحان موعد عيد الفصح وزيارة بيت المقدس كما جرت عادة الأسر اليهودية ، ومنها أسرة السيد المسيح : أمه وأخوته وذوو قرباه .

وكان عليه السلام يجارى أسرته فى هذه الشعائر التى لا ضير فيها ، ولم يكن يضيق على الناس فى المحافظة على المأثورات التى تعودوا أن يحتفلوا بها ويفرحوا فيها بالاجتماع وتبادل التهنئات ، وانما كان ينكر من المأثورات ما كان فيه حجر على الضمائر أو مفاخرة بالتقوى الكاذبة والنفاق المكشوف ، وفيما عدا هذا كان يشارك أسرته فى أفراحها القومية ويذهب إلى الهيكل ويأمر بشراء القربان ، بل يأمر بسداد الفرضة التى كانت تفرض على كل رأس من رؤوس بنى اسرائيل .

وفى سنوات مضت زار بيت المقدس ولم يذكر قط انه تخلف عنه فى احدى السنوات منذ بشر برسالته فى الجليل وكان يذهب مع أصحابه القلائل ثم يعود إلى الجليل دون أن يحس زيارتهم سدنة الهيكل وذوو الشأن فى العاصمة الدينية ، ودون أن يشتبك الفريقان فى نضال .

لكن كيف يكون الذهاب إلى بيت المقدس فى هذه السنة ؟

انه لا يذهب إلى العاصمة هو وأصحابه كما كانوا يذهبون فى السنوات الماضية .

انهم يعدون الآن بالألوف فى انحاء الجليل ، واذا قدرنا ان نيفا وثمانين مسيحيا يعدون من التلاميذ ، فالمسيحيون الذين لا يعدون منهم قد يبلغون عشرة اضعاف هذا العدد أو يزيدون .

فكيف يذهب هؤلاء المئات مع معلمهم إلى بيت المقدس خفية يتسللون اليها ولا يعلنون ولاءهم للمعلم الذى يحج معهم إلى المدينة ؟ ولماذا هذا التسلل وهذا الاختفاء ؟

★ ★ ★

هنا موقف من المواقف التى نسميها مواقف استلهام الغيب واستخارةُ الحوادث .

أيذهب إلى بيت المقدس مع مئات التلاميذ والأتباع منكرا لرسالته حذرا من اعلانها مع هذا الجمع الذى لا يسهل معه التخفى والاستتار .

وماذا يقع من أثر التخفى والاستتار فى نفوس المؤمنين برسالته الروحية ان لم نقل برسالته المسيحية ؟

أيؤمن أحد منهم أن رسالة روحية أو مسيحية تعم العالم فى الخفاء ، وتستتر لسبب من الأسباب ، فضلا عن السبب الذى يسبق إلى الأذهان لأول مرحلة ، وهو الحذر والاتقاء !

وجب الذهاب إلى بيت المقدس ووجبت العلانية ولا محيد عن الواجبين ، ولتكن الآية الالهية ما تسفر عنه الحوادث بعد حين .

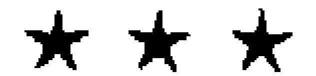
وأدل شىء على أن الموقف الأخير فى الرسالة المسيحية كان على منهاج السيد المسيح فى أمثال هذه المواقف ـ موقف استخارة الحوادث ـ انه عليه السلام سهر ليلة الوداع يصلى ويناجى ربه قائلا : ﴿ اعبر عنى هذه الكأس يا أبتاه . . كما تريد أنت لا كما أريد ﴾ . . ثم أيقظ تلاميذه النيام قال لهم : ﴿ اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة . اما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف ﴾ .

وقد أعد عدته لمواجهة أعدائه حيث لابد أن يواجهوه ، وأعد العدة لاستبقاء عزيمة تلاميذه ، فطفق يهيىء أذهانهم لاحتمال ما يلاقونه من بلاء ، وصرف عن أذهانهم أنها غزوة فتح تنجلى عن غلبة عاجلة على دولة الكهانة الدنيوية ، فليوطنوا أنفسهم اذن على أسوأ ما يكون ، بل لا ييأسوا اذا غلبهم الضعف فتفرقوا عنه ، ولا يخامرهم الظن أنهم اذن قد خسروا المعركة وانهزموا هزيمة الضياع ، فهذا الضعف مقدور يتبعه لا محالة نصر قريب

وتروى الأناجيل أنه عليه السلام دخل إلى بيت المقدس على ظهر اتان كما جاء فى بعض النبوءات عن مركب المسيح الموعود ، وأنهم كانوا يحملون السعف أمامه ويفرشون ثيابهم تحت أرجل مطيته ، ويهتفون بهتاف النصر الذى يحفظه اليهود منذ الطفولة ، ويتغنون به فى المواكب والمحافل لذكرى داود ، وذكرى مجده المستعاد إلى آخر الزمان .

ويفهم من وصايا السيد المسيح أنه ظل فى بيت المقدس يرعى للكهان والفقهاء مكانتهم ولا يقلقهم على ما هم حريصون عليه من حقوقها ودعاواها ، ففى احدى هذه الوصايا يقول مخاطباالجموع والتلاميذ : ﴿ على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، ولكن حسب أعمالهم لا تعلموا لأنهم يقولون ولا يفعلون ﴾ .

ولم تسمع منه فى رواية الأناجيل كلمة واحدة يغير بها ما اختطه لنفسه فى حكمته المأثورة عما لقيصر وما لله ، فكل ما سمع منه فى بيت المقدس يعيد ما أسلفه من بيان الملكوت الذى يدعو اليه ، وانه من غير هذا العالم ، ولا شأن له بسلطان التيجان والعروش .



الا أنه من اللحظة الأولى في بيت المقدس لمس مكامن الاشراك التى ترصد له في كل خطوة ، وعرف من الأسئلة التى كانت تنهال عليه أن القوم يأتمرون به لاهلاكه ، اذ كانت هذه الأسئلة جميعا تنزع إلى هدف واحد وهو استدراجه إلى كلمة تثبت العصيان والتمرد على الدولة أو كلمة تثبت « الكفر » ونقض الشريعة ، وكانت أجوبته كلها على ما تعودوه في مواضع العنت والاحراج تستند إلى حجته وتستقيم مع غايته ورسالته وتخجل من يحاول احراجه وتهتك ما يستره من حجب الرياء ، ولا يبعد أنه قد سمع من بعض رؤساء الهيكل تفصيل المؤامرة المحبوكة ، لأن أحدهم وهو - نيقوديموس - كان يزوره ليلا ، ولعله واحد من كثيرين .

ثم حدث ما لا بد أن يحدث في عيد كذلك العيد ، بين أناس متنمرين وأناس متجردين لدعوة جديدة يتطوعون لنشرها ويتحمسون لصاحبها ، فاشتبك السيد المسيح وسماسرة الهيكل في معركة أدبية لم تلبث أن انقلبت إلى معركة يدوية ، فقلب عليه السلام موائد الصيارفة وباعة الضحايا وصاح بهم وبسماسرة الهيكل يذكرهم أنهم في بيت الله ، وأنهم نقلوه من معبد صلاة وطهارة إلى مغارة لصوص .

وكانت هذه هى الواقعة الفاصلة على ما يظهر ، وربما سعى اليها السيد المسيح تقريرا للموقف على وجه من الوجوه ، فامتلأت الصدور الموغرة واتخذت من درء الفتنة ذريعة إلى العمل العاجل ، وبدأ العمل على النحو الذى تفرقت فيه أقوال النقلة والرواة .

وهنا ينتهى دور التاريخ ويبدأ دور العقيدة .

فليس للتاريخ كلمة راسخة في خبر من الأخبار التى أعقبت حادثة الهيكل وحركت كهانه للبطش والنكاية .

ففى حادثة الاعتقال لا يدرى متتبع الحوادث من اعتقله ومن دل عليه . وهل كان معروفا من زياراته للهيكل أو كان مجهولا لا يهتدى اليه بغير دليل .

وفى حادثة المحاكمة يجرى الخبر على أنه حوكم بالليل وصدر الحكم فى يوم واحد ، ويجرى نظام القضاء الموسوى على تحريم المحاكمة الليلية واسقاط كل حكم يصدر فى قضايا الدم بعد جلسة واحدة فى يوم واحد ، ولا ينفذ الحكم فى هذه القضايا الا اذا صدر بالاجماع .

وفى حادثة التنفيذ يجرى الخبر على أنه قد تم على الرغم من اعلان الحاكم الرومانى براءة المحكوم عليه ، ويقول انجيل يوحنا أن تسليمه للتنفيذ كان فى نحو الساعة السادسة ، ويقول انجيل مرقس انها كانت الساعة الثالثة فصلبوه » .

وقد بحث الأستاذ ريشارد هزباند HUSBAND فى كتابه « محاكمة المسيح » تواريخ عيد الفصح فى خمس سنوات من سنة سبع وعشرين إلى سنة ثلاث وثلاثين ، فتبين أنه كان يوم خميس سنة ثلاثين وكان يوم جمعة سنة ثلاث وثلاثين ، والأخبار تجرى على أن المحاكمة والصلب حدثا يوم جمعة وأن تناول عشاء الفصح كان مساء خميس ويوافق السادس من شهر أبريل . أما السنوات الأخرى غير سنتى ثلاثين وثلاث وثلاثين فقد جاء العيد فيها يوم الأربعاء سنة سبع وعشرين ويوم الأثنين سنة ثمان وعشرين ويوم الأحد سنة تسع وعشرين ويوم الثلاثاء سنة احدى وثلاثين ويوم الاثنين سنة اثنتين وثلاثين .

ومن الأخبار عن يوم التنفيذ أن الأرض زلزلت وأن القبور تفتحت وخرج منها القديسون

★ ★ ★

وفى اليوم التالى فلم توجد وروى نقلة الأخبار أن القبر يمشون بين الناس فيه جثة ، وأن السيد المسيح ظهر للتلاميذ مرات وقال لهم لما توهموا أنه طيف

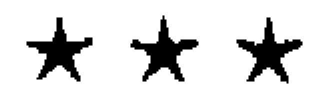
﴿ جسونى وانظروا فان الروح ليس له لحم وعظام ﴾ . . ﴿ وسألهم أعندكم هنا طعام ؟ فناولوه جزءا من سمك مشوى وشيئا من شهد عسل فأخذ وأكل ﴾ ٢٤ لوقا .

وقد تناول هذا الموضوع طائفة من أقطاب العلم واللاهوت كالقس شاين الانجيلى CHEYNE والأستاذ هنريك بولس POULUS أستاذ اللغات الشرقية بجامعة جينا والدكتور ويجال المختص بالدراسات الأثرية فى مصر والشرق الأدنى والدكتور هوجو تول TOLL السويدى وغيرهم من علماء الدين والدراسات التاريخية فانتهوا إلى التفرقة فى أخبار هذه الفترة بين وجهة التاريخ ووجهة الاعتقاد .

ومن الأخبار التاريخية خبر لا يصح اغفاله فى هذا الصدد ، لأنه محل نظر كبير ، وهو خبر الضريح الذى يوجد فى طريق « خان يار » بعاصمة كشمير ويسمونه هناك ضريح النبى أو ضريح عيسى . وروى تاريخ الأعظمى الذى دون قبل مائتى سنة أن الضريح لنبى « اسمه عوس أصاف » ويتناقل أهل كشمير عن آبائهم أنه قدم إلى هذه البلاد قبل ألفى سنة ، وينقل المولوى محمد على فى ترجمته للقرآن الكريم عن كتاب عربى يسمى « اكمال الدين » محفوظ من ألف سنة أن اسم « عوس آصاف » مذكور فيه وأنه قال عنه أنه رحالة ساح فى بلاد كثيرة ، وأن كتاب « برلام ديوشافاط » فى صفحة (١١١) يذكر عن عوس آصاف أنه صاحب « بشرى » وأنهم يحفظون مثلا من أمثاله فى تعليمه يشبه مثل السيد المسيح عن الزراع والبذور .

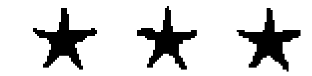
ولقد أورد المولوى محمد على هذا التعليق فى تفسير الآية الكريمة :

﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ وأورد تعليقا يقرب منه فى تفسير قوله تعالى : ﴿ انى متوفيك ورافعك إلى ﴾ وغيرهما من الآيات القرآنية التى تناولت حياة عيسى ابن مريم عليه السلام .



وبعد فهذا الكتاب مقصور على غرض واحد وهو جلاء العبقرية المسيحية في صورة عصرية ، نفهمها الآن كما نفهم العبقريات على اقدارها وأسرارها وقد قل فيها نظير هذه العبقرية العالية في تواريخ الأزمان قاطبة ولا يزال هذا الغرض المجيد متسعا للتوفية والتجلية من نواح عدة ، فان كتب لنا ان نوفق لزيادة شيء إلى هذه الذخيرة القدسية ، فذلك حسبنا وكفى ، ولا حاجة بنا في هذه الصفحات إلى اثارة الجدل في مسائل لا ترتبط بالمقصد الذى قصدناه وقصرنا الرسالة عليه .

ولا نستطيع كما أسلفنا ان نقرر على وجه التحقيق من الناحية التاريخية كيف كانت نهاية السيرة المسيحية ، ولكننا نستطيع ان نقرر على وجه التحقيق أنها انتهت في موعدها حيث أسلمها التاريخ الينا ، فقد كان ذلك الجيل آخر جيل قامت فيه دولة العصبية الدينية التى تحتكر هداية الله ورحمته لسلالة واحدة من ابناء آدم وحواء ، وأول جيل عمت فيه الدعوة إلى هداية الاهية تحيط بكل من يهتدى من بنى الانسان ، فلم تنقض أربعون سنة حتى تداعت ديانة الأثرة العصبية وتداعى الهيكل الذى اعتصمت به وتجددت فيه ، ثم قامت للضمير الانسانى دعوة حية تبسط نورها كما ينبسط نور الشمس لكل ناظر وكل متطلع ، ولحكمة ما ألهم داعيها أن يتسمى كلما تكلم عن نفسه بابن الانسان .



الغاية بعد كل ختام

فى احدى روايات الكاتب الروسى العظيم ـ دستيفسكى ـ بطل من أبطال الرواية يتخيل أن السيد المسيح عاد إلى الأرض فى طوفة عابرة ونزل بأشبيلية فى ابان سطوة « التفتيش » فوعظ الناس وصنع المعجزات وأقبل عليه الضعاف والمرضى والمحزونون يلثمون قدميه ويسألونه العون والرحمة .

وانه ليمضى بين الشعب يضفى عليهم حبه وحنانه ويبسطون له شكاياتهم ومخاوفهم اذا برئيس ديوان التفتيش ـ المفتش الأعظم ـ يعبر بالمكان ويتأمل السيد والشعب من حوله هنيهة ثم يشير إلى الحراس ويأمرهم أن يعتقلوه ويودعوه حجرة السجناء فى انتظار التحقيق .

ويأتى المساء فيذهب المفتش الأعظم إلى الحجرة ويقول للرسول الكريم : اننى أعرفك ولا أجهلك ، ولهذا حسبتك ، لماذا جئت إلى هنا ؟ لماذا تعوقنا وتلقى العثرات والعقبات فى سبيلنا ؟

ثم يقول له فيما يقول : انك كلفت الناس ما ليست لهم به طاقة . كلفتهم حرية الضمير ، كلفتهم مؤنة التمييز ، كلفتهم أن يعرفوا الخير والشر لأنفسهم ، كلفتهم أوعر المسالك فلم يطيقوا ما كلفتهم وشقيت مساعيهم بما طلبت منهم . . والآن وقد عرفنا نحن داءهم وأعفيناهم من ذلك التكليف ، وأعدناهم إلى الشرائع والشعائر ، تعود الينا لتأخذ علينا سبيلنا وتحدثهم من جديد بحديث الاختيار وحرية الضمير ؟

ليس أثقل على الانسان من حمل الحرية ، وليس أسعد منه حين يخف عنه محملها وينقاد طائعاً لمن يسلبه الحرية ويوهمه في الوقت نفسه أنه قد أطلقها له وفوض اليه الأمر في اعتقاده وعمله ، فلماذا تسوم الانسان من جديد أن يفتح عينيه وأن يتطلع إلى المعرفة وأن يختار لنفسه ما يشاء ، وهو لا يعلم ما يشاء ؟

انك منحتنا السلطان قديما وليس لك أن تسترده ، وليس في عزمنا أن ننزل عنه ، فدع هذا الانسان لنا وارجع من حيث أتيت ، والا أسلمناك لهذا الانسان غدا وسلطناه عليك وحاسبناك بآياتك وأخذناك بمعجزاتك ، ولترين غدا هذا الشعب الذى لثم قدميك اليوم مقبلا علينا مبتهلا لنا أن نخلصه منك وأن ندينك كما ندين الضحايا من المعذبين والمحرقين .

★ ★ ★

قال ايفان كرامزوف بطل الرواية التى تتخيل هذا الملتقى وهذا الحوار : أن السيد المسيح لم ينبس بكلمة ولم يقابل هذا الوعيد وهذا العداء بعبوس أو ازورار ، وتقدم إلى المفتش الأعظم ـ وهو شيخ فان في التسعين ـ فلثم شفتيه وخرج إلى ظلام المدينة وغاب عن الأنظار .

خلاصة لما تخيله الكاتب العظيم في خطاب طويل مملوء بحكمة الحياة كما يراها « الحكماء » من الطرف الآخر الذى يقابل الحكمة المسيحية : حكمة الرسول الكريم .

ولا نحسب أن الخيال في هذا الخطاب العجيب بعيد من الحقيقة ولا نستبعد ما قاله المفتش الأعظم حين أنذر الرسول الكريم أن يسلمه لمن يثور عليه ويصب عليه الويل والغضب ، بعد أن أحاط به ولثم قدميه وتوسل اليه .

كلا . ان الخيال في ذلك الخطاب العجيب غير بعيد من الحقيقة وأقرب شيء إلى طبائع الناس أن يصنعوا ذلك الصنيع وأن يتبعوا المفتش الأعظم في نقمته على الرسول الكريم .

وأقرب شىء أن يكون ، لو عاد السيد المسيح إلى الأرض ، أن ينكر الكثير مما يعمل اليوم باسمه وأن يجد بين أتباعه كتبة وفريسيين ينعى عليهم الرياء ويعلمهم من جديد أن السبت للانسان وليس الانسان للسبت ، وأن العبرة بما فى الضمائر لا بما تفوه به الألسن ويبدو على الوجوه ، وأن الوحى الحى فى طوية الانسان لا فى طوايا الكتب والأوراق .

أقرب شىء أن يكون أن ينعى على الناس ما نعاه قبل ألف وتسعمائة سنة ، وأن يجد انسان اليوم كانسان الأمس فى شروره وعداوته ، وفى نفاقه وشقاقه ، وفى أعراضه عن اللباب واقباله على القشور ، وفى استعلائه بالتقوى حين يتقى ، ولجاجه فى الجحود والعدوان حين يجحد ويعتدى ، خمرا جديدة فى زق قديم ..

ذلك أقرب شىء أن يكون .

وأقرب شىء أن يقال اذا طاف بالخاطر ذلك الخيال ، أن يردد اللسان قول أبى العلاء :

تعب غير نافع واجتهاد لا يؤدى إلى غناء اجتهاد

ففيم يشقى المصلحون ، وفيم يهلك الشهداء ، وفيم يأتى الأنبياء ويذهبون ؟ وفيم اختلفت الديانات واصطرع عليها المتدينون ؟ فيم كل هذا ؟ فيم جاءهم رسول بعد رسول ؟ وفيم توالى التابعون بعدهم باحسان أو بغير احسان .

جاءوا وعادوا .

وانصرفوا والبلاء باق ولم يزل داؤنا العياء

لئن قيل هذا ليكونن أقرب ما يقال بعد تلك الحقيقة التى جاءت فى صورة الخيال .

ولكن الحقيقة الكبرى التى توزن بها جميع الحقائق هى أن الحقيقة لا ترى من جانب واحد ، ولا سيما الحقيقة التى تخلد على الزمن فى أطوار الانسان منذ كان ، وتخلد معه أنى يكون .

وليست حرية الضمير مطلبا محدود المسافة ، يرحل اليه الانسان ، ثم يصل اليه ويقعد عنه ، ويكف بعده عن كل عناء .

انما حرية الضمير جهاد دائم وعمل دائب ، يتقدم فيه الانسان شوطابعد شوط ، أو طبقة فوق طبقة ، ولا يفرغ من جهاده يوما الا لينظر بعده إلى جهاد مستأنف ولا يودع الشر فى مرحلة من مراحله الا ليلقاه ويجاهده ، ولن يلقاه فى سلام .

ومطالبنا المحسوسة تهدينا إلى القياس الصحيح فى هذه المشكلة ، وهى أولى بأن ندركها من المطالب الخفية التى تعتلج بالضمير وتبتعثه إلى العمل مرة حيث يرى مواقع خطوه ومرات حيث يبصر فلا يرى غير الحجب والظلمات . .

منذ يقول أن عناء التعليم باطل اذا رأى الطفل يحمل الكتاب وهو فى الخامسة ، ورآه يحمله وهو فى العاشرة ، ورآه يحمله وهو فى العشرين ثم فى الثلاثين ، ثم رآه مدى الحياة لا يستغنى عن علم ولا يقضى على الجهل كل القضاء .

منذ يقول أن عناء الطلب باطل اذا رأى الناس يمرضون بعد علمهم بالجراثيم وبعد افتتانهم فى الطبابة ومواقع الدواء وموانع الشفاء .

منذا يقول أن الغاية عبث لأن الطريق اليها طويل ، أو لأنها غاية تتلوها غاية بلا انقطاع ولا اكتفاء ؟

لا نقول هذا فى محسوساتنا التى نلمحها ونلمسها ، فهل نقوله فى غاية كحرية الضمير هى سر الأسرار فى حياة الانسان منذ كان وأنى يكون ؟

وليست العبرة أن الشر واقع ، ولكن العبرة كيف ننظر اليه وكيف نواقعه أو كيف نتقيه .

واذا وقع اثنان فى الشر ، فليس الذى وقع فيه وهو مستريح اليه مستزيد منه ، كالذى وقع فيه وهو مضطر اليه نادم عليه ، وليس الذى وقع فيه وهو يعلمه كالذى وقع فيه وهو يجهله ، أو يقف منه موقف المغالطة بين العلم والجهل وبين القصد والاضطرار .

انما الانسان غير الحيوان البهيم لأنه صاحب ضمير ، وانما يقاس ضمير الانسان بالقيم التى يقومها والمثل العليا التى يتمثلها ، والمطالب التى يطلبها وينالها أو لا ينالها ، وما دام المصلحون والرسل يعلمون الانسان قيمة يغليها ويرفعون أمامه مثلا أعلى يتسامى اليه . . فهم عاملون ، وعملهم لازم ، ونتيجته محققة ، وان دام الشر ولم ينقص عدد الذنوب والجرائم بأرقام الاحصاء .

واذا قلنا يوما أن الانسان فى هذا العصر يطلب الخير ولا يدركه ، فقد قلنا على اليقين انه أفضل من الانسان الذى كان لا يطلبه ولا يعرفه ، وان عمله غير مطلوب وغير معروف ، كما يعمل الحيوان البهيم .

انما تقاس الأديان بما تودعه النفوس من القيم والحوافز ، وبما تزيده من نصيب الانسان فى حرية الضمير أو فى حرية التمييز بين الحسن والقبيح ، وقد عملت الأديان كثيرا ولا تزال قادرة على العمل الكثير ، ولكنها لن تغنى الانسان يوما عن جهاد الضمير .

كان جهلاء الناس فيما غبر ينتظرون ألف سنة يعم فيها الخير وينقطع فيها الشر ويمتنع الشقاء ولا يرى فى العالم يومئذ غير سعداء أبناء سعداء .

وكان « العارفون » يقولون عن هؤلاء انهم جهلاء .

لكن هؤلاء العارفين أجهل منهم اذا اعتقدوا أن دينا من الأديان لم يعمل عملا ، ولم يكن غير عبث من العبث ، لأن الدنيا باق فيها الشر ، باق فيها البغى ، باق فيها الكفران .

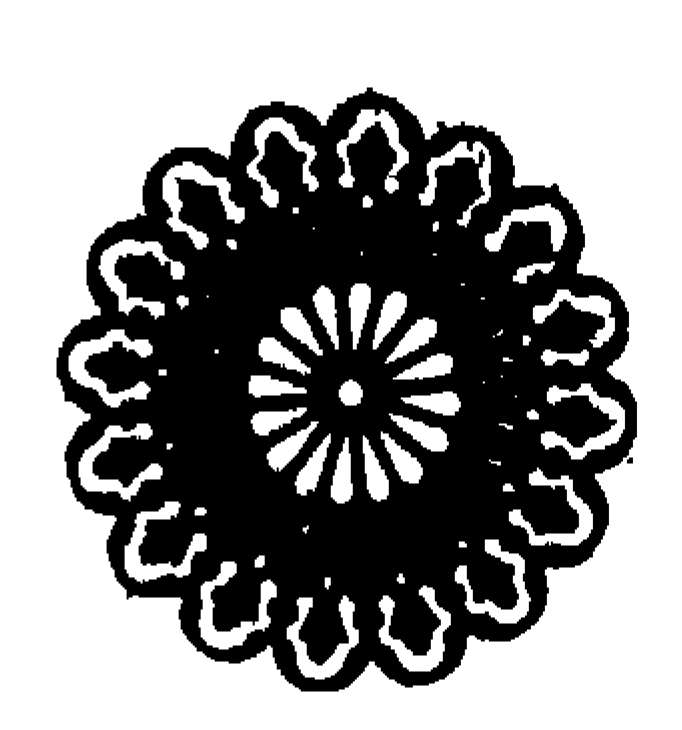
أى فرق بين العارفين الذين ينتظرون من الدين دنيا لاتعاب وبين الجاهلين الذين انتظروا السعادة المطلقة فى « الألفية » الموعودة آخر الزمان ، بعد قرون تعد بالعشرات أو بالمئات ؟

لعل هؤلاء الجاهلين أقرب إلى التقدير الصحيح من أولئك العارفين ، لأنهم يفكرون وينتظرون « الألفية » . . وقد انتظرها الجاهلون بغير تفكير !

لو عاد السيد المسيح اليوم لوجد كثيرا يصنعه ويعيد صنعه ، ولصنع كثيرا بين اتباعه ومن يعملون باسمه ويتواصون بوصاياه ، ولكن الدنيا التى يصنع فيها الهداة صنيعا كثيرا خير من الدنيا التى لا موضع فيها لصنيع الهداة وجهاد الضمير .

ولن يختم المسيح العائد إلى الدنيا رسالة الخير والهداية ، فتلك هى شوط الضمير الذى لا ختام له ، وهو فى الغاية وراء كل ختام وسيعلم الناس فى العصر الحديث - ان لم يكونوا قد علموا حتى اليوم - أن عقيدة الانسان شىء لا يأتيه من الخارج فيقبله مرضاة للداعى أو ممتنا عليه ، ولكنها هى ضميره وقوام حياته الباطنية يصلحه ، ان احتاج إلى الاصلاح ، كما يصلح بدنه عند الطبيب وهو لا يمتن عليه ولا يرى انه عالج نفسه لمرضاته . فالعقيدة مسألة الانسان ، لا شأن للأنبياء بها الا لأنها مسألة الانسان ، وعليه اذا عالج اصلاحه أن يعالجها كما يعالج جزءا من نفسه بل كما يعالج قوام نفسه ، ولا يعالجها كأنها بضاعة يردها إلى صاحبها ويفرغ من أمرها ، فلا فراغ من أمر العقيدة إلى آخر الزمان .

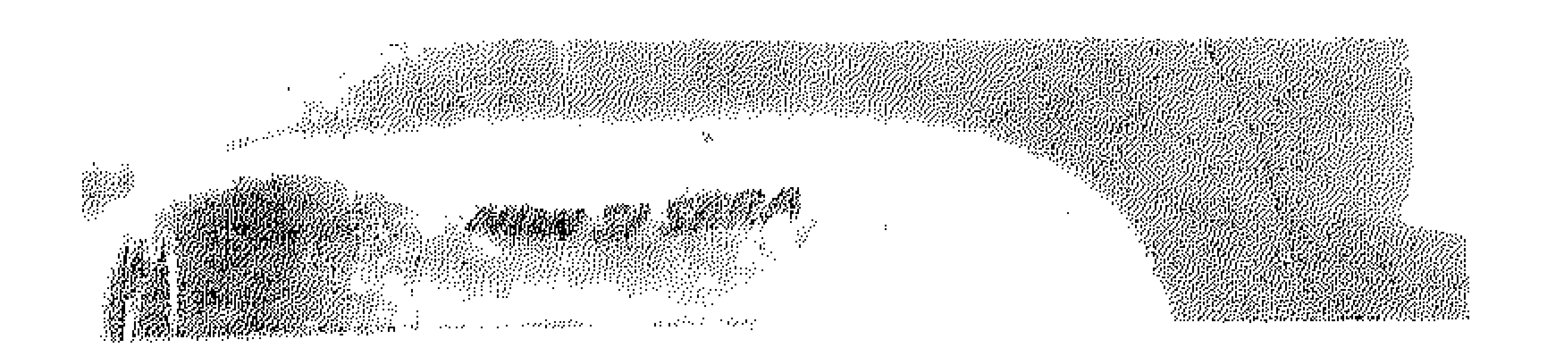
■ ■ ■



محتويات هذا الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٨٨٥٥ / ١٩٩٠

الترقيم الدولى ISBN 977 - 08 - 0080 - 5



٢٠٠ قرشاً

مطابع الأخبار